



ہولے العالم فے کتبے
بہترافے
الکتور عزالدین فرید
(۱۰)

البرازیل...
شعبها وأرضها

نشر هذا الكتاب بالاشتراك

مع

مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر

القاهرة — نيويورك

مارس سنة ١٩٦٩

البرازيل... شعبها وأرضها

تأليف
روفر براون

مراجعة وتقديم
الدكتور عز الدين فريد

ترجمة
العميد ركانة حبيب
محمد عبد الفتاح إبراهيم

الناشر
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدوت - القاهرة

هذه الترجمة مرخص بها ، وقد قامت مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر
بشراء حق الترجمة من صاحب هذا الحق .

This is an authorized translation of THE LAND AND PEOPLE
OF BRAZIL by Rose Brown. Copyright © 1960 by Rose Brown.
Published by J.B. Lippincott Company, Philadelphia .

المشتركون في هذا الكتاب

المؤلفة : روز براون

المترجم : محمد عبد الفتاح إبراهيم : عميد أركان حرب . ماجستير في العلوم العسكرية . دبلوم الدراسات العليا في التاريخ والآثار السودانية من معهد الدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة . صحفي ومؤلف ومترجم كتب وترجم في موضوعات كثيرة متنوعة من الدراسات المنزلية إلى العلوم الاجتماعية ودراسات الاستراتيجية والحرب . كتب عن النبي محمد « محمد القائد » وأرخ ليكلا وزيفتز ، وسوفورف ، والمدارس العسكرية في العالم . (انتقل إلى رحمة الله في أثناء طبع هذا الكتاب) .

المراجع وصاحب المقدمة : الدكتور عز الدين فريد : رئيس قسم الجغرافيا بكلية الآداب بالجامعة الأردنية . تخرج في مدرسة المعلمين العليا بالقاهرة سنة ١٩٢٨ . حصل على درجة الليسانس من جامعة ليفربول سنة ١٩٣٢ ، وعلى الدكتوراه من جامعة لندن سنة ١٩٣٧ . عمل أستاذا بكلية التجارة بجامعة القاهرة من سنة ١٩٣٧ إلى سنة ١٩٥٥ ، ثم عميدا لكلية الآداب جامعة القاهرة من سنة ١٩٥٥ إلى سنة ١٩٦٢ ، ومديرا لمعهد الدراسات الأفريقية من سنة ١٩٥٥ إلى سنة ١٩٦٤ ، ثم رئيساً لمجلس إدارة الدار القومية للطباعة والنشر ، ثم وكيلا لوزارة الثقافة .

مصمم الغلاف : وفدى بطرس أيوب .

محتويات الكتاب

صفحة

| | |
|-----|------------------------------------|
| ١ | تقديم : بقلم الدكتور عز الدين فريد |
| ٥ | ١ - نصف أمريكا الجنوبية |
| ٧ | ٢ - الطرق الجوية والطرق البرية |
| ٤١ | ٣ - موجز تاريخ البرازيل |
| ٧٣ | ٤ - ريو دي جانيرو |
| ١٠١ | ٥ - ميناس جيرائس |
| ١١١ | ٦ - ساو باولو المدينة والولاية |
| ١٣٥ | ٧ - جنوب البرازيل |
| ١٥٣ | ٨ - باهيا |
| ١٦٩ | ٩ - الشمال الشرقي |
| ١٨٧ | ١٠ - عادات الناس |
| ٨٠ | مجموعة الصور تلى صفحة . . . |

تقديم بقلم الدكتور عز الدين فريد

إذا نظرنا إلى خريطة سياسية لأمريكا الجنوبية فإن أول ما يلفت نظرنا هو وجود دولة ضخمة تسكد تشغل نصف مساحة القارة ، تبدأ حدودها من شمالي خط الاستواء ، وتمتد جنوباً حتى تتجاوز مدار الجدى . إن هذه الدولة العملاقة — وهى البرازيل — تعد من دول العالم الكبرى من حيث المساحة ، كما أنها تأتى الثامنة فى الترتيب من حيث عدد السكان الذين بلغوا ٩٠ مليون نسمة . وتتسع مساحة البرازيل الحالية لما يقرب من مائة دولة من حجم البرتغال — وهى الدولة الأوربية القزمية التى تحكم فى البرازيل ما يزيد على ثلاثة قرون .

وكعادة المستعمرين فى البلاد التى يحتلونها ، احتكرت البرتغال تجارة البرازيل من صادرات وواردات ، وحققت من وراء ذلك ثروة ضخمة ، ولكنها كانت تعتمد على جلب الأيدى العاملة من إفريقيا فى شكل رقيق . كما أنها استغلت السكان الوطنيين من الهنود الحمر أسوأ استغلال .

وقد تعرضت بعض أجزاء هذه المستعمرة البرتغالية الكبيرة لغزوات من الفرنسيين والهولنديين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، ولكنها لم تدم طويلاً ؛ لأن الغزاة كانت لهم مصالح أخرى تستدعى كل اهتمامهم فى أمريكا الشمالية وإفريقية وآسيا .

وفى أوائل القرن التاسع عشر تضافرت عدة ظروف للتعجيل

باستقلال البرازيل ؛ إذ عندما غزا نابليون البرتغال عام ١٨٠٨ فرت الأسرة المالكة البرتغالية إلى البرازيل وكونت حكومة في المنفى ، على رأسها الأمير « جون » الذي كان وصياً على والدته الملكة « ماريا » لما كانت تعانيه من مرض عقلي . فلما توفيت الملكة تولى « جون » الحكم ، واستطاع البرازيليون أن ينزعوا منه دستوراً قبيل عودته إلى البرتغال عام ١٨٢١ . وكان « جون » قد عين ابنه « بدرو » وصياً على البرازيل قبل أن يغادرها . غير أن « بدرو » لم يطق أن يتلقى الأوامر من البرتغال ، فزعم حركة وطنية انفصلت بها البرازيل عن الدولة المستعمرة ، وأعلنت استقلالها عام ١٨٢٢ كحكومة ملكية على رأسها الإمبراطور « بدرو » الأول . وفي عام ١٨٨٩ قامت ثورة أطاحت بالحكم الملكي ، وأصبحت البرازيل منذ ذلك التاريخ جمهورية باسم « الولايات المتحدة البرازيلية » ، إلى أن صدر دستور البلاد الأخير عام ١٩٦٧ وجعل اسم البلاد « البرازيل » .

ولعل أهم ما ترتبط به البرازيل في ذهن الشخص العادي هو أنها دولة البن . ومع أن هذا المحصول لا يزال يمثل نحو نصف صادرات البلاد من حيث القيمة ، إلا أن أهميته النسبية في حياة البلاد الاقتصادية آخذة في التناقص بسبب تنمية موارد الدولة الأخرى ، سواء الزراعية منها أو المعدنية والصناعية . ففي الميدان الزراعي تعتبر البرازيل من دول العالم الهامة في إنتاج كل من القطن وقصب السكر — اللذين يمثلان معاً نحو ١٠ ٪ من قيمة صادراتها . وهي تأتي الثانية بعد غانا في إنتاج السكاكاو ، ولا يفوقها سوى الولايات المتحدة في إنتاج البرتقال . وللبرازيل إنتاج ضخم من الذرة

يضعها في المرتبة الثالثة في العالم بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ، كما أنها أكبر دولة خارج آسيا الموسمية في إنتاج الرز . أما بالنسبة إلى القمح فإن البرازيل لا تنتج ما يكفي حاجتها منه ، ولذلك تبرز هذه الغلة في وارداتها .

ولا يزال استغلال الثروة المعدنية في البرازيل في مراحله الأولى ، ومع ذلك فإن ما كشف منها حتى الآن يبشر بمستقبل هام للبلاد في الإنتاج المعدني — فيما عدا مواد الوقود كالنفط والبتروكيمياويات التي لم يتحقق وجودها بالكميات التي تفي بحاجة البلاد . وقد كشفت حديثاً طبقات من الحديد الخام تعتبر من أغنى ما عرف منها في العالم ، سواء من ناحية الكمية (٣٥٠٠٠ مليون طن) أو من ناحية النوع الذي يماثل أجود أنواع الحديد السويدي . وقد أصبح الحديد الخام بفضل هذا الكشف ثانياً صادرات البرازيل بعد البن .

والخلاصة أن البرازيل ينتظرها مستقبل اقتصادي كبير ، وقد لا ينتهي هذا القرن إلا وتكون في مصاف قوى العالم الكبرى كالولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي والصين .

أما شعب البرازيل فيضم عناصر متعددة ، منها الهنود الاصليون ، ثم الإفريقيون الذين قامت على اكتشافهم الزراعة في أيام الرقيق ، والأوروبيون من جنسيات مختلفة ، ولكن يغلب فيهم البرتغاليون ، وبعض الآسيويين . مثل اليابانيين . وقد حدث اهتزاز على نطاق كبير بين بعض هذه العناصر وبعضها ، وإن كانت العناصر الأوروبية لا تزال تحتفظ بنقائنها إلى حد كبير .

البرازيل : شعبها وأرضها

٤

غير أن الجميع يشعرون أنهم برازيليون ، لايشوب علاقاتهم تمييز عنصري ، أو تفرقة في المعاملة من أى نوع .

وفي مجال التعليم خطت البرازيل خطوات واسعة ، وبخاصة بعد الحرب العالمية الأولى . فأنشئت أول جامعة بها في « ريودي جانيرو » عام ١٩٢٠ ، ويبلغ عدد الجامعات في الوقت الحاضر ٢٤ جامعة . وتعمل الدولة جاهدة على التوسع في التعليم في شتى مراحله لارتباط ذلك بخطط تنميتها .

وقد أدركت مؤلفة هذا الكتاب أن البرازيل شبه قارة ، وأن عرض جميع الحقائق الطبيعية والبشرية الخاصة بها لا يمكن أن يستوفى في كتاب من هذا الحجم . ولذلك إختارت المؤلفة أن تنتقل بالقارئ في رحلات جوية سريعة من مدينة إلى أخرى ، وركزت اهتمامها على ما يلفت نظر الزائر من ملامح هذه المدن وطباع أهلها وعاداتهم ، ونجحت في إعطاء القارئ صورة آحية لكل ماشاهدته حتى لكأنه كان برفقتها وهي تقوم بجولاتها في أرجاء البرازيل الواسعة .

إن هذا الكتاب الذي يصدر عن مؤسسة فرانكلين يضيف إلى المكتبة العربية معلومات شائنة عن شعب قريب إلى قلوب العرب ، وعن بلاد وجد فيها كثير من أبناء الأمة العربية وطناً جديداً يسهمون في تقدمه وإعلاء شأنه .

١ نصف أمريكا الجنوبية

من الصعب أن نتحدث عن « الولايات المتحدة البرازيلية » دون أن نستخدم باستمرار أفعل التفضيل مثل « أكبر » و « أعظم » . وكبداءة للحديث فإن البرازيل أكبر دول أمريكا الجنوبية ، فهي ثلاثة أضعاف مساحة الأرجنتين ، وثمانية أضعاف مساحة كولومبيا أو بوليفيا . وإذا ما اقتطعنا من الولايات المتحدة الأمريكية الولايتين الجديدتين : ألاسكا وهاواي ، كان الجزء الباقي أصغر من مساحة البرازيل ، على حين أنه يجب أن تضم الجزر المتجمدة في المنطقة القطبية إلى مساحة كندا حتى تزيد مساحتها على مساحة البرازيل . وليس في باقي العالم دول أكبر مساحة من البرازيل إلا الاتحاد السوفييتي والصين (١) .

فإذا ما انتقلنا للتحدث عن البرازيل من الناحية الجغرافية فإن أنهارها من أطول أنهار العالم ، وبخاصة الأمازون وفروعه ، ويمكن أن تدخل السفن عابرات المحيط في النهر إلى مسافة ألفي ميل حتى بيرو . وتبلغ

(١) مساحة البرازيل ٣٢٨٧١٩٥ ميلا مربعا ، وتمتد أرضها ٣٦٨٣ ميلا من الشمال للجنوب و ٢٦٨٩ ميلا من الشرق إلى الغرب ، وجملة السكان كإحصاء سنة ١٩٥٨ تبلغ ٦٣١٠٣٠٠٠ ، ونسبة كثافة السكان ١٩٣ للميل المربع الواحد . « أطلس دائرة المعارف البريطانية طبعة ١٩٦١ ص ٨٦ » .

مساحة الحوض الذى تنصرف فيه مياه نهر الأمازون ضعف مساحة حوض نهر الميسيسيبي . وللأمازون قرابة مائة فرع ورافد صالحة كلها للبلاحة . وإذا ما وضعنا فى الحسبان بعض الفروع التى تمتد إلى أراضي البلاد المجاورة لوجدنا أن السفن البخارية تستطيع أن تسير فى النهر وفروعه إلى مسافة عشرين ألف ميل ، أى ما يترب من طول المسافة حول العالم .

وتقع على طول شاطئ النهر أعظم الغابات والأحراش التى تحتوى على أنواع من الأشجار لا يحصى عد ، ولقد صنفت إحدى شركات نشر الخشب على الأمازون نحو سبعة آلاف نوع من الخشب تشتمل على أصابها عوداً وأثقلها وزناً « كخشب الحديد » الذى يتغير فى الماء ، وعلى خشب « البلسا » الذى يطفو كالفلين ، ومع هذا فهو من القوة والصلابة بحيث يستعمل فى صنع هياكل الطائرات .

ويطلق البرازيليون على شبكة نهر بلاتينا المائية المكونة من أنهار « بارانا » و « براجواى » و « أورجواى » التى تجرى فى أقصى الطرف الجنوبي لهذه البلاد الفسيحة . . يطلقون عليها المجموعة المناظرة والمنافسة للأمازون . فأحد أنهارها — وهو نهر براجواى — تنصرف إليه أكبر منطقة مستنقعات فى الكرة الأرضية ، كما تتع فى مجرى نهر بارانا أعظم مساقط مائية فى العالم — وهى التى تسمى « سیتی كيداس » Sete Quedas أو « المساقط السبعة » .

وقليل من البلاد لها سواحل يسكن أن تقارن بطول سواحل البرازيل التي تصل إلى ٥٠٠٠ ميل ، بل إن سواحل البرازيل أطول من سواحل الولايات المتحدة على المحيطين الأطلنطي والهادي معاً . وفي البرازيل أيضاً أعظم منجم للذهب ، كما أنها تستقبل أكبر كمية من المطر في العالم .

وترجع شهرة البرازيل العالمية أساساً إلى أنها البلد الذي يجيء منه قطن الذي تصنع منه القهوة . ففي الولايات المتحدة يشرب كل أمريكي يافع ثلاثة فناجين من القهوة كل يوم ، يجيء اثنان منها من البرازيل .

وفي أثناء التسابق لإنتاج أكبر كمية من الكاكاو ، وصلت البرازيل إلى مكان الصدارة إبان الحرب العالمية الثانية . وتنتج البرازيل من التبغ ما يكفي لاستهلاك الأهلين محلياً مع فائض للتصدير . ويجيء في مقدمة ما يستخدم للغذاء من إنتاج البحر ، ومن حيوانات الصيد أكبر أنواع المحار والضفادع والتماسيح والأفاعي والطيور . وهذه كلها بعض أمثلة تستلزم استخدام كميات التفصيل التي نحتاج إليها لوصف تلك البلاد التي تزيد على نصف أمريكا الجنوبية ، والتي تشغلها الولايات المتحدة البرازيلية ، ولكنها تكفي كي توضح لك أنك لو أردت الرحلة لمسافات طويلة في هذه البلاد غير العادية فلا بد لك من أن تخترع زوجاً من النظارات التي تحترق الطبقة الجوية العليا ، والتي تمكنك من التحديق لمسافات ساحقة البعد ، وإلا لما استطعت أن ترقب الكثير ، حتى ولا من الطائرة النفثة السريعة التي ستمتطي بها الهواء بادئاً رحلتك إلى البرازيل . ومع تعدد الطرق

الجلوية فالعادة أن تبدأ المرحلة الأخيرة لرحلتك من مدينة نيويورك، ويجب أن تكون نظاراتك البعيدة المدى صالحة أيضاً لحماية عينيك من أشعة الشمس ، ذلك لأن طائرتك ستنتجه من فورها إلى المنطقة الاستوائية حيث يشتد ضوء الشمس .

ولكى تحدد اتجاهات رحلتك فانظر إلى خريطة العالم ، أو لعل الأفضل أن تحضر قطعة من خيط الدوبارة ، وتقوم برحلة تمهيدية على أحد نماذج الكرة الأرضية في مكتبة من المكتبات ؛ ضع أحد طرفي الخيط على مدينة نيويورك ، ومد الخيط باستقامة إلى مدينة ريو دي جانيرو ، وسترى أن أقصر الطرق وأقرب المسالك لتسير عليه هو الخط المستقيم الذي رسمته بهذا الخيط بين المدينتين الكبيرتين .

ومع أن طائرتك تنحرف قليلاً هنا أو هناك لتهبط في مطار « سيوداد تروخيلو » Ciudad Trujillo في جمهورية الدومينيكا وفي مطار « يليم » بالبرازيل ثم في « ريو دي جانيرو » ، إلا أن مسارها مستقيم كما يطير الطير عبر البحر الكاريبي ووسط فنزويلا حتى تتف في أول وقفه لها بالبرازيل في مدينة « يليم » . وإذا تتبعنا هذا الخط الذي مددته على الطريق إلى مدينة ريو دي جانيرو فستجد أنك قطعت مسافة قدرها خمسة آلاف ميل .

وهذا الطريق المباشر من نيويورك إلى ريو دي جانيرو هو الذي يسميه الجغرافيون « طريق الدائرة العظمى » وقد سمي كذلك لأنه يتبع القوس أو الدائرة التي تمثل أقصر مسافة بين نقطتين على سطح الكرة الأرضية ،

ولا يوجد طريق أقصر من ذلك إلا إذا تصورت أنك تستطيع أن تخترق القشرة الأرضية ، وتنفذ خلالها كما تفعل الديدان .

وخليق بك، وأنت على أهبة الرحيل ، أن تعرف إلى أين أنت ذاهب ، فضع نظاراتك البعيدة المدى لأنك ستبدأ المرحلة الأولى من رحلتك إلى « سيوداد تروخيلا » . وإذا كانت نظاراتك البعيدة المدى تعمل عملها جيداً فسيبدو لك منظر البرازيل عن بعد فور عبورك البحر الكاريبي .

وأول ماستلاحظه أن البرازيل شديدة الشبه بقارة أمريكا الجنوبية ؛ فهي مثلثة الشكل تقريباً تضيق مساحتها نحو الجنوب . ولما كانت البرازيل أكبر البلاد الاستوائية مساحة فإن أغلب أرضها تقع في المنطقة المدارية بين خط الاستواء ومدار الجدى ، ولكن الطرف الجنوبي من البرازيل يمتد في المنطقة المعتدلة ، وهنا (في هذه المنطقة المعتدلة) تقع الولايات الثلاث الباردة نسبياً : بارانا — سانتا كاترينا — وريو جراند دوسول . وتكاد باقى أجزاء البرازيل لاترى الثلج أو الصقيع على الإطلاق ، وحتى في الطرف الجنوبي يعتبر الثلج إحدى العجائب ، حتى إنه عندما يتساقط يسرع الناس بآلات التصوير لالتقاط صور له .

والسبب في تعرج أضلاع المثلث الذى يكون البرازيل هو أن كل حدودها تقريباً حدود طبيعية تتكون من الماء . والطرف الشرقى الذى يمكن أن نطلق عليه « انبعاث » البرازيل يمتد لمسافة طويلة في المحيط الاطلسي ، أكثر من أية نقطة أخرى في نصف الكرة الغربى . ولما كانت هذه النقطة تقع على مسافة ١٦٠٠ ميل فقط من إفريقية فإن مدينته

« ناتال » — الواقعة على الحافة الشرقية لهذا الانبعاث — كانت نقطة
الوثوب لطائرات الولايات المتحدة الحربية في طريقها إلى إفريقيا وإلى
البحر المتوسط .

وتتأخم الحدود الداخلية للبرازيل التي يبلغ طولها نحو ١٠.٠٠٠
ميل كل دول أمريكا الجنوبية عدا شيلي واكوادور . وتكون الأنهار
كثيراً من تلك الحدود بين البرازيل وجاراتها ، وهي تتعرج في مجاريها عبر
تلك الحدود . ولما كانت هذه الأنهار تفيض بانتظام كل عام في المواسم
الممطرة ، فإن مجاريها تتغير باستمرار ، مما يزيد تعقيد الخطوط التي تمثل
الحدود .

وفي الشمال يفصل نهر « أويابوك » Oyapoc البرازيل عن « جيانا
الفرنسية » ، كما يجري فرعان لنهر « ريو برانكو » بين جيانا البريطانية
وبين البرازيل . ويكون نهر « جافاري » خط الحدود الطويل مع بيرو ،
كما تكون أنهار « مديرة — ييني — براجواي » الحدود مع بوليفيا .
وتجري أجزاء من نهري بارانا وبراجواي بين البرازيل وبين براجواي
في الجنوب ، في حين يكون نهر أوروجواي الجزء الأكبر من خط
الحدود الذي يفصل البرازيل عن الأرجنتين . وهناك عشرات من مجاري
المياه الصغيرة الأخرى التي تسكاد فائدتها تقتصر على بيان خط الحدود في
المناطق النائية .

وبوجه عام ستشاهد من خلال نظاراتك البعيدة المدى ثلاث شبكات

أنهار عظيمة تصب فيها كل هذه الجداول وتنصرف إليها مياه كل هذه الأراضي تقريباً . ففي الشمال يوجد نهر الأمازون ، وفي الوسط والجنوب مجموعة أنهار « بلاتينا » التي تتكون من أنهار بارانا وبراجواي وأوروغواي ، وعلى الجانب الأطلنطي يوجد نهر (ريو) سان فرنسيسكو الذي يطلق عليه البرازيليون « نهر الوحدة » ؛ ذلك لأنه في مطلع تاريخ تلك البلاد كان يربط بين الولايات الهامة الواقعة على الساحل وبين الأقاليم الداخلية ، فأتاح للمستوطنين وسيلة الهواصلات ربطت بينهم وجعلت منهم أصدقاء ضمتهم فيما بعد أمة واحدة .

والواقع أنك إذا فحصت هذه المساحة الكبيرة من سطح الأرض بواسطة نظاراتك الخاصة فستلاحظ أن أهم ما يميزها هو الأنهار التي تتباعد بعضها عن بعض حتى لتبدو وكأنها خطوط متعرجة تذكرك بالأوردة والشرايين في الدورة الدموية للإنسان ، كما توضحها صورة في أحد كتب علم وظائف الأعضاء أو علم الفسيولوجيا . فكانت الأنهار في أهمية الشرايين فعلاً ، لأنها ساعدت على انتشار السكان في البرازيل . فتتخذ المدن مواقعها على ضفاف الأنهار كجبات الخرز التي ينتظمها خيط العقد . وقد انتشر الاستيطان والحضارة بادية ذى بدء على الساحل ، ثم توغلا في البلاد عن طريق الأنهار . وحتى اليوم فإننا إذا ابتعدنا عن مجارى المياه تلقى مساحات كبيرة من الأرض وليس فيها قرية واحدة . ولا يقع نظر الإنسان في هذه الأراضي المقفرة حتى على سحابة دخان خفيفة تتصاعد من كوخ رائد ،

أو من معسكرهندي ، لأن كثافة السكان لا تسكاد تباعف نفراً واحداً في كل مائة ميل مربع .

لم يكن هناك في بادئ الأمر طرق ممهدة تصلح لسير العربات إلا بالقرب من المدن . وكانت الدروب الضيقة وعرة ، وكثيراً ما كانت خطيرة شديدة الانحدار . ومن ثم كان الناس يفتقلون من مكان إلى آخر إما مترجلين وإما على ظهور الخيل ، في حين كان عامة القوم يحملون في مقاعد السلال بواسطة الرقيق أو في أراجيح من شباك على أكتاف بشرية ، فإذا كان الدرب يسمح وضعت محفمة على هودج « عريش » بين بغلين أحدهما أمام الآخر ، وفي داخل هذه البدعة التي تشبه الحفمبة الكبيرة يجلس مسافر أو اثنتان في راحة تامة ، على حين يسير سائق أمام كل من البغلين حتى يسيرا بخطى منتظمة .

ويرجع أول خط حديدي أنشئ في البرازيل إلى عام ١٨٥٤ ، وكان طوله أقل من تسعة أميال . وقد تم مد عدة خطوط حديدية في العشرين السنة التالية ، ولكن مجموع طولها إلى الآن لا يزيد على نحو ٢٣٠٠٠ ميل ، أو ما يعادل طول حدود البلاد تقريباً .

ولذا نظرت إلى البلاد من طائرة مرتفعة فستشاهد خطوطاً حديدية فردية تتجه من الساحل إلى مسافات قصيرة في الداخل وجميعها في الجزء الشمالي . أما شبكات الخطوط الحديدية فلا توجد إلا حول « ريودي جانيرو » و « ساو باولو » و « بيلو أوريزونتي » وفي الجنوب .

والواقع أن ست ولايات فقط من ولايات البرازيل هي التي تحتوي

على ما يشبه خدمة بالخطوط الحديدية . فالنقل بالسكك الحديدية لم يجار النور والتقدم الذى سارت فيه البلاد ، ومن حسن الحظ أنها لم تعد بحاجة إلى هذا لأن البرازيل قد اجتازت جزئياً عصر الخطوط الحديدية ، ووثبت وثبة واسعة نحو عصر السيارات والخطوط الجوية .

ولقد كانت الجبال السبب فى تعطيل مد الخطوط الحديدية ؛ إذ تشرف حافة الجبال المرتفعة على طول الساحل الأوسط ، وتندقسم فى الداخل إلى عدة سلاسل وعرة ذات ممرات يصعب اختراقها .

وكانت هذه الأرض الوعرة مغطاة ذات يوم بغابات من الخشب الصلب مثل « الموجنة » Mahogany وأخشاب الصباغة Dyewood مما عاد بالثروة على المستوطنين الأولين ، ولكنها فى الوقت نفسه أقامت حاجزاً صخرياً يتراوح عرضه بين مائة ومائتى ميل ، مما حال دون انتشار للمستوطنين من المحيط إلى الداخل .

ثم إن تلك الجبال واجهت مهندسى السكك الحديدية فيما بعد بمشكلة عويصة . وللهر أن يتساءل عن كيفية تطور تاريخ الولايات المتحدة فى سنواته الأولى لو أن جبال « الليجاني » تشابهت مع سلسلة البرازيل الساحلية فى ارتفاعها المفاجئ من المحيط ، عازلة الموانئ عن داخل البلاد على طول ساحل الأطلسنطى من « بوسطن » شمالاً حتى « شارلستون » جنوباً . .

وليس لهذه الجبال ما تفخر به إلا عمرها المديد الذى يرجع إلى عصور

سحابة ؛ إذ يعتقد بعض الجيولوجيين أنها كانت أول مظهر من أراضي أمريكا الجنوبية فوق سطح البحر . ولكن لا يمكن استخدام ألفاظ التفصيل في وصف حجمها ؛ إذ لا توجد في جميع المنطقة الجبلية الواقعة غربى نهر سان فرانسيسكو وعلى طول الحدود بين البرازيل وبين فنزويلا وبلاد جيانا قمم مرتفعة يمكن أن تقارن بقمم جبال الانديز . ولا توجد فيها براكين حديثة نائرة مازالت ساخنة تنفث الدخان من فوهاتنا ، فهذه جبال مجمدة أدركتها الشيوخوخة ، وسفوحها الجرانيتية عارية قد تحتلها وشقتها الأمطار الاستوائية المستمرة والحرارة اللافتة التي تعرضت لها آلاف السنين ، ومن ثم فإن أعلى قممها لا يزيد ارتفاعه اليوم على ١٠٠٠٠ قدم . وتتفرد المناظر الطبيعية في البرازيل بالصخور المتبلورة العادية المديبة كالإبر أحياناً ، والتي تختلف ألوانها من اللون الوردى إلى اللون الأسود ، وتبرز هذه الصخور وسط مساحات شاسعة من الأراضي الخضراء الياضعة التي تمتد من فنزويلا وجيانا إلى السهول الجنوبية الكبرى ، ثم إلى الأرجنتين وباراجواى وأوروغواى فيما عدا منطقة كتيبان وصحراء تظهر كبقعة بيضاء وسط الانبعاث البرازيلي . وحتى هذه نجدها محاطة بإطار سميك من أشجار النخيل .

وعندما يتكلم البرازيليون عن جغرافية بلادهم فإنهم يستخدمون كلمة « بندوراما » Pindorama ولها عندهم معنى خاص جداً ؛ فهم يقصدون بكلمة « بندوراما » جميع ذلك المنظر الفسيح الذى مكنتك نظاراتك السحرية من رؤيته . . حافات الجبال على طول الساحل ، والحدود الشمالية ،

والانهار الثلاثة التي لاترى نهاياتها ، والتي تمتد متوزعة منتشرة في بحار داخلية ، أو تندفع في مساقط مياهها الرهيبة نحو المحيط الأطلنطى ، والنباتات والبرارى الدائمة الخضرة ، وإلى جانب هذا يقع نظر الإنسان هنا وهناك على الأزهار الاستوائية والأشجار المحملة بالناكهة ، وهى جزء هام من الجمال الذى يعتبره البرازيليون « بندوراما » بلادهم . وتمتد هذه البندوراما إلى السماء أيضاً لتشمل الشمس البراقة المتوهجة التي تضىء الأرض نهاراً ، وبمجموعة نجوم الصليب الجنوبي الذى يلمع في أثناء الليل . وهذه وتلك موضع حب وتقدير البرازيليين ، حتى إن بعضهم يقولون لأنهم مازالوا يعبدون الشمس كما يعبدوها كثيرون من هنود أمريكا الجنوبية . و « الصليب الجنوبي » الموضوع على العلم البرازيلى يمثل حقاً هذه المثالية القومية .

أما الهنود الذين اخترعوا كلمة « بندوراما » فقد أعطوها معناها الأصيل ، وهو « أرض النخيل » ، ولقد كان هذا وصفاً دقيقاً ؛ ذلك لأن أشجار النخيل تتوافر في كل مكان حتى في أقصى الجنوب حيث يميل الجو إلى البرودة .

وهناك على الأقل اثنا عشر نوعاً من النخيل التي تثمر البندق والفاكهة التي تشبع وتغنى الأمة ، كما توجد عشرات الأنواع الأخرى التي تمتد الناس بالآلياف النافعة ، فضلاً عما يضيفه منظرها على الطبيعة من جمال . وعندما يغترب البرازيليون بعيداً عن وطنهم وخاصة في البلاد الشمالية ، فإنهم يفتقدون الشمس ، كما يفتقدون الصليب الجنوبي ، ولكنهم

يفتقدون نخيهم أكثر من أى شيء آخر . وأحب القصائد الشعرية
القديمية إلى نفوس البرازيليين تلك القصيدة التي نظمها من مدة طويلة الشاعر
البرازيلي « جونزالفس دياس » ، وكان يقيم في باريس ويشعر بالحنين إلى
وطنه . وقد جاء في مطلعها :

بلادى بلاد النخيل

حيث تنشد الطيور الساخرة أغانيها

ولكن الطيور التي تشدو وتغرد هنا

لا تصدح بالحنان كالحنان طيورنا

الطرق الجوية والطرق البرية

إنك تحتاز الآن خط الاستواء الوهمي ، وتطير فوق البرازيل نحو ميناء « بيليم » الجوى ، ويبدو كساء الطبيعة أسفلك كقطعة من القطفة الخضراء الناعمة الملبس . فتند اندمجت السهول والسلاسل الجبلية فجأة في الغابة الكثيفة لحوض الأمازون الخثيث الذي يغطى نصف أرض البرازيل تقريباً ، والآن والطائرة تهبط بك يحسن أن تخلع عن عينيك نظاراتك البعيدة المدى .

وعاصمة ولاية بارا ، مثلها كمثل غيرها من العواصم الساحلية ، يطلق عليها عادة اسم الولاية التي هي عاصمتها ، ومع هذا فاسمها الحقيقي : « نوساسنورا ندى بيليم دوجران بارا » أو « سيدتنا من بيت لحم سيده بارا العظيمة » أو « بيليم » فقط للإيجاز . وستكون هنا وقفتك الأولى ، فإن بيليم أقصى موانئ البرازيل في الشمال ؛ إذ تمتع على دائرة عرض ٢ جنوب خط الاستواء .

ومع أنك قد وصلت بطريق الجو إلا أنه كان الأكثر طرافة أن تصل بالبحر ؛ ذلك لأنه بهذا الطريق تستطيع أن تشاهد أحد المصببات العظيمة لنهر الأمازون ، فإن مياه النهر تصبغ مياه المحيط بلون أصفر لمسافة أميال كثيرة قبل أن تدخل سفينةك فعلا مصب النهر ، ثم تسير بعد ذلك في النهر ذاته مسافة ثمانين ميلا . وتختلف جزيرة « ماراخو » Marajo التي

إلى يمينك والتي تسكاد تبلغ مساحة فرنسا ، كما تختلف السواحل الاستوائية التي إلى يسارك كل الاختلاف عن الأمازون الذي ستشاهده عند « ماناوس » Manaus . كذلك تختلف السفن التي تسير بين جزيرة « ماراخو » وبين الأرض الرئيسية وقد لونت أشعة الكثير منها بمختلف الألوان ، كما شيدت هياكلها في رشاقة مما يبرز أمامك صورة جميلة .

ولكن سواء أجتت بالسفينة أم جئت بالطائرة فإن أول مشهد سيلفت نظرك هو المطار الكبير الذي أنشئ في الحرب العالمية الثانية ، والذي جعل من « بيليم » الميناء الجوي الرئيسى للبرازيل . وسترى بعد ذلك خط الأفق الساحر الغريب للمدينة نفسها ؛ إذ ترتفع أبراج الكنائس القديمة ، وستتدفق الدور الحمراء ، ومن خلفها الأشجار الخضراء والسحب الناصعة .

ومع أن « بيليم » تجارى الطابع الحديث لمطارها الكبير إلا أن المدينة نفسها قد أنشئت قبل إنشاء الكثير من مدن أمريكا الشمالية مثل بوسطن . وهى لا تزال تحتفظ بهيكل بديع من مشاهد العالم القديم والمناطق الاستوائية الغضة . وتحد طرقها الواسعة أشجار المانجو التي تتدلى منها الأركيديا ونخس الذئب ، وتملأ الحدائق المزهرة قلب المدينة ، وتقع عند حافتها الغابة القديمة الجميلة التي حولت إلى حديقة عامة ساحرة الطرقات تجتمع فيها الببغاوات الأمريكية الطويلة الذيل . وتزهر نباتات الأركيديا ، ويوجد عند حافة المياه ميناء للقوارب الصغيرة فتوثق عندها القوارب بأشعتها المتعددة الألوان . . حمراء وصفراء وزرقاء ، ورملية ، ويقال

للبناء « فيرأوييسو » أى « مراجعة الوزن » ؛ ذلك لأنه توضع هناك الموازين لضبط المهرين الذين اعتادوا أن يبيعوا حمولة قواربهم قبل أن يدفعوا رسوم الميناء . والمشاهد حول هذه الميناء الصغير جميلة دائماً ، وكحديث إجمالى فإن بيليم مدينة للرسامين ، ولا يسبقها فى هذا غير باهيا وحدها .

وجو المدينة ليس حاراً كما قد تتوقع اللهم إلا عند منتصف النهار عندما تغلق المتاجر ودور الأعمال أبوابها ويذهب كل فرد إلى منزله ليتناول طعام الغداء وللإغفاء بعض الوقت ، فهناك عادة يتوافر نسيم عليل ، وفى فصل الأمطار يطل المطر بعد ظهر كل يوم فيلطف الجو ويخفف حرارة الطرقات المرصوفة بالأسفلت . ولكنك ستجد من الدلائل ما يشعرك أنك فعلاً على خط الاستواء . فالسفن تشحن أحمالها من المطاط والبندق البرازيلي وفول تونكا وغير هذا من الحاصلات التى لا تشاهدها قبل أن تذهب إلى ماناوس . ويختلف الناس كذلك تماماً عن أهل الجنوب ؛ ففي الكثيرين منهم دماء هندية تتضح فى سماتهم الجيدة التقاطيع وفى بشراتهم المشوبة بالسمرة ، وشعورهم المستقيمة السوداء المشوبة بزرقة . ويرتدى كل الرجال تقريباً ثياباً بيضاء ، ويتجولون ببطء جيئةً وذهاباً فى الطرقات أو يجلسون فى خمول على المقاهى . ويتنضمون منهم القيام بأى عمل وقتاً طويلاً . ثم لأنهم ليسوا بالمرحين الذين يحبون الحفلات كأهل باهيا ، كما أنهم ليسوا فى نشاط أهل برنامبوكو وحركتهم . ولقد عرفت بيليم عموداً كثيرة من الثراء ، ومن الإفلاس ، كما حدث عندما فقتت

تجارة المطاط الرواج الذي عرفته من قبل ، ولكن مع هذا فإن مواطني ولاية بارا يأخذون كل شيء في الحياة بفلسفة الواقع الذي يعيشون فيه . ولقد سكن الرخاء في الايام الماضية عدداً كبيراً من أبناء بارا من الذهاب إلى أوروبا لطلب العلم في معاهدها ، وقد أتمنوا الحديث بعدة لغات مما جعلهم مواطنين عالميين . ومع ذلك فهم في الوقت ذاته فخورون بمدينتهم وأساليب الحياة الخاصة بها ، بل ويفخرون بخاصة بما أسهمت به بارا في علوم المناطق الحارة . وفي متحف « جولدى » التقديم بمجموعة لا تقدر بحال من الفخار الهندى من عصر ما قبل التاريخ جىء به من ماراخو ومن حوض نهر تاباخوس ، وفي حديقة الحيوان « عينات » من كل الكائنات البرية التى تعيش في وادى الأمازون ، وهذه باستمرار موضع دراسة العلماء المقيمين والزائرين .

وكما طالت إقامة الزائر في بيابم زاد حبه لها . ولاهل بارا قول مأثور يؤكد هذا . . . « كويم بارا بارا بارا » .
لأن من ينزل بارا يبقى بها ولا يتركها . . .

* * *

وستكون الخطوة التالية في برنامج رحلتك إلى البرازيل أن تزور « برازيليا » عاصمة البلاد ، وهى مدينة جديدة تماماً شيدت في الجزء الأوسط من البرازيل . تستطيع أن تصلها بالطائرة ، أو قد تقرر أن تستخدم السيارة في طريق بيليم — برازيليا الرائع . وبرازيليا نموذج

بارز لمدينة مخططة . وقد قامت بهذا العمل طائفة من أكبر المهندسين المعماريين وخبراء تخطيط المدن في العالم الذين ظلوا يعملون سنوات عديدة يعاونهم خيرة البنائين البرازيليين حتى نمت المدينة وأصبحت حقيقة مثيرة ومنظراً جديراً بالمشاهدة . ولقد نص على إنشاء هذه العاصمة الجديدة في دستور سنة ١٨٩١ ، وسار العمل فيها بانتظام سنة بعد أخرى . وفي عام ١٩٥٦ أعان عن مسابقة في طول البلاد وعرضها لإعداد التخطيط الرئيسي للمدينة ، وقدم ستة وعشرون مشروعاً ، ففاز بالجائزة المهندس « لوسيو كوستا » ، وقد اشترك معه « أوسكار نيماير » المهندس العالمى المشهور الذى اشترك مع كوستا أيضاً في تصميم الجناح البرازيلى في معرض نيويورك الدولى عام ١٩٣٩ . ومن بين التحسينات التى اشتمل عليها تصميم المدينة الجديدة تخطيط طرق خاصة للسيارات بحيث لا يضطر المشاة إلى عبور الشوارع في طريق سيرها .

وتذهب بك طائرة أخرى إلى مدينة « ماناوس » التى تبدو من الجو في لون وردى بسبب سقوفها المغطاة بالقرميد الأحمر . ويمر في جوارها نهر قائم اللون هو « ريونييرو » أو « النهر الأسود » . ويتسع هذا النهر حتى ليبدو كأنه بحيرة . ويتصل به في جنوب المدينة نهر آخر أوسع مجرى؛ ذلك هو الأمازون العظيم ، وتستطيع أن ترقب من الطائرة في سهولة ويسر الصراع القائم بين مياه ريونييرو السوداء ومياه نهر الأمازون الصفراء ، فتتخذ الأولى خطوطاً طويلة ملتوية وتتدافع مع مياه الأمازون فيتطاير الزبد وتدور الدوامات . ويطفو فيضان ريونييرو قائماً كالزيت

فوق مياه الأمازون ولا تلبث جوانبه أن تتمعكر بطين أسمر ، ولكن سرعان ما يبتلعه الفيضان الذهبي الأقوى وتندفع مياه الأمازون صفراء كما كانت من قبل .

ولا تكاد تخرج من الطائرة حتى تحس بالجو الحار وبالهواء المشبع بالرطوبة ، مما يذكرك بأنك قد اجتزت خط استواء قبل ذلك بتقليل . ولكن هناك نسima منعشاً يهب من اتجاه النهر ، ولا يبدو على أهالي المدينة الذين سيقع نظرك عليهم وأنت قادم بالسيارة من المطار أنهم يشعرون بحرارة الجو . والواقع أنه ، ولو أن جميع الرجال يرتدون حلالا من قماش قابل للغسل ، وأغلبها بيبضاء اللون ، إلا أنهم يرتدون المعاطف والصدريات ويستعمل أغلبهم أربطة العنق ؛ ذلك لأن أهل « ماناوس » ما زالوا يحافظون على الزى البرتغالي القديم ويعتبرون أن خروج الرجل إلى الطريق العام بدون معطنه سلوك منتهقد . ولقد ضرب بعض الشبان بهذه التقاليد عرض الحائط وبنذوا أربطة العنق ، في حين أن البعض الآخر يرتدونها دون ربطها .

وتبدو النساء رشيقات في ملابسهن الصيفية وأحذيتن ذات « الكعوب » العالية التي يلبسها بدون جوارب طول العام . فالنساء أقل تمسكا بالتقاليد من الرجال ، ولهذا فإنهن ينشدن الراحة والبرودة بعدم استعمالهن للجوارب .

إن الشمس حارة لافحة ... وعندما تترك السيارة في وسط المدينة لتسير على الطوار « الرصيف » ستشعر بحرارته تنفذ إلى قدمك من نعل

حذائك ! ولكن عندما يحىء المساء يعتدل الجو ويصبح منعشاً مع النسيم الذى يهب من ناحية النهر . وإذا حدث وكانت زيارتك للمدينة فى الشتاء ، أى فى الموسم المطير ، فستسمع الناس يتحدثون عما أحسوا به من البرد فى أثناء الليل بالرغم من أن الترمومتر ربما لم ينخفض عن نحو درجة ٢٠ مئوية .

وتعتبر ماناوس حديثة جداً ، لذا قورنت بالمدن البرازيلية الأخرى ، فلا ترجع نشأتها إلى أكثر من مائة سنة ، على حين أن يليم التى تقع على مسافة ألف ميل منها فى اتجاه مصب الأمازون — وهى أقرب مدينة كبيرة إلينا — يرجع لإنشائها إلى أكثر من ٣٠٠ سنة .

ولقد كانت «ماناوس» عاصمة ولاية «أمازوناس» منذ وقت طويل ، وهى من أبداع المدن البرازيلية فى مناظرها . ولهذا المدينة تاريخ عجيب . فعندما اكتشف أن سائل شجرة المطاط يمكن أن يستعمل فى صنع الكثير من الأشياء العجيبة مثل معاطف المطر ، والمماحى «المساحات» (الأساتيك) ، والامشاط ، تقاطر الناس نحو مدينة ماناوس التى كانت يومذاك مدينة صغيرة تحيط بها غابات مليئة بأشجار المطاط البرية . فجاء العمال من الولايات البرازيلية الأخرى لجمع سائل المطاط . كما جاء التجار لشراؤه وبيعه وتبع المضاربون هؤلاء وأولئك سعياً وراء الثراء بين عشية وضحاها . وقد جمعت ثروات كبيرة وبنيت دور جميلة من الحجارة والقرميد والأدوات الأخرى التى استوردت من أوروبا ، ونمت القرية الهاجعة إلى مدينة كبيرة فى وقت قصير . ولم تحاك فى نموها مدن الباحثين عن الذهب فى الولايات المتحدة ذات الطرقات غير الممهدة والمساكن الخشبية الواهية ، بل جاءت

تقليداً لباريس ولشبونة على نطاق صغير . وأقيمت فيها دار أوبرا تكلفت مليون دولار ، وجاءت فرق الأوبرا من إيطاليا لتمثل على مسرح المدينة . ثم ظهر إنتاج المطاط الكبير في الشرق على حين فجأة ، وكانت بذوره قد سرقت من البرازيل لزراع هناك . فهبطت أسعار المطاط ، وفقدت سوق المطاط البرازيلي المرتفع الثمن ، وفقد كثيرون من البرازيليين ثرواتهم ، ولكن « ماناوس » — مدينة المطاط — لم تمت بانهاء تجارة المطاط ، بل بقيت مدينة متحضرة تنعم بسباتها .

وهذا هو السبب في أنك لن تجد أية ناطحة سحاب في المدينة . ومع أن فرق الأوبرا لم تعد تجيء من إيطاليا ولا من أى مكان آخر ، إلا أن دار الأوبرا لا تزال قائمة كما كانت أيام الازدهار . ولا يزال الكثير من الدور الجميلة والمحال التجارية الكبيرة قائماً كما كانت الحال من قبل ، مما يجعل المدينة تبدو كمنظر سينمائي أعد لتصوير الحياة فيها من نصف قرن مضى .

وماناوس أجنبية في مظهرها ، فطراز عمارتها يرتفع ، ترتفع جدران مبانيها من جانبي الطريق كالحلج التجارية . وللنوافذ التي تبقى مفتوحة طوال أيام السنة قضبان من الحديد ، وإلا لاستطاع المارة أن ينفذوا إلى الغرف الأمامية . وتجد خلف كل منزل حديقة مليئة بشجيرات المنطقة الاستوائية وأزهارها ، يقع خلفها بستان صغير تنمو به بعض أشجار الفاكهة وتربي الدواجن ، كما تزرع بعض الخضراوات على قوائم لوقايتها من النمل الذي يأتي على كل شيء في هذه الأرجاء . وهناك متسع أيضاً

لبعض الحيوانات الأليفة؛ إذ تجد لدى كل أسرة بعض الحيوانات المتوحشة التي ولدت في الغابة، ثم جئ بها وهي صغيرة لتشب مع أطفال الأسرة، مثل القردة واللمور والخنازير البرية والكابيبارا (وهو أكبر الحيوانات القارضة) وبعض القطط الوحشية الصغيرة التي تدل وتصبح كأفراد من الأسرة ذاتها. ولا يخلو منزل من عدد من الطيور الصداحة في أقفاصها، أو الببغاوات الناطقة على غصون أشجار أعدت لها.

ويصل إلى سمعك أيضاً غناء الأهلالي، إما في المطبخ الخلفي، وإما في البستان الداخلي، إلا إذا كانت ساعة التبولولة بعد الغذاء عندما يأخذ الجميع غفوتهم. ويبدو على الأهلالي عموماً مظهر الرضا والقناعة في معيشتهم، ولكن مساكنهم — حتى الغنى منها — خالية من مظاهر الترف التي تشاهدها في البلاد الشمالية. فإذا نظرت إلى داخل منزل من خلال نافذة أو باب لراعتك أنه شبه عار؛ إذ يندر أن تشاهد ستائر تحول دون دخول الهواء، كما يندر أن تجد المقاعد الوثيرة والمتكآت والأرائك التي سرعان ما تتلف وتتلفن. فإن مقاعد الخيزران أفضل وأرطب، ولا تكاد توجد بسط ولا سجاجيد، حتى لا تختفي تحتها الحشرات الاستوائية. فالواقع أن كل الأرضيات إما من الخشب الصلب المغطى بالشمع حتى لا تستطيع الحشرات أن تسير عليها دون أن تنزلق، وإما أنها من الترميد، ومن ثم يمكن أن تغسل بالماء كل يوم أو يومين. وإذا ألقيت بنظرك خلسة إلى داخل غرفة النوم فستدهش لأنك لن ترقب فراشاً، وإن كنت قد تجد باقي قطع أثاث غرفة النوم؛ ذلك لأن أهل البرازيل يفضلون النوم على أراجيح

أنيقة من الشبك يتخللها الهواء ويمكن غسلها . ويعتبر بعض هذه الأراجيح تحفاً فنية مرتفعة الثمن . ولكن أغلبها من القطن المنسوج باليد مع شريط مخرم (دنثلة) عريض يتدلى إلى أسفل من كل جانب . وعندما لا تكون الأرجوحة معاقلة بين جدارين متقابلين للنوم ليلاً ، أو للإغناء نهائياً ، فإنها تطوى لإفساح المكان . وإذا عشت بعض الوقت في أى من هذه المنازل في البرازيل ، ثم عدت إلى وطنك ، فلا شك أنك ستشعر أن منزلك الذي عدت إليه مزدحم بالاثاث قليل التهوية .

والطرق الرئيسية في وسط « ماناوس » واسعة جيدة الرصف ، وتظل بعضها الأشجار العالية الكبيرة التي تنبت على كلا الجانبين وتتفتح أزهارها في مواسمها . كما تكثر بها الحدائق الخضراء الجميلة المليئة بالأزهار طوال العام . وعندما تشاهد دور السينما الحديثة ، والمحال التجارية ذات الأسعار الموحدة ، وأبهاء « صالونات » التجميل ، ومواقف الترام وسيارات الأجرة ، فإنك ستجد صعوبة في إقناع نفسك بأنك كنت منذ دقائق قليلة تطير فوق إقليم يعد من أشد أقاليم العالم عزلة وإيحاشاً .

ولكن أكثر شيء سيستويك هو ذلك الصف من المقاهى على جانب الطريق الذي سيغريك بالتوقف لتناول بعض المشروبات . فهذا ما يفعله كل شخص في أية ساعة من ساعات النهار ، وبخاصة بعد الظهر وفي المساء ، ويفضل الأجانب مقهى « أمريكانا » بسبب اسمه . . وإن كان الاسم بالنسبة للبرازيليين يعنى « أمريكا الجنوبية » وسترى أفراد الأسر جالسين يأطفاهم حول المناضد على مقاعد مريحة من الخوص تحت المظلات ، وعندما تنصت ستسمع الجميع يتحدثون باللغة البرتغالية كما يتحدث بها

جميع المارة في الطريق .

ثم تسمع بعض كلمات باللغة الإنجليزية . . وستجد الذين يتحدثونها رجالاً يرتدون قمصاناً رياضية ذات أكمام قصيرة وقد حلوا « ففتحوا » بنائتها « ياقاتها » عند الرقبة . إنهم من أهالي أمريكا الشمالية الذين وفدوا إلى المدينة من أجل الأخشاب أو الجلود أو لتجارة المطاط التي أحيتها الحرب الأخيرة .

وستنظر إلى قائمة المشروبات التي تباع في ذلك اليوم ، فلا تعرف ماذا تطلب ، ذلك لأن الأسماء غريبة لا تتضح لك ، ويتكلم أحد الأمريكان التيترجم لك . . فيعرفك أن « آباكاتي » Abacate كلمة برتغالية تعني « كمثرى التساح » . ولأن كانت الكلمة إسبانية أصلاً . و « آباكاسي » تعني الأناناس ، أما « ويريقي » و « بوريري » فهما لوانان مختلفان من ثمار النخيل ذات الرائحة القوية ، و « الكاجو » ، ثمرة قرمزية اللون تتدلى منها بندقة كاشو واحدة على خلاف أى نوع آخر من أنواع البندق المعروفة في العالم . أما « التمر هندي » فهو اللب ذو الطعم الحاذق الذي يغلف ثمرة شجرة التمر هندي ، وعندما يمزج بالماء والسكر ثم يثلج فإنه يكون شراباً منعشاً . ويصنع « الكوكو » المشبع من السائل اللبني الذي ينتج من عصر جوز الهند الغض « الطازج » . ويقول لك الأمريكي إن آياً من هذه المشروبات شهي سائغ في هذا الجو الحار . وستختار التمر هندي لما يبدو لك من غرابة اسمه ، ويعرض عليك الأمريكي أن يعاونك بالترجمة لك إذا احتيجت إلى شيء ، فهو يعيش في تلك البلاد منذ وقت طويل ويعرف

كل شيء عنها ، لأنه يسافر على النهر جيئةً وذهاباً ، يشتري « الشيكل » وهو عصير مطاطى يستخدم فى صناعة « اللبان » Chewing gum .

ونسترك معاونة صديقك عندما يحين الوقت لتسدد ثمن ما اشتريت ، لأنك مضطر أن تصرف أحد « أذن السياحة » لتحصل على نقد برازىلى ، وتبدو قطع العملة من الورق والنيكل محيرة جداً . وستعرف أن وحدة العملة هى « الكروزيرو » التى تساوى ثلاثة سنتات أمريكية ، أى نحو قرش واحد ؛ إذ توجد عملة ورقية ومعدنية قيمة كل منها كروزيرو واحد أو اثنان . أما العملة ذات الخمسة والعشرة والعشرين كروزيرو وما فوقها فكلها من أوراق النقد . وتوجد عملة أصغر يقال لها « سنتافوس » . ويعادل المائة منها كروزيرو واحد ، وأصغر قطعة منها هى التى قيمتها عشرة سنتافوس ، إذ لا يوجد ما يباع بأقل من هذا حتى ولا طابع بريد . وبينما يقف المضيف أمامك باسمًا ستقبل النقود التى معك فى حيرة لكى تدفع حسابك ، والمسألة فى الواقع سهلة ، لأن العملة تقوم على نظام التقسيم العشري السائد فى أمريكا الشمالية وكثير من بلدان العالم .

وعندما تجد النقود فى جيبك ستجد فى نفسك رغبة للذهاب إلى السوق ، وهذا ما يبدأ بفعله عادة كل سائح حكيم ، لأن الذهاب إلى السوق هو أفضل وأسرع طريقة لدراسة حياة الناس . ولن تخيب سوق ماناوس رجاءك ؛ إذ يسودها الطابع الاستوائى الذى يتوق الزوار لمشاهدته . وسواء صعدت إلى السوق بسلم أو وجدته أسفل مبنى كبير بجوار النهر ، فإنك ستجد فيه أغرب أنواع السمك والفاكهة والخضراوات . فهناك

خواتين صغيرتين يبيع كل شيء يحتاج إليه سكان النهر من الآنية الفخارية ، إلى معدات صيد السمك ، إلى القبعات المصنوعة من القش ، إلى غير ذلك من مختلف أنواع السلع .

ولعل أكثر ما سيثير دهشتك هو تلك السلاحف الضخمة التي يأتي بها رجال سمر صغار الأجسام يحملونها مقلوبة فوق رؤوسهم . وسينيل إليك أنها أثقل مما يستطيع رجل واحد أن يحمله ؛ إذ كثيراً ما يبلغ عرض الواحدة منها نحو ياردة ، ولا يمكن أن يقل وزنها عن مائتي رطل . فإذا تلبعت هؤلاء الجمالين إلى شاطئ النهر لوجدت أنهم يفرغون حمولة سفينة شراعية بأكلها من تلك السلاحف الرهيبة التي يباع كل منها بنحو عشرة دولارات .

وستجد عشرات من أمثال هذه القوارب راسية على طول الشاطئ ، ومنظرها شبيه بمنظر السامبان^(١) الصينية ، وقد جابت ساهاً متعددة الأنواع . ويتكون الكثير من هذه القوارب من كتلة واحدة حفرت في جذع شجرة ضخمة ، في حين أن غيرها مصنوع على هيئة الزوارق البخارية . ولكل سفينة منها أشعة ومجاديف ، ولكن القليل منها ما هو مزود بمحركات . وتستقف القوارب بحصر كبيرة من سعف النخيل المجدول لتقي الأسر التي تعيش في القوارب من المطر ، كما تمنع عنها أشعة الشمس . وقد

(١) Sampan السامبان قوارب صغيرة تستخدم في موانئ وأهوار الصين واليابان ، وقد يحشد الكثير منها جنباً إلى جنب ويقوم الناس فيها حتى لتبدو شديدة الشبه بقريّة صغيرة .
(المترجم)

ترسو هذه السفن متراسة الواحدة إلى جانب الأخرى ، ويشعل أصحاب كل منها ناراً صغيرة تحت قدر من الصاصل يحتوى على طعامهم ، أو يغلون عليها ماء لعمل القهوة التي يحتسونها بلا انقطاع . ولا يعترى نفوسهم أى شعور بالغربة ؛ إذ أن جميع هذا الإقليم — الذى يمتد آلاف الأميال — عالم عائم ، لا يحس المقيمون فيه بأى فرق بين معيشتهم على القوارب أو على الأرض الجافة .

إن منظر هؤلاء القوم فى قواربهم منظر غريب يأخذ بلب من يشاهده ، فترى الأطفال يلعبون كما لو كانوا فى الفناء الأمامى لمنزلهم ، أو يسكرون أجسامهم ويففون فى مكان ظليل . وتشاهد الأسرة وهى تتناول طعاماً وتتكون الوجبة التى تراها مفرودة على مقاعد القارب من سمكة مشوية كبيرة قطعت إلى عدة أجزاء ، ومن « قرعة » تحتوى على شئ يشبه الذرة المجروشة الصفراء ، وهو الذى يسميه الأهالى « طحين الماء » Farinha de agua ، أو نبات السكاسافا وقد عجن بالماء ، وهو يقوم مقام الخبز فى جميع أنحاء حوض الأمازون . « وللتحلية » فى نهاية الوجبة يأكلون الموز ، أو أية فاكهة أخرى ربما يكونون قد جابروها معهم من مواطنهم ، وأحياناً بعض الفطائر الحلوة التى يبتاعونها من السوق ويدفون ثمنها من أرباح عملهم اليومى .

دعنا نراقب الآن آداب المائدة التى تراعيها أسرة من تلك الأسر ؛ لأنهم يأكلون قطعة من السمك ثم يغمسون أطراف جميع أصابعهم فى وعاء « الفارينا » ويمسكون بكمية من هذا الغذاء الرئيسى ثم يرفعون أصابعهم

إلى مسافة قدم من أفواههم ثم يقذفون بالفارينا إلى أفواههم ، ولقد تعلم حتى الأطفال كيف يفعلون هذا بمهارة ؛ ذلك لأن هذه هي الطريقة الصحيحة التقليدية التي يؤكل بها هذا الغذاء الرئيسى البديل للخبز .

ويمكن أن يؤكل السمك بطريقة أخرى ؛ وذلك بأن تفصل العظام باللسان ، ثم تدس بعيداً إلى جانب الفم وراء الصدغ — كما يحفظ السنجاب البندقية فى شدقه ، وعندما ينتهى الطعام يلقى بكل ما فى الفم من شوك مرة واحدة ، وتعتبر هذه الطريقة أفضل من إخراج الشوك من الفم واحدة إثر الأخرى ، وخاصة إذا كانت السمكة من السمك الكثير الشوك .

ولهؤلاء الريفيين عادات وتقاليد كثيرة خاصة بهم قد ورثوها من الدماء الهندية التي تكون نصف دماهم ؛ فهم « كابوكوس » ؛ أى من نسل البرتغاليين الذين تزوجوا نسوة هنديات فى الأيام الأولى ، ويكونون غالبية سكان وادى الأمازون ، ولا يوجد فى أى مكان آخر من العالم من هم أكثر أدياً وأكثر تقديراً منهم للناس ، وهم يعتزون بأنفسهم ، رغم فقرهم ، كما أنهم على درجة كبيرة من الذكاء ، وإن كان القليلون من تلقوا ما يزيد على التعليم الأولى .

ولمّا وراء هذا ترسو على مسافة من الشاطئ قوارب سكنية متألفة ذات بهاء ، وتذكرك نوافذها الصغيرة اللابئة ، والسيارات الحديدية التي تحيط بشرفاتها ، بمصايف البحيرات فى الولايات المتحدة. وتروح القوارب وتجيء فى النهر السريع الجريان ، وترى الناس يصعدون إلى إحدى « العوامات » ويمشون قليلاً فى داخلها ثم ينزلون ثانية إلى قواربهم .

جاملين في أيديهم اللفافات . إن هذه متاجر عائمة ، وفي ظاهرة يتميز بها الأمازون عن غيره من الأنهار ، وتجده في هذه المتاجر القليل من كل ما يمكن أن يحتاج إليه الناس . فإذا قلت الحركة التجارية في منطقة ما انتقلت المتاجر في رحلاتها على النهر ورسست في جوار المزارع والمستوطنات ، ولا يحتاج العملاء إلى نقد للشراء ؛ فإن عامل المتجر يبادل الملح والكبروسين والكبريت والقماش وكل المستحدثات التي يباع كل منها بعشرة سنتات بها في هذا الأدوية والعقاقير ، بأية حاصلات ينتجها الفلاح .

ومن الطريف أن تراقب أسرة من الأسر التي يعمل أفرادها في هذه السوق النهرية في عودتها إلى دورها ؛ إذ ترى قاربا يبدو أنه يتسع لراكبين اثنين وقد حمل حتى حافته بالآب والألم وجميع الأطفال وأحد جيرانهم أو ستة منهم ، وعندما تظن أن القارب لن يتحمل أوقية واحدة أكثر من ذلك وإلا غرق ، اندفع كلب الأسرة الذي كاد أصحابه أن ينسوه إلى القارب وأسرع ليتخذ مكانه في مقدمته حيث يتبع كما لو كان تشالا . ويمسك رجلان بالمجاديف ولا يجرؤ فرد على أن يحرك عضلة من جسمه ، حتى يصل بهم القارب إلى باب دارهم . ولا شك أن منزلهم ممتام على قوائم خشبية ترفعه حتى لا يجرفه التيار إذا ارتفع منسوب المياه في النهر ، مثله في ذلك مثل جميع المنازل المقامة على شاطئ النهر — بما في ذلك سوق ماناوس الكبير نفسه .

وترفع القوارب الكبيرة الشراع لتتلقفها الريح فتدفع في مجرى الماء . وقد يقع نظرك على رجل في قارب لا شراع له ، يقوم بربط سريره الشبكي

في سارية التارب فيدفعه الهواء كما يدفع الشراع ، كما قد ترى آخر وقد شبت شجرة صغيرة مورقة في وضع عمودي بين حتمائب زاده وبين مقعد القارب الأوسط ، مستخدماً إياها لنفس الغرض ، ويطلق القوم عليها من باب العناية اسم « شراع الأمازون » . وربما شاهدت قارباً بخارياً يبحر في الماء وقد سحب وراءه عدداً من القوارب الصغيرة لبعض المسافرين ، ويطلقون على هذه القافلة النهرية اسم « قطار الأمازون » — وهو يصور لنا تقليداً من تقاليد الصداقة والمودة في الإقليم ؛ إذ أن هذا « القطار » يوفر على أصحاب القوارب الصغيرة جهداً كبيراً كانوا سيبدلون في التجديف للوصول إلى الأماكن التي يتصدونها .

أما وقد شاهدت هذا القدر من حياة الناس على الماء ، فإنك لن تدهش إذا ما اكتشفت أن المراسي الثقيلة الضخمة التي ترسو عليها السفن البخارية إنما هي مراس عائمة ، لأنها ترتفع مع مستوى النهر في الفصل المطير بنحو ثلاثين قدماً .. وتقوم السفن الكبيرة القادمة من أوروبا والولايات المتحدة ، وكذلك السفن الساحلية القادمة من جنوب البرازيل ، بتفريغ شتى أنواع البضائع من الأطعمة المعالجة إلى السيارات . ثم تعود فتحمل شحنات من الجوت ، والبندق البرازيلي ، والمطاط ، والأسماك المجففة ، وجلود الحيوانات المملحة ، والأخشاب ، وعطر مستخرج من خشب الورد يدخل في عمل الروائح ، وحبرب التونسكا التي تستعمل بديلاً « للفانيليا » ، والتي تنتشر رائحتها في أرجاء المرسى فتجعله يبدو كما لو كان مصنعاً للحلوى .

ولربما تكون سوق ماناوس قد كسدت بعد أن انتهت فورة المطاط ولكنها استيقظت ثانية من سباتها؛ إذ أن هذه الحاصلات العديدة وموقعها الممتاز كمركز للنقل الجوي تؤهلها لأن تصبح من جديد مدينة من أهم مدن البرازيل .

وعندما تستقل الطائرة في الصباح التالي لتبدأ رحلتك عبر ١٨٠٠ ميل من ماناوس إلى ريو دي جانيرو فسترى إحدى هذه السفن وهي تتأهب للرحيل ، فتنفث الدخان الأسود من مداخنها ، وتسكون بقعاً معتمة قائمة في سماء المدينة ، وعندئذ ستدرك لأول مرة لماذا كانت ماناوس على تلك الدرجة من النظافة . إذ ليس بها مصانع تنفث الدخان من مداخنها ، كما أن المنازل في مثل هذا الجو لا تحتاج إلى التدفئة المركزية . ويتم طهو الطعام على نيران تشتعل بالخشب ، أو بفحم الخشب ، أو بالكهرباء ، ولا توجد بها قاطرات بخارية تنفث الدخان والرماد ليتساقط فوق المخازن والمساكن الشعبية القبيحة المنظر . ولا توجد مصانع ذات مداخن في ماناوس سوى مصنع البيرة ومحطة توليد الكهرباء ، وهذه أيضاً تستخدم الخشب كوقود لها ، إذ يمكن جلب كميات من الأخشاب لا حصر لها من الغابات المجاورة دون أن تتأثر تلك الغابات في شيء .

وسترى عندما تطير بك الطائرة فوق النهر الأسود وفوق الأمازون لتتجه جنوباً فوق الغابة مرة أخرى فإنك ستودع هاتين المدينتين المنعزلتين

وداعاً خاصاً لأنك لن ترقب غيرهما حتى تصل إلى ريودى جانيرو .
 وستجتاز — قبل أن تعرف — (نهر) ريو مديره أى « نهر الخشب » ،
 ويطلق عليه ذلك لكثرة الأشجار التى تتساقط فى النهر من جانبيه فيجرفها
 تياره السريع . وستكون طائرتك إذ ذاك فوق منطقة ذات أهمية خاصة
 بالنسبة لمواطنى أمريكا الشمالية ، لأن تيودور روزفلت فى رحلته الكشفية
 التى قام بها فى عامى ١٩١٣ و ١٩١٤ أضاف اللثام عن « النهر الغامض »
 River of Doubt فى كتابه المسمى « عبر مجاهل البرازيل » . كان
 روزفلت قد تتبع هو ورفاقه هذا النهر لمسافة أربعمئة ميل حتى وصلوا إلى
 نهر ماديرا ، فعندما زال كل شك عن حقيقة هذا الراقد العلوى من روافد
 نهر ماديرا أطلق عليه « نهر روزفلت » .

لقد استغرقت الحملة الكشفية شهرين لتقطع فيها تلك الأميال الأربعمئة
 فى حين أنك تستطيع اليوم بالطائرة أن تتبع مجرى نهر روزفلت حتى
 اتصاله بماديرا فيما يزيد قليلا على ساعة من الزمان . وهذا هو السبب فى أنه
 لم تعد هناك أنهار تنتظر الكشف ؛ لأن الجغرافيين قاموا بتصوير جميع
 الأنهار الهامة من الجو وأعدوا لها الخرائط — وذلك دون أن يتعرضوا
 لتحرش الهنود الحمر . ولكن إذا حدث وهبطت طائرتك إلى ارتفاع
 منخفض فوق إحدى قراهم فلا تستبعد أن ترى الهنود يتدفعون فى العراء
 ويصوبون سهامهم نحو طائرتك .

لقد قام روزفلت وروندون (Rondon) برحلتهم الكشفية منذ
 أكثر من خمسين سنة . وما زال الجنرال روندون — رغم شيخوخته —

يتولى رعاية الهنود البرازيليين . ولكن الطائرات أحدثت انقلاباً تاماً في عمليات الكشف ، فهي تستطيع أن تنقز فوق الشلالات الخطرة التي طالما عاقت الملاحة النهرية في الروافد العليا لنهر الأمازون .

ويتيح لك الطيران أن تصبح أنت نفسك مستكشفاً ، تغامر وأنت جالس على مقعدك في الطائرة ، فتلك هي الوسيلة السهلة للكشف في أيامنا هذه . فما من شك في أنك تقطع الأرض قطعاً - من ارتفاعك الشاهق - عندما تجتاز طائر تك سماء ولاية أمازوناس Amazonas وتخترق جزءاً من ولاية بارا (ثلاثة ولايات البرازيل مساحة) ، لتستقبلك ولاية ماتوجراسو Mato Grasso — وهي ولاية الغابات الكبيرة التي تلي أمازوناس من حيث المساحة ، وتكاد تبلغ مساحة جمهورية بيرو .

وإذا أنت وضعت على عينيك النظارة البعيدة المدى في هذه اللحظة واتجهت بنظرك غرباً على بعد نحو ثمانمائة ميل فإنك ستشاهد أحد الأشياء التي تفتقدها ماناوس — وهو الخط الحديدي ، الذي يعرف بخط « ماديرا — ماموري » Madeira-Mamore . ومع أن هذا الخط يسير في أعماق تلك البرية ويكاد يختفي في وسطها ، فتمدّتم لإنشاؤه في أوائل هذا القرن على يد مهندسين من الولايات المتحدة . وهو يسير محاذياً لنهر ماديرا ، ولكن في بقعة من أعلى النهر أبعد كثيراً من المكان الذي اندفعت فيه قوارب روزفات وروندون في تيار نهر الخشب السريع الجريان . ويلتف خط الغابة هذا حول الكثير من الأجزاء المندفعة التيار من هذا النهر في منطقة الحدود بين البرازيل وبوليفيا ، مخترقاً مقاطعة جواپوري Guapore

الجديدة . فتأتى السفن واللنشات عن طريق نهري بنى (Beni) فى بوليفيا ومامورى فى البرازيل ، وتفرغ حولاتها من المطاط والجلود وشق المنتجات المدارية فى عربات السكة الحديدية التى تسير بها ٢٤٠ ميلا — مجتازة أجزاء النهر السريعة غير الصالحة للملاحة — حتى تصل إلى مدينة « بورتوفيليو » Porto Velho الواقعة على نهر ماديرا قرب حدود بوليفيا . وهنا يعاد شحن تلك البضائع فى السفن التى تسير فى نهر ماديرا حتى الأمازون ومنه إلى المحيط الأطلنطى . ولقد تعرض الذين قاموا بمد هذا الخط الحديدى لأخطار هائلة من الملاريا وغيرها من الأمراض ، حتى إنه ليقال إن كل عارضة خشبية (فلنكة) كانت تثبت فى الأرض كان يموت فى مقابها أحد الأشخاص العاملين فى بناء الخط . ويوضح تاريخ إنشاء هذا الخط الحديدى الوحيد فى قلب أمريكا الجنوبية السبب فى عدم إقامة أى خط آخر غيره فى تلك الأرجاء .

وفى ولاية ماتوجراسى تتدمر لنا الطبيعة أعجوبة أخرى تنافس هذا الخط الحديدى الفريد فى نوعه . وفى الجزء الجنوبى من الولاية يستطيع الأهالى أن يسيروا بأقدامهم على الماء فى أحد الأنهار ، كما تثقل الطيور الكبيرة بشكل يبعث على الدهشة فوق أوراق الزنبق المائى الذى يطفو على سطح مياه المستنقعات فى حوض الأمازون . فيسير هؤلاء الرجال على حصيرة خضراء كونها نبات طافيل صلب العود ينمو نمواً كثيفاً فوق سطح الماء إلى درجة أنه يستطيع أن يتحمل ثقل من يسير عليه .

وفى لحظة من اللحظات تلوح أسفل الطائرة معالم إحدى القرى .

وتشعر وأنت في مقعدك أن الطائرة آخذة في الهبوط من ارتفاعها ، مما يحدو بك أن تظن أنها على وشك النزول في أحد المطارات لتزود بالوقود . ولكن الحقيقة ليست كذلك ؛ إذ كل ما في الأمر أن قائد الطائرة قد هبط بطائرته ليتيح للمسافرين معه أن يشاهدوا إحدى قرى هنود التشافانتى Chavantes Indians . ولكنه لن يجرؤ على التوقف هنا حتى لو استطاع ذلك ، لأن هؤلاء التشافانتى مازالوا في حالة بدائية ، يدافعون بعنف عن أراضيهم ضد أى دخلاء ، سواء أتى هؤلاء عن طريق البر ، أو الماء ، أو الجو . وتمتاز مساكنهم بطابعها الخاص ، فهي مغطاة بالثش ، وشكلها أشبه بخلايا نحل ضخمة . وتبنى تلك المساكن حول فناء مستدير يحفظون فيه مؤونتهم فوق أعمدة أو قوائم مرتفعة حتى لاتصل إليها الحيوانات أو الحشرات . ولا تريد معلوماتنا عن هذه القبائل على ما يشاهده راكب الطائرة من نافذة طائرته . وهكذا تشعر مرة أخرى أنك مستكشف تقوم بعمالية كشفية .

لن يمضى وقت طويل حتى تأخذ الطائرة في الهبوط لتزود بالوقود في أحدث نموذج لمدين الغرب الموحشة — وهى مدينة « أراجارساس » Aragarcas — التى اتخذت اسمها من نهري أراجويا Araguaya وجارساس Garcas اللذين يلتقيان عندها ، فلا يوجد بتلك المدينة إلى الآن سوى بضع عشرات المنازل المبنية بالطوب ، ونحو عشرة منازل غيرها من القش .

ويروى أنه عندما أنشئ المطار في هذا المكان ، كان رجال الغابات
يأتون إلى الطائرات الجاثمة على الأرض ويحاولون غرس بعض الدبابيس
في هيكلها ليروا ما إذا كان الدم سينبعث من مواضع شككها ، ظانين أنها
نوع من أنواع الطيور الضخمة !

وبعد أن تأخذ الطائرة حاجتها من الوقود ويتناول الركاب طعامهم
تستأنف الرحلة في سماء ولاية جوياس Goiaz نحو مهبطها التالي في
ريودي جانيرو .

ولكن ، قبل أن تشاهد تلك المدينة الجميلة ، يجدر بك أن تعرف
شيئاً عن تاريخ البرازيل. الذي جرت أحداث كثيرة منه في ريودي
جانيرو ذاتها .

موجز تاريخ البرازيل

يرجع تاريخ البرازيل ، كتاريخ أمريكا الشمالية ، إلى ما لا يتجاوز كثيراً أربعة قرون ونصف قرن . ولا شك أن بعض المراحل الأولى من هذا التاريخ كانت قصيرة .

ويبدأ هذا التاريخ فعلاً في لشبونة ذات يوم أحد شمس من شهر مارس سنة ١٥٠٠ ، كانت المدينة في مرح ، فالأعلام منشورة ، وجوقات الموسيقى تعزف والجماهير تتزاحم على شاطئ نهر التاجه .

وكانت في المرسى ثلاث عشرة سفينة ، عليها ألف وخمسة مائة بحار وألف جندي وعدد كبير من المدافع ، وتزاحم الناس في القصر الملكي ، فلقد كان أهل البلاط يودعون بيدرو الفارز كابرال وضباطه ، ووصل رسول قادم من غند البابا يحمل معه قلنسوة رائعة كنتك التي كان النبلاء يغطون بها رؤوسهم في ذلك العصر ، وكان البابا بنفسه قد باركها ، وكان المنروضة أن هؤلاء يتصدون بسفنهم إلى الهند بعد أن يدوروا حول رأس الرجاء الصالح ليستولوا على كلكته وثرواتها .

ولكن عندما اجتازت السفن الرأس الأخضر تحولت بعيداً عن إفريقيا واتجهت جنوباً بغرب ، وأبحرت السفن لشهر كامل تعاونها التيارات به

الاستوائية ، وما لبثوا أن رأوا الطيور تحلق في السماء لتقابل السفن ، وأبصر المراقبون على ظهور السفن . . أبصروا الأرض ، لقد وصلوا إلى الساحل المجبول ، ساحل البرازيل في جنوب متاطعة « باهيا » .

وقدم إلى الساحل نفر من الهنود السمر العراة يحملون الأقواس والسهام ، ووصل إلى الساحل قارب يحمل الهدايا للهنود الذين سرتهم هذه الهدايا وأعجبتهم وبعثوا بدورهم إلى ركاب السفن بهداياهم من أغصان الرأس المصنوعة من ريش ببغاء الماكو الطويل الذيل الترمزى اللون ، كما أرسلوا عقداً من الخرز الأبيض مثل اللؤلؤ ، فاحتفظ به كابرال لملك البرتغال .

وأبحرت السفن نحو الجنوب لمسافة أميال قليلة حتى وصلت إلى مرفأ صغير جيد أطلقوا عليه اسم « بورتو سيچورو » أى « المرفأ الآمن » وألقت السفن مراسيها هناك ، وفي اليوم التالى نزل الجميع إلى الساحل ، وساروا في عرض عسكري يتقدمهم العلم الذى يعلوه الصليب ، كما رفعوا صليباً كبيراً من الخشب كان نجاروا السفن قد صنعوه ، واستولوا على الأرض باسم ملك البرتغال .

وعلى شاطئ ريو دى جانيرو تبتال كبير من البرونز يمثل كابرال وقد أمسك العلم بيده اليسرى ، وأمسك بالنبلسوة التى باركها البابا فى يمينه ، ويضع قدمه على الأرض الجديدة لإعلاناً بأنها أرض برتغالية ، كما حدث قبل أربعة قرون ونصف قرن ، ويضع البرازيليون الأزهار على قاعدة التمثال فى اليوم الثالث من شهر مايو ، اليوم الذى تم فيه استكشاف البلاد . ثم أبحر كابرال بعد ذلك نحو رأس الرجاء الصالح وجزر الهند الشرقية يملك السفن عدا واحدة بعث بها إلى لشبونة تحمل الانباء ؛ ذلك لأنه كانت

بحق ذلك العصر حملات كثيرة من دول كثيرة تقوم كلها بالاستكشاف ، وكان لازماً على البرتغاليين أن يبعثوا بمذكرات إلى كل بلاط لإخطار الملوك بأن أرض الصليب أرضهم هم ، وأنهم قد قرروا الاحتفاظ بها . وكان من الضروري بصفة خاصة لإخطار ملك إسبانيا خاصة ليكشف يديه عن هذه الأرض الجديدة .

ولم تكتب السكاتب الذى رافق الرحلة مؤرخاً لها القصة كلها فى خطاب إلى الملك ، ولا يزال هذا الخطاب فى محفوظات حكومة البرتغال ، وتروى الرسالة للملك حال البلاد التى وصفها السكاتب بأنها جنة ، وعن جمال هؤلاء الهنود بسمانهم وأنوفهم المستقيمة ، وكيف ذعروا عندما صعدوا إلى ظهور السفن من رؤية المشية ، ومن مشاهدة أحد الديكة ، وكان يجرى فوق ظهر السفينة ، فهم لم يروا الدجاج ولا الأبقار من قبل ! وكيف كانوا هيايين فلم يلبسوا ما قدم لهم من لحم أو شراب ، ولكن بعضهم اقتربوا وجلسوا على مقربة من البرتغاليين عندما كان القس يتلو الصلوات . وقد عتمدوا أيديهم على صدورهم كما كان البرتغاليون يفعلون . لقد كانوا هادئين مؤدبين ، ولم يكن لدى القساوسة شك فى سهولة تحويلهم إلى الديانة المسيحية ، غير أنهم لم يكن لديهم شيء يستحق أن يأخذه البرتغاليون منهم ، كالذهب أو الفضة أو الأحجار الكريمة ، ولكن ليس ثمة شك فى أن ثروات كثيرة تنتظرهم فى داخل البلاد .

وهكذا كتبت الصفحات الأولى من تاريخ البرازيل التى صارت من الممتلكات البرتغالية ، مما جعل قصة أهلها ولغتها وثقافتها تختلف عن أية دولة أخرى من دول أمريكا اللاتينية .

وعلاقة البرتغال بالولايات المتحدة البرازيلية نفس علاقة إنجلترا بالولايات المتحدة الأمريكية ، ففي كل من الحالتين كانت الدولة الأم تحترم على أساس أنها مصدر اللغة والثقافة الموروثة ، وهكذا فإن البرازيليين من الجنسين يدرسون أعمال لويز دى كاموس ، كما يدرس صبيان وفتيات أمريكاً الشمالية أعمال شكسبير ، وقد عاش لويز دى كاموس وشكسبير وكتباً مؤلفاتهما في نفس العصر .

فالشعراء البرتغاليون بالنسبة للبرازيليين مثل الشعراء الإنجليز بالنسبة للأمريكان . ولا يزال الصبيان البرازيليون يفكرون في جامعة كويمبرا ، كما يفكر الطلاب الأمريكان في أكسفورد وكيمبردج . وتفتتح البرتغال في نواح كثيرة من علاقاتها بالبرازيل ، كما تفتتح إنجلترا من علاقاتها بأمريكا .

وقد بعث ملك البرتغال بمذكراته إلى الملوك في الوقت المناسب ليكشفوا أيديهم عن الأرض الجديدة ، وكانت السفن الإسبانية قد وصلت إلى بيرنامبوكو في فبراير من ذات السنة، ولكنهم قد تباطأوا في استكشاف السواحل الشمالية والكشف عن نهر الأمازون ، وبهذا أعطوا البرتغاليين الفرصة لمسبقتهم ، وتقدم الفرنسيون بدورهم يدعون ملكية بعض تلك الأراضي ، ومن ثم كان السباق عظيماً بين الطامعين في الاستحواذ على أكبر نصيب من العالم الجديد .

وقد اشتق اسم البرازيل من رحلة برتغالية هامة اشترك فيها أميريجو فسبوتشى ؛ ذلك لأن السفن حملت في عودتها شحنة من خشب

الصباغ أحمر اللون مثل « البراساس » ، أى « الفصح المتوهج » ، وكان لونه يراقا حتى لو أن قطعة منه وضعت على كومة من الخشب لبدت السكومة كلها وكأنها تشتعل . وقد بيع هذا الخشب بثمان مرتفع ، فكان هذا أول كنز وجده البرتغاليون في ممتلكاتهم الجديدة ، وهكذا صار المسكان الذين جاء منه هذا الخشب « البراسا » يعرف باسم « براسيل » أو البرازيل .

وفي أثناء ذلك كانت البرتغال مشغولة بتجارها في الشرق ، وقد أثار هذا الكثير من المتاعب كما وفرت لها الثراء في البداية ، وإن كان لم يترك لها وقتاً يذكر لأمريكا الجنوبية ؛ كانت البرتغال تريد خشب البرازيل فقط ، ولقد قاتلت الفرنسيين وغيرهم ممن كانوا يرسلون السفن محاولين سرقة بعض منه ، ومرت تسع وثلاثون سنة لم يحدث في خلالها شيء ذو أهمية في تاريخ البرازيل .

ولكن في أثناء هذه السنوات تحطمت بعض السفن قرب سواحل البرازيل ، وتمرد البحارة في سفن أخرى . وقد سبج بعض البحارة إلى الشاطئ في حين تخلف آخرون ليلقوا جزاءهم . فعاش عدد كبير من البيض بين الهنود البرازيليين ، وأصبح لثلاثة منهم أهمية خاصة بالنسبة إلى المستوطنين البيض في المستقبل . وكان هؤلاء الثلاثة هم : رامالو Ramalho الذى تركته السفينة التى كان فيها قرب سانتوس فتسلى الصخور إلى المسكان الذى به الآن مدينة ساو باولو ، حيث وقع نظره على بوتيرا الحسنة Potira ابنة الرئيس « تيبيرسا » التى كان اسمها يعنى « الزهرة » ، وقد أحب كل منهما الآخر من أول نظرة وتزوجا . وكان ثمانى الثلاثة

كارامورو « أى رجل النار » ، وهو الذى كان قد أنتد نفسه من الهنود آكلة لحوم البشر الذين يعيشون فى خايبيج باهيا بإطلاق الرصاص من البندقية التى يحماها ، فظنه الهنود الذين لم يعرفوا طلاقات البنادق من قبل إلها فصادقوه وبقى معهم وعاونهم على طرد أعدائهم وتزوج الأميرة « باراجاسو » . وبعد سنوات قليلة كان هنود بيرنامبوكو على وشك قتل الشاب البرتغالى ألبوكيرك لياً كلوه ، ولكن واحدة من بنات الرئيس « جرين باو » أو « القوس الأخضر » ألغت بنفسها عليه فحمته من الفأس التى كادت تقتله ، وانتهت القصة كما انتهت قصة كارامورو ، بزواج ألبوكيرك من الأميرة الهندية ومعيشتهما فى سعادة بعد ذلك .

وكثيراً ما تروى هذه النصّة الرومانسية للأزواج الثلاثة لإيضاح الكيفية التى نشأ بها الجنس البرازيلى . فإن كلا منهم خلف وراءه أسرة كبيرة من نسله تعد بالآلاف ، وعاون هؤلاء الآلاف فى بناء الأمة .

ووصلت سفن الاستعمار إلى البرازيل حاملة المستوطنين والجنود فى سنة ١٥٣١ ، فأنشأوا قلعة عند باهيا بمشورة كارامورو ومعاونته ، كما شيدوا حصناً آخر عند ريودى جانيرو حيث أقامت الحملة لمدة ثلاثة أشهر ولكنهم أنشأوا مستعمرتهم الرئيسية فى سان فيسينتى حيث منح رمالو المستعمرين خبراته وضمن لهم صداقة هنوده .

واعتنى عرش البرتغال فى ذلك الوقت ملك جديد هو يوحنا الثالث الذى أبدى اهتماماً كبيراً بالبرازيل ؛ فقد كانت أحوال البرتغال فى تدهور فى الهند ، حتى ليتال إن كل حبة من حبات الفلفل كانت تكلف البرتغال

قطرة من الدم البرتغالي ، هذا عدا أن يزارو الإسباني كان قد بدأ غزو
بيرو في السنة السابقة (١٥٣٠) ، وكانت السفن تعود إلى إسبانيا حاملة
شحنات من الذهب ، وبدأت تصل إلى آذان الملك جون القصص عن
الثروة الخيالية التي يسرقها الإسبان . وفي ثلاث سنوات كانت إسبانيا قد
استولت على إمبراطورية الانكا وشيدت مدينة ليما .

وحوالي سنة ١٥٣٤ — قبل أن تبدأ إنجلترا في التفكير في استعمار
أمريكا الشمالية — قرر ملك البرتغال يوحنا الثالث أنه لا بد له من عمل شيء
في البرازيل قبل أن تتمكن إسبانيا من اختطافها منه ؛ فوضع أمامه خريطة
لساحل البرازيل ، ورسم على الخريطة خطوطاً قسمت الأرض إلى أقسام
متناسقة تنطبق تقريباً على الولايات الساحلية الموجودة حالياً . ولما كان
الملك يوحنا لم يشاهد تلك البلاد بنفسه ، وكانت الخريطة من ناحية أخرى
تقريبية تمثل التصور الشخصي للرجل الذي رسمها ، فلم يكن من المهم في شيء
كيف خطط الملك التقسيمات التي وضعها على الخريطة .

وكان الملك جون يريد أن يكرم عدداً من رجال البلاط الذين قاتلوا
في سبيله في الهند ، وتقسيم الأرض إلى خمسة عشر جزءاً كان تقسيماً صالحاً
كأي تقسيم آخر . وهكذا فإنه ببضعة خطوط من قلمه أعطى الملك يوحنا
جميع الولايات الساحلية الحالية تقريباً إلى رجال البلاط ولورثتهم من بعدهم
بصفة دائمة ماداموا مظهرين ولاءهم له ، وكان عليهم أن يرحلوا لتوهم
بالسفن المحملة بالجنود والمغامرين لاستيطان الأرض . وكان الدليل الوحيد
على ولائهم أن يرسلوا إليه الذهب كما يفعل الإسبان ؛ ذلك لأن الملك

يوحنا كان يعتقد أن الذهب موجود في الأرض بكميات كبيرة ، وأنه من السهل أخذه من الهنود ، كما هي الحال في بيرو ، مادام الهنود لا يتسدرن له قيمة ولا يفعلون به شيئاً إلا أن يتزينوا به ويزينوا معابدهم .

وكان بين الحقوقي التي حولها الملك لهؤلاء « الثباطنة » النبلاء حق استعباد المواطنين للعمل في المناجم وفي المزارع ، ولهم بعد ذلك أن يفرضوا الضرائب على المالح وغيره من الضروريات ، وأن يبيعوا التراخيص لبناء المطاحن والمعاصر ، وأن يسنوا القوانين ويلزموا الأهالي باحترامها ، على أن يكون نصيب الملك خمس حصيلة المعادن والأحجار الثمينة ، وعشر ماعدا ذلك من المنتجات .

وكان جميع هؤلاء القباطنة شجعاناً وجنوداً محنكين ، فتوجهوا إلى مستلكاتهم الجديدة ، وهم يتخيّلون أنفسهم ملوكاً على تلك المناطق الموحشة التي لم تكن يومذاك سوى علامات مرسومة على خريطة . ولكن أغلبهم صادف من المتاعب أكثر مما صادفه السكابتون جون سمث في جيمس تاون (١) فقد تمثالوا فيما بينهم ، ووصلت قسوتهم بالهنود إلى حد التتيمام بالمذابح الجماعية وحرق المدن الجديدة . ثم لأنهم لم يهشروا على الذهب ، وأثبتت معظم هذه الإقطاعيات فشلها . وفي الوقت ذاته كانت إسبانيا قد غزت أرض البرتغال وحكمت الوطن الأم واحتلته لستين سنة تاركة الولايات البرازيلية لمصيرها .

(١) السكابتون جون سمث (١٥٨٠ - ١٦٢١) مستعمر إنجليزي في فرجينيا وتقع مدينة جيمس تاون عند مصب نهر جيمس وقد أنشأها السكابتون سمث سنة ١٦٠٧ .

ومن الطبيعى أن استيلاء فرد واحد — ومن بعده ذريته — على مساحات شاسعة من الأرض (بعضها فى حجم دول أوربية) يؤدى إلى ظهور جميع مساوىء الإقطاع ؛ فى الثرون التى قلت هذا لم يكن يستطيع أولئك الذين يزرعون الأرض أن يتركوا أرض سيدهم ، أو أن يبدأوا عملاً خاصاً بهم . أما إذا كان مالك الأرض رجلاً عادلاً حكماً — كما كان القليلون فعلاً — فإنه كان يعدل أعماله مساكن جيدة يعيشون فيها ويوفر لهم الرعاية الصحية وينشئ المدارس لأبنائهم . ولكن فى أغلب الحالات كان الملاك يريدون كل شئ لأنفسهم ، وكان الكثير منهم يعيشون فى المدينة ولا يذهبون إلى ممتلكاتهم إلا فى أوقات الحصاد ، بل إن بعضهم كان يقيم فى البرتغال ويترك كل شئ فى يد وكلاء جشعين لا ضمير لهم ، وأجر بعضهم هذه الامتيازات التى نالوها ، باعتبارهم من كبار ملاك الأراضى الآخرين فى نظير أجر يتقاضونه كل عام .

وهكذا فإنه حتى بعد أن انتهى عهد الرق لم تكن حياة عمال الأرض بأحسن من حياة الرقيق ، وقاسى الناس الأمرين من سوء التغذية ، ومن المساكن السيئة ، ومن نقص دور التعليم . وقد تولدت بعض المتاعب السياسية فى التاريخ السورى الطويل للبرازيل فى هذه البؤرة الكبيرة من البؤس والفاقة ، وكانت هذه الصعرة عامة فى جميع البلاد الواقعة جنوب نهر ريو جراند^(١) التى تسكفح اليوم بإصرار وعزيمة لإزالة هذه الشرور القديمة

(١) النهر المشار إليه هنا هو الذى يتكون منه جزء من الحدود بين الولايات المتحدة والمكسيك ، وتقع المؤلف دول أمريكا اللاتينية بصفة عامة .

التي جاء بها الحكم الإقطاعي الأوربي .

ولقد كان من الممكن أن يحدث مثل هذا في الولايات المتحدة لأن الحكومة البريطانية بدأت بإقطاع مساحات كبيرة من الأرض في ولايات فرجينيا ونيويورك وغيرها من المواقع الملائمة ، ولكن الثورة الأمريكية جاءت في تاريخ مبكر فوضعت حداً لذلك كله ، وبدأت جمهورية الولايات المتحدة بتنفيذ سياسة ديمقراطية في توزيع الأراضي ومنحت مائة وستين فدناً بالبحان لأي فرد يقوم بتطهيرها من الغابات وفلاحتها . وعندما شهِب أطفال هؤلاء نزع كثير منهم غرباً للحصول على أراض جديدة . وهكذا نشأت بين الأمريكيان فئة من الرواد الذين حرصوا على أن تتوافر لأولادهم المدارس والجامعات . ومع أن الولايات المتحدة قد عرفت الكثير من المتاعب الخاصة بالزراعة إلا أن المزارعين الذين تملكوا مزارعهم الصغيرة كانوا يتميزون بالشجاعة والاستقلال ، ونشأت الدولة على أكتافهم .

وفي هذه الأثناء كانت لشركة الهند الغربية الهولندية مطاعم في البرازيل ، وغزت جنودها وسفنها إقليمي باهيا وبرانابوكو ، وكذلك أقام الفرنسيون — الذين كانت أمريكا الجنوبية حتى ذلك الوقت مغلقة أمامهم — مستعمرات لهم في مارنيون وريودي جانيرو ، وكان المستعمرون الأسبان يتسربون عبر الحدود إلى الأرض التي كان البرتغاليون يعتبرونها أرضهم ، وكانوا يحتلون الأراضي الواقعة في أقصى الجنوب في حين كانت إسبانيا تحكم باقي أنحاء البرازيل ؛ لأنها كانت تسيطر على

البرتغال نفسها . وكان القرصان الانجليز ينهبون المستعمرات التي لديها شيء ،
يمكن نهبه .

وبدأت البرتغال فور تخلصها من حكم الاسبان تعمل على مواجهة
ذلك كله ، وقد سبق للبرتغاليين أن نهبوا الشرق ثم غادروه . ولكن إذا
كان البرتغاليون يريدون أن يحتقوا نجاحا في البرازيل فإن عليهم أن يقيموا
فيها ويفلحوا أرضها ، فعاونت حكومة البرتغال المستعمرين على طرد الغزاة ،
في بادئ الأمر ، ثم قوت من قبضتها على البلاد بتعيين حكام جدد ،
ولإرسال أكبر عدد ممكن من المهاجرين .

وفي ذلك الوقت كانت مساحة البرازيل لا تزيد على ثلث الأرض
التي تكونت منها الدولة فيما بعد ، وذلك لأن البابا في معاهدة تورد
سيلاس (١) — قبل رحلة كابرال — كان قد خص البرتغال بتلك المساحة
فقط ، في حين منحت اسبانيا ببقية أمريكا الجنوبية واستبعدت فرنسا كلية
من التقسيم .

ولكن ، البت أن ظهرت ثلاث قوى منفصلة ، أخذت تدفع بهذه
الحدود إلى الخارج : أولها المبشرون الجيوزيت وغيرهم من كانوا يقيمون
لإرسالياتهم على مسافات متباعدة في داخل البلاد ، وثانيها رعاة الماشية
الذين كانوا يطلقون قطعانهم في مناطق أوسع وأوسع . أما القوة الثالثة

(١) تورد سيلاس مدينة في شمال اسبانيا وقعت بها سنة ١٤٩٤ المعاهدة التي
أطلق عليها اسم المدينة ، ونظمت حقوق الامتلاك في العالم الجديد بين اسبانيا
والبرتغال . (المترجم) .

وهي أهمها جميعاً فهي الجامعة التي سميت حملة الأعلام Bandeirantes .
 وكان حملة الأعلام هؤلاء من نسل البرتغاليين الأولين الذين تزوجوا
 بهنديات وبخاصة أولئك الذين عاشوا في سان باولو ، وقد ورث هؤلاء عن
 آبائهم التطلع للحصول على الأرض والذهب ، كما ورثوا الكراهية التي كان
 يضمروها الهنود للقبائل المعادية التي قاتلها أسلافهم لعصور طويلة من قبل ،
 ولهذا فإنهم عندما حصلوا على أسلحة الرجل الأبيض ليقاتلوا بها — إلى
 جانب ما توافر لهم من خبرة الهنود بالغابات واستطاعتهم أن يعيشوا على
 منتجاتها في رحلاتهم — لم يتف في سييلهم شيء .

ولقد كان كل الهنود والبيض في أمريكا الشمالية ينظرون إلى المولدين بازدراء
 ولكن أنصاف الهنود هؤلاء كانوا يكونون جميع السكان في مناطق
 كثيرة من البرازيل ، وكانوا هم السادة فيها ، وكانوا يتميزون بالشجاعة
 والقسوة والاستقلال التام ، وتكونت منهم جماعات انتشرت في الداخل وهي
 تقاتل الهنود في تقدمها ، وقد أفنوا قرى هندية عن آخرها . وحيثما راقى
 لهم منطقة ما أقاموا فيها ، وكانت غزواتهم عبارة عن مغامرات وحشية ،
 كانوا يبحثون عن الذهب الذي كانوا يعتقدون اعتقاداً جازماً أنه موجود
 في مكان ما ، وعن الأحجار الكريمة — وبخاصة عن جبل من الزمرد
 الأخضر — تتول الشائعات إنه في ميناس جيرائس . وكانت الحياة التي
 عاشوها جحيماً من الجوع والاختطار والفيضانات والحمل ، وخطر الهنود
 التواقين للانتقام . ولهذا فإنهم عندما لا يجدون شيئاً في رحلاتهم أخذوا

معهم في عودتهم كفايتهم من الهنود يبيعونهم كرقيق .

وفي النهاية أوصلتهم جهودهم إلى اكتشاف الذهب . ففي سنة ١٦٩٢ بدأ الاندفاع لتعدين الذهب ، هذا الاندفاع الذي غير تاريخ البرازيل إلى درجة كبيرة ، ولكن أهم نتيجة لهذا الكشف هو أنه مد حدود البرازيل إلى سفوح جبال الأنديز .

وكان البرتغاليون — كغيرهم من الأمم التي اشتركت في حركة الكشف من خمسمائة سنة مضت — يعتبرون الأراضي التي استكشفوها ملكاً خاصاً بهم ، ولم يخطر لهم أن أصحاب الأرض الأصليين الذين وجدوهم هناك لهم حقوق إطلاقاً . ولا يختلف هذا عما جرى في الولايات المتحدة نفسها في أوائل عهدها، فقد عومل من كان فيها من الهنود نفس المعاملة ، ثم إن القبض على الهنود في أمريكا الجنوبية واستخدامهم كرقيق كان أمراً مشروعاً ، وكان أحد الامتيازات التي منحها الملوك الأسبان والبرتغاليون إلى رجالهم .

ولقد قوبلت هذه الأعمال بالنقد ، وبخاصة من بعض المبشرين الأولين الذين حاولوا حماية أولئك المساكين الذين حولوهم إلى المسيحية ، على أنه لكي يحمى الموظفون أنفسهم من مغبة أعمالهم هذه فإنهم كانوا يرسلون التقارير إلى البرتغال واصفين الهنود بالجهل والغباء والتعطش إلى الدماء وأنهم لا يصلحون إلا لأن يستخدموا كالحيو أو أن يبادوا عندما لا يرجى منهم عمل ، وقد اعتبروا أنه من سوء طالع البرتغال أن هؤلاء يختلفون عن الهنود الذين وجدوهم الأسبان في بيرو والذين كانوا قد تعلبوا — في حكم

الانكا — البناء بالأحجار ، كما تعلموا الزراعة وتربية الحيوان .

وقد تقبل الناس رأى المستعمرين الأولين للبرازيل مدة طويلة ، ولكن العلماء اكتشفوا في الوقت الحاضر أنه كانت للهنود البرازيليين حضارة أعلى بكثير مما قيل عن حضارتهم البدائية ، فلقد كانت جميع القبائل تقريباً تغزل القطن والألياف بوساطة مغزل يدوي وإن كان البعض فقط هم الذين حولوا هذه الخيوط إلى قماش ، كانوا يفضلون أن يصنعوا الأراجيج من الشباك يستخدمونها بدلا من الأسرة للنوم ، وهذه الأراجيج — وبخاصة المصنوعة من ألياف « التوكوم » Tucum — جميلة جداً في العادة ، وبها رسوم تصنع من ريش النعام وريش الببغاء ، وكانت هذه الأراجيج المطرزة الجميلة تصنع لرئيس القبيلة ولأكبار الزوار من القبائل الصديقة .

وكانوا يصنعون عدة أشياء أخرى جميلة ، بعضها من الريش يزين بها الرجال آذانهم وأنوفهم ، وكانت تبدو كالخلى ، وبخاصة عندما تكون من الريش الطويل الذى يتعلق به ريش آخر أصغر . وكانوا يرتدون في حروبهم قلنسوات بديعة الصنع من ريش الببغاوات أو من ريش « الماكو » (الببغاء الأمريكى) الطويل الذيل ، وعندما يريدون أن يزينوا شيئاً ما مثل ناي أو محفظة أو لعبة طفل فإنهم يعلقون في نهايتها زراً (شراية) من الريش . فكانوا بحق فنانيين لا يعلى عليهم فيما يصنعونه من الريش . ودلت أوانهم الخزفية المصنوعة قبل زمن الكشف على مهارة ودرجة كبيرة من التخيل ، وكثيراً ما كانت سلاحهم وأسلحتهم وآلاتهم الموسيقية بل ومساكنهم

وقواربهم ونجاديفهم قطعاً فنية .

ولقد أسهم الهنود في البرازيل - وفي غيرها من دول أمريكا الجنوبية -
إسهاماً غنياً في حضارة دولهم ولغاتها وحياتها ، وأصبحوا هم أنفسهم جزءاً
منها . ويجد المسافر الذي يزور البرازيل ويتجول لمشاهدة المدن البرازيلية
أو يقوم برحلات إلى داخل البلاد شيئاً من عمل الهنود في كل مكان ، ولن
يرقب هندياً بدايماً إلا إذا توغل كثيراً في داخل البلاد حيث لا يزال مليون
ونصف مليون منهم يعيشون كما كانوا قبل وصول الرجل الأبيض . ولكنه
سيرى الكثيرين من المواطنين الجميل السمت بشرات قد صبغتها الشمس مع
سمات هندية وأيد معبرة ، وكل هؤلاء من نسل رجال أمثال كارامورو
ورامالو وألبوكيرك ، وهم جد فخوريين بأصلهم الذي انحدروا منه .

على أن الهنود لم يحتتموا نجاحاً كرفيق ، كانت حياتهم في الغابات
المطيرة حياة نشطة ، إلا أنهم كانوا يصنعون كل هذه الأشياء الجميلة بقصد
السرور والمتعة ، فعندما يبنون منزلاً يتلقون معونة من قبيلة أخرى
صديقة ، وكان الصيد مرحاً ، وكذلك كان جمع الفاكهة البرية والبندق .
أما من حيث الزراعة فتد كانت النساء الهنديات تقوم بجمع الذرة وقرع
العسل و « المانيوق » التي كانت تنمو نمواً برياً . ولكن لما جرى بالهنود
إلى مزارع المستعمرين لزراعة قصب السكر وفلاحة الأرض عجزوا عن
هذا العمل بالرغم مما كانوا يتعرضون له من الضرب والإيذاء .

واضطرب البرتغاليون إلى أن يجيئوا بالزئبق من إفريقيا في جماعات
كبيرة كما كانوا يستخدمون الإفريقيين في جنوب بلاد البرتغال نفسها ،

وهكذا بدأ كل شيء يتم بوساطة الزوج الإفريقيين بما في هذا تعدين الذهب والألماس ، ويتراوح عدد الزوج الذين جيء بهم من إفريقية قبل إلغاء الرقيق بين ٤ ملايين و ١٢ مليوناً ، ولا يمكننا التوصل إلى العدد الصحيح لعدم وجود سجل يظهر لنا الأعداد التي هربت من إفريقية إلى البرازيل .

وتوالى الملوك في البرتغال ، وأرسل عدد كبير من الحكام إلى البرازيل ثم استدعوا إلى البرتغال في السنوات التي تلت إنشاء مقاطعة القباطنة . ولكن القوانين والضرائب وسياسة الأراضي التي فرضت منذ أيام الهبات الإقطاعية بقيت هي دون تغيير . ومع فتح البلاد بواسطة إغارات حملة الأعلام وغيرهم أنشئت إقطاعات جديدة في ميناس جراس وجوياز وماتوجراسو ، ونتج عن اكتشاف الذهب والألماس إصدار الكثير من القوانين التي ترمي إلى إبقاء كل شيء في أيدي البرتغاليين ، وإلى زيادة دخل التاج البرتغالي .

ثم كثر نشوب الثورات ضد الاضطهاد البرتغالي في مناطق عديدة حتى إنه لما يدهش المرء أن بقيت البلاد متماسكة . وكانت قد بذلت محاولة لإنشاء حكومة مركزية عندما نقلت العاصمة من باهيا إلى ريو دي جانيرو سنة ١٧٦٣ ، وعين نائب للملك له السلطة على الحكم والقباطنة . ولكن البرازيليين شعروا في هذا الوقت بمرارة الاحتكار البرتغالي ، فقد كانوا يريدون أن يبيعوا وأن يشتروا بحرية بدلا من تركيز جميع المعاملات في أيدي التجار البرتغاليين وأبنائهم ، فلبجأ البرتغاليون إلى إتلاف الطرق

خوفاً من اتصال البرازيليين بعضهم ببعض ، وأغلقوا الأنهار في وجه الملاحة لنفس السبب ، ومنعوا لإنشاء المدارس وحرّموا نشر الكتب . والصحف . ولم يسمحوا بقيام أية صناعة سوى المعاصر البدائية التي تصنع السكر للتصدير .

ولسكن مساحة البرازيل الشاسعة وثروتها الضخمة أتاح للبلاد أن تنمو رغم جميع هذه المعوقات ، على أنها كانت لا تزال متخلفة في عدة نواح في أواخر القرن الثامن عشر . وكان من الممكن أن تبقى كذلك لو لم يحى نابليون فيشعل أوروبا كلها .

فعندما رفضت البرتغال أن تشترك مع نابليون في حصار إنجلترا غزاً نابليون البلاد واستولى عليها ، وساعده على ذلك أن الملكة ماريا كانت قد أصيبت بالجنون ، وكانت حكومتها — تحت وصاية الأمير يوحنا — في غاية الضعف . وكانت البرتغال كلها تعيش على تجارة الخمر مع إنجلترا وعلى الدخل الكبير الذي يحىء من البرازيل . أما روح المغامرة القديمة فكان من ذكريات الماضي . وكان علاج الحكومة للموقف سيئاً إلى درجة أن قوات نابليون بلغت ضواحي لشبونه قبل أن يدرك البرتغاليون ما حدث لهم .

ولحسن الحظ أن كانت السفن التي يمكن أن تستخدم في حصار بريطانيا راسية في الميناء فأرسلت الأغذية بسرعة إليها ، وجمع البلاط الملكي حاجياته في عجلة شديدة جعلتهم ينسون كثيراً من الضروريات وراءهم ، وتسرب وسط الجمع نفر من الناس لم يكن ليصرح لهم بالإبحار .

وكان هذا حشداً لم يشهد التاريخ مثله من قبل ، برغم سوء التنظيم الذى صحبه ، وأقلعت السفن فى اللحظة التى كان الفرنسيون فيها يدخلون المدينة ، وبدأت رحلتها إلى الأرض الخرافية . . . أرض البرازيل .

وكانت الرحلة مخيفة على ظهور تلك السفن الشديدة الازدحام ، ولم يلبث أن ظهر نقص فى مياه الشرب والطعام والمبوسات . فمض الكثيرون من الجو ومن الطعام السيء ، وعندما انتهت بهم السفن إلى باهيا اضطروا الأمير يوحنا ووزراؤه أن يبعثوا لطلب الثياب من الشاطئ — ليستطيعوا أن يظهروا بمظهر نظيف عند مغادرتهم السفن . وكان الترحيب الذى استقبلوا به رائعاً وجن جنون البرتغاليين البرازيليين من السرور والطرب فى كل من باهيا وريودى جانيرو . وأعطى الأهل إلى اللاجئين كل ما كانوا فى حاجة إليه بما فى ذلك المساكن والعبيد .

وكان الأمير يوحنا رقيق الحاشية بدين الجسم ، وتعلم فى أحد الاديرة حب السلام والموسيقى والآداب والطعام الجيد ، والواقع أنه كان أكلوا حتى يقال إنه كان يضع فى جيبه دجاجاً محمراً يتبلغ به عندما تطول اجتماعاته بوزرائه ، أما زوجته الأميرة كارلوتا الاسبانية — التى كانت أمه قد خطبتها له وهما فى سن الطفولة — على تمييزه تماماً ، كانت امرأة طموحاً متعجرفة تفتنظر من البرازيليين أن يحشوا على ركبهم تحية لها عندما تمر بهم على ظهر جوادها . وكان زوجها يخشاها ويخافها لأنه لم يكن يعرف ألبته ما يمكنها أن تفعله به .

وأحب يوحنا أرض البرازيل منذ البداية بالتندر الذى كرهتها بها

زوجته ، وأحبه الناس جميعاً ، وبخاصة بعد أن ألغى كل قيود الاحتكار وفتح الموانئ والانهار للتجارة الخارجية مع كل الأمم ، وأنهى القوانين التي كانت بغیضة إلى قلوب الناس .

ولم تعد البرازيل الابنة المضطهدة للوطن الأم ، بل أصبحت وهي على رأس العالم البرتغالي ، وشرع يوحنا من فوره في العمل على جعل ريودي جانيرو عاصمة تستحق هذه المكانة ، وعندما تولى العرش باسم الملك يوحنا السادس بعد موت الملكة ماريا المجنونة كان قد أقام المدارس والمكتبات والمصانع وأنشأ حديقة للنباتات ، ووضع أسس أنواع عديدة من الثقافات والصناعات . وأصبح في استطاعة البرازيليين أن يتحلوا بما لديهم من ذهب وماس ، كما أنهم حصلوا على الكثير من الامتيازات التي تجعل الحياة بهجة مرغوباً فيها .

وكان بود الملك يوحنا أن يقضى حياته كلها وسط هذا الشعب الطيب وفي البلاد التي يستطيع أن يشاهد فيها ثمار ما غرسه ، ولكن رعاياه في البرتغال لم يرتضوا أن يكون بلاطهم في أمريكا الجنوبية ، كما أنهم لم يرتاحوا إلى القوانين الجديدة التي سنّها يوحنا والتي كانت تحابي البرازيل ، هذا عدا أنه بعد انتهاء عصر نابليون كان التفكير في الحكم الجمهوري يزداد قوة في البرتغال بسبب نجاحه في الولايات المتحدة . وكما كانت دهشة الملك يوحنا عندما قامت شبه ثورة في البلاد انتزعت منه دستوراً . فأدرك الملك أن الخطوة التالية قد تطيح بعرشه الذي لم يكن مستقراً . ولهذا قرر — آسفاً — أن يعود إلى البرتغال ، وكان آخر عمل قام به في

البرازيل هو توقيع الدستور الذى طالما طالب به البرازيليون ، ثم عين ابنه الأكبر بيدرو نائباً للملك فى تلك البلاد .

ولقد شب بيدرو فى مدينة ريودى جانيرو التى كانت تجمع بين البدائية والسمات الشرقية ، فى حين كان والده يسعى إلى تحضرها وكانت والدته مشغولة بالمؤامرات السياسية . وكان بيدرو كأبيه مغرمًا بالموسيقى ، يعزف على عدة آلات موسيقية ، كما أنه ألف عدة مقطوعات — منها نشيد الاستقلال البرازيلى ، ولكنه على التقىض من والده فى صفات أخرى . فبينما كان يوحنا بدين الجسم معتل الصحة يعوزه الإقدام ، كان الأمير بيدرو قوياً معافى لا يهاب شيئاً . ثم لأنه لم يتفق مع والده فى السياسة ، ورأس جماعة من الشباب الذين عقدوا العزم على استقلال بلادهم . وقد قدر الملك يوحنا أن هذا سوف يحدث يوماً ما ، ولهذا فإنه نصح بيدرو بأن يوطد أقدامه على العرش ، وأن يكون أول حاكم مستقل للبرازيل .

وبعودة الملك يوحنا إلى البرتغال تحولت البرازيل مرة أخرى إلى مجرد مستعمرة يتولى حكمها الأمير بيدرو نائباً للملك . وذلك لأن الملك يوحنا لم يجد مفرأ من تلبية جميع طلبات الأمراء البرتغاليين التجار الذين كانوا يريدون استعادة احتكاراتهم القديمة ، ولكن البرازيليين كانوا إذ ذاك فى وضع يختلف عما كانوا عليه من قبل ، إذ كانوا يبنون صناعاتهم الناشئة ، ويتمتعون بكثير من الكماليات المستوردة من إنجلترا وفرنسا فى نظير تصدير السكر والقطن والتبغ ، وكاد ينفذ صبر بيدرو عندما جاءته الأوامر بالعودة إلى البرتغال لاستكمال دراسته ؛ لأن هذه كانت إهانة له وهو فى سن الرابعة والعشرين ومتزوج وأب لعدة أطفال .

وكانت زوجته ليوبولدينا ابنة امبراطور النمسا فتاة بجائنة مغرمة بالدرس والمطالعة ، اصطحبت معها من أوروبا عدداً من العلماء لدراسة النباتات والحشرات والحيوان في المناطق المدارية ، وكانت مجموعتها من الفراشات وأنواع النباتات بداية لإنشاء المتحف الوطني الذي لا يزال مزدهراً. وكانت ليوبولدينا تعطف على آراء زوجها التحريرية ، ومن ثم نصحته بأن يخطو الخطوة التالية ويقطع صلته بالبرتغال ، وأنصت بيدرو لنصيحة زوجته ثم أطلق صيحته « ابرانجا » « الاستقلال أو الموت » بعد ذلك بتقليل في السابغ من سبتمبر سنة ١٨٢٢ عندما كان في سان باولو يحاول كبح جماح ثورة تشتد هناك .

وأعلن بيدرو لمّث عودته إلى ريو توليه العرش باسم الامبراطور بيدرو الأول امبراطور البرازيل ، وتوج بعد ذلك بتقابل وسط حفلات صاخبة وامتلات طرقات العاصمة بالراقصين والراقصات .

وبعثت حكومة البرتغال أسطولاً يشق البحار مسرعاً ليأخذ بيدرو إلى لشبونة بالقوة ، ولكن لم يستطع الأسطول أن يرسو على الساحل فضلاً عن أن ينزل جنوداً . وبدا وكأن الحاميات البرتغالية في المدن الكبرى تعتزم القتال إلا أن القوات البرازيلية كانت أقوى وأصلب عوداً ، فلم تجسر تلك الحاميات على نزاعها ، ومع ذلك مرت سنتان قبل نزوح أفرادها من البرازيل .

وكان يقف إلى جانب بيدرو أعقل رجال البرازيل وأكثرهم حكمة،

وتخير هو من بينهم جوزى بونيفاسيو دى اندرادا سيلفا الذى يعرف بلقب « بطرك الاستقلال » لرياسة الوزراء ، وكان جوزى وأخواه زعماء حزب الأحرار ، واسم « اندرادا » من الأسماء الشهيرة فى تاريخ البرازيل .

وكان الوثام سائداً بين الجميع فى بادىء الأمر ، ثم توالى الأحداث بعد ذلك ؛ فقد اختلف بيدرو ووزراؤه حول تحديد سلطاته وحل بيدرو فجأة مجلس الكونجرس واستخدم الجنود لتنفيذ الأمر ووضع المدافع أمام المجلس ، ومع أنه سحب كل ذلك بعد وقت قصير إلا أن الضرر كان قد وقع ، لئلا كان بيدرو يدافع عن النظام الديمقراطي عندما كان فى جدال مع أبيه ، ولكن عندما اختلف مع رعاياه على حقوقهم الديمقراطية وقف ضد رغباتهم فى عناد وكبرياء وتعجرف . فقد أصر على حتمه فى تعيين حكام الولايات الشمالية بدلا من أن يعطى الناس فرصة انتخابهم ، فانفصلت الولايات الشمالية وكونت « الاتحاد الكونفدرالى الاستوائى » مما اضطره إلى استخدام مزيد من القوة للقضاء على هذا الاتحاد .

وفى أثناء هذا ماتت ليوبولدينا الحكيمة العاقلة تاركة وراءها خمسة أطفال بلا أم ، فتزوج بيدرو أميرة أوربية حسنة ولكنها كانت صغيرة السن جداً ومات كذلك الملك يوحنا ، فورث بيدرو عرش البرتغال ، واعترض البرازيليون على هذا الموقف فى عنف وقوة حتى إنه نزل عن عرش البرتغال لكبرى أولاده الأميرة الصغيرة ماريا دى جلوريا ، إلا أن الناس ظلموا يعتقدون أنه يفضل البرتغاليين ، وعندما اختلف للمرة الثانية

مع وزرائه طردهم وعين بدلهم فعلا سياسيين برتغاليين ، فتحولوا
الجميع ضده .

وكان بيدرو يقول : « سأفعل كل شيء من أجل الشعب ولكنى لن
أفعل شيئاً بأمر الشعب » .

وكانت هذه هي النقطة التي قصمت ظهر البعير ، فإن جنوده الذين كانوا
دائماً ميايّن له رفضوا الدفاع عنه ، وفي غمرة غضبه وغيظه وشعوره بالآلم
والوحدة كتب وثيقة تنازله عن العرش في منتصف الليل لابنه الصغير
بيدرو ، ثم ذهب إلى السفينة متعجلاً كما فعل أبوه من قبل ، تاركاً وراءه
ابنه بيدرو وأطفاله الثلاثة الآخرين في حين أنه أخذ معه ابنته ماريادى
جلوريا التي ستصبح ملكة البرتغال في يوم ما . وفي آخر لحظة التمس من
صديقه السابق ومستشاره جوزى بونيفاسيو دى اندرادا سيلفا أن يرعى
أطفاله من بعده .

وفي اليوم التالى وقف الصبي الأشقر الصغير الذى كان قد بلغ الخامسة
من عمره بين مربيته وبين اندرادا سيلفا في شرفة القصر يحرك منديله
الصغير للجماهير ، وكان الناس يصرخون صرخات عالية ، ولم يكن الطفل
ليدرك أنهم يعنون بهتافهم : « يعيش الدوق بيدرو الثانى » .

وتعطل أبوه بيدرو الأول بسفينته في الخليج ، وعندما سمع صيحات
الجماهير وقذف المدافع تحية للملك الجديد ، أدرك أن كل شيء سيسير الآن
على ما يرام .

وكان بيدرو الصغير برازيلياً وقد أنشأه البرازيليون على النمط الذى يريدونه من حاكمهم . فكان من حسن حظهم أنه شب ذكياً حن الضمير ، فتمد شعر بأنه يجب عليه أن يتعلم كل شيء ليكون حاكماً جيداً ، وكان بطبيعة الحال يامر مع شتمياته كسأى صغير . ولكن عندما تقدمت به السن كان نهماً فى الدراسة خشية ألا يتوافر له الوقت الكافى ليكمل تعليمه . فإذ كانت البلاد تنقسم إلى أحزاب سياسية تتطاحن فى قتال مرير عنيف ، حزب يريد قيام الجمهورية ، على حين يريد حزب ثان الملكية الدستورية التى كانت قائمة فعلاً ، فى حين كان حزب ثالث يريد استدعاء بيدرو الأول من البرتغال . وقامت عدة ثورات نتيجة لمحاولة الأحزاب الاستيلاء على السلطة . ووضح أخيراً أن الوسيلة الوحيدة لإنهاء النزاع الذى يشتد بين الأحزاب السياسية إعلان أن بيدرو قد بلغ السن التى تخوله تولى الحكم بالرغم من أنه كان فى الخامسة عشرة وإن كان ظاهرياً أكبر من سنه ، وكان قد اكتسب ثمة الجميع بحده ، وإقباله على العمل ، وهكذا فى سنة ١٨٤٠ قبل أن يحدث ما هو أكبر وأخطر - أعان تولى بيدرو أمر الإمبراطورية وتوج باسم بيدرو الثانى .

وكانت هذه فى الواقع البداية الحقيقية لحياة البرازيل كأممة ، ولنصف قرن نمت البلاد فى رخاء ، فتمد كان بيدرو الثانى زعيماً عظيماً للشعب البرازيل ، ونشأ على مثاله وشاكلته جمع كبير من الرجال الذين يختلفون عن خلفاء السياسيين البرتغاليين الندامى نواب الملك . كانوا رجالاً يتقدرون قيمة حقوق الإنسان وحرية أكثر مما يقدررون أى شيء آخر ، وكان

الكثيرون يفضلون أن يفتدوا ثرواتهم حتى يمكن أن يتحرر كل البرازيليين، ولا تزال روح هؤلاء الرجال قائمة حية إلى اليوم في الزعماء البرازيليين الشباب الذين رفعوا علم الكفاح من جديد في سبيل الديمقراطية ، وكثير من هؤلاء لا يزالون يطالبون العلم ، ولكن من تقاليد أمريكا اللاتينية أن يهتم الطلاب اهتماما كبيرا بالسياسة ، وأن يقوموا بدور إيجابي نشط فيها، ومن ثم فإن لهم نفوذاً أكبر بكثير مما للطلاب في الولايات المتحدة الأمريكية مثلاً .

واستمرت الثورات والثورات طوال السنوات الأولى من حكم بيدرو، استمرت في الولايات التي كان البرازيليون يكافحون فيها للحصول على حقوقهم التي أغفلت ظلماً لأجيال طويلة .

ولكن سرعان ما بدا بوضوح أن بيدرو الثاني والاميرة النابولية التي تزوجها — الامبراطورة تريزا كريستينا — يعيشان من أجل بلادهما . وكان بيدرو مرفئاً في اختيار الرجال الحكماء وزراء له ، وقد عملت الجمعية العامة المكونة من مجلسين والتي تشبه في صورة ما الكونجرس الأمريكي في تنسيق تام ، وازدادت ديمقراطية بيدرو مع تقدمه في السن ، فنبذ كثيراً من التقاليد الملكية البرتغالية القديمة ، وارتدى بدلة سوداء بسيطة في الوقت الذي كان الملوك يرتدون حبالاً فاخرة مرصعة بالجواهر ، وحدد بيدرو يوماً أطلق عليه اسم « يوم استقبال أسرتي البرازيلية » فكان أى مواطن يستطيع أن يذهب لمطالبة الملك ليشتكو إليه ما يلقاه من ظلم .

وشهدت البرازيل نصف قرن من التقدم في الصناعة والتجارة والفن،

ولم يحدث أى نزاع داخلى ، وكان من الممكن أن يتوافر رخاء أعظم وأكبر لولا اشتراك البرازيل فى حربين خارجيتين بسبب حب البرازيليين للحرية وبسبب غيرة الإمبراطور ، كانت إحدى الحربين لمعاونة أهل الأرجنتين فى خلع الديكتاتور مانويل روساس وحققت هذه الحرب نجاحا ، ولكن الحرب الثانية لتحرير برجواى من الطاغية المتعطش للدماء سولانو لوبيز استمرت سبع سنوات قبل أن يسقط لوبيز ، وفقدت البرازيل فى خلالها الكثير من المال والأرواح .

وكانت مشكلة الرق أعقد مشكلة واجهها بيدرو لأن كل إنتاج البلاد يقوم على أساس استخدام الرقيق ، وكان بيدرو بعد أن تحرر العبيد فى أمريكا الشمالية يعترم أن يحذو حذوها . ووقف أكثر التقدميين فى البلاد إلى جانبه فى هذه المسألة ، فصدرت عدة قوانين تحرم تجارة الرقيق ، وكانت الولايات المتحدة تكافح فى ذلك الوقت من أجل هذه المشكلة نفسها . ثم صدر قانون آخر ينص على أن كل الأطفال الذين ولدوا لآباء من العبيد يعتبرون أحراراً من لحظة ولادتهم . وكان هذا يحل مشكلة الرق تدريجياً على أساس أن الرقيق كبار السن يموتون بين سنة وأخرى . وتولى بيدرو رئاسة صندوق لتحويل تحرير عدد معين من العبيد كل سنة ، ومنح بيدرو الصندوق بسخاء حتى كانت الأمرة المالكة تعيش فى ضيق أحياناً بسبب هذا السخاء . ثم صدر قانون آخر يحرر الرقيق الذين يبلغون الخامسة والستين ، وقال هذا من عدد العبيد بقدر كبير ، ولكن الأمر لم يكن يسير بالسرعة التى ترضى دعاة تحرير الرق ، وكانت على رأسهم الأميرة إيزابيل ابنة بيدرو

ووريثة العرش ، واكتسبوا بانضمامها لصفوفهم قوة كبيرة ، وهكذا فإنه عندما مرض بيدرو واضطر إلى الذهاب إلى أوروبا للعلاج ، عمل دعاة التحريم بسرعة ومرروا في الجمعية العامة قانوناً وقعته إيزابيل كوصية على العرش في غياب أبيها .

وكان هذا بداية النهاية ، لأن أصحاب الرقيق فتدوا شيئاً ثميناً ، وأصبح الكيبيرون منهم فقراء ، وتبع هذا أن قامت في بعض أنحاء جنوب البرازيل حالة أشبه بما حدث في جنوب الولايات المتحدة إثر الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١ - ١٨٦٥) ؛ إذ قلت الأيدي العاملة اللازمة للعمل في حقول قصب السكر والتبغ والقطن ، وتلت ذلك أوقات عصيبة أثرت في حياة البلاد كلها .

ووجه الناس اللوم إلى الأميرة إيزابيل بسبب هذا الموقف وبسبب بعض القرارات التي جاءت نتيجة مشورة غير حكيمة ، وفتدت إيزابيل شعبيتها لاسيما وأن صحة الدون بيدرو كانت قد ساءت بالتهذر الذي أوضح أن إيزابيل ستكون إمبراطورة قبل انتهاء وقت طويل . وكان كل هذا يجري خفية عن بيدرو الذي كان يسترد صحته ببطء في قصره الريفي في بيتروبوليس ، وعندما وقعت الواقعة وأعلنت الجمهورية كان ذلك مناجاة للرجل الذي كان يصرخ دائماً : « عندما تصبح البرازيل جمهورية أود أن أكون أول رئيس لها » .

وكان أول رئيس للجمهورية الجنرال ديودورو دى فونسيكا قائد الجيش ؛ إذ كان الزعماء الجمهوريون قد عمدوا اجتماعاً سرياً طويلاً في

الوقت الذى كان الجنود يعدون فيه العدة للثورة ، ولم يكن بيدرو وأفراد أسرته يعرفون شيئاً عن ذلك ، ولكن وزراءه كانوا على علم به ، وحاولوا اعتقال المتآمرين ، وبعثوا ببرقية إلى بيدرو ليعود إلى ريو دى جانيرو . ولكن فى خلال هذه الفترة كانت وثيقة إعلان الجمهورية قد كتبت ووقعت ، وركب الجنرال ديودورو من مبنى رئاسة الجيش مسرعاً لإعلان القرار للجماهير التى كانت تنتظره ، ثم قاد بعد ذلك عرضاً عسكرياً كبيراً فى طرقات العاصمة وأطلقت المدافع وأنشد الناس النشيد القومى ، وأخيراً جاءت الجمهورية التى تعطل إعلانها طويلاً بسبب روح بيدرو الثانى الديمقراطية ، وكان هذا هو اليوم الخامس عشر من نوفمبر سنة ١٨٨٩ ، وتحتفل البرازيل بهذا اليوم إلى جانب احتفالها باليوم السابع من سبتمبر : يوم الاستقلال .

وثالث مرة فى أقل من سبعين سنة تغادر الأسرة الملكية الحاكمة البرازيل فى هدوء وبسرعة على ظهر سفينة تمخر بهم عباب المحيط الأطلنطى ، هتاهم مثل أى لاجئين عاديين .

ومرت سنتان قبل أن تتولى الأمر حكومة مرضية — على رأسها ديودورو دى فونسيكا كرئيس جمهورية منتخب ، وعلى أساس دستور كثير الشبه بدستور الولايات المتحدة الأمريكية — ولم يستكمل ديودورو دورة رئاسته ، ذلك لأنه خاصم الكونجرس الذى اعترض على تدخل الجيش فى الشؤون المدنية ، فاضطر ديودورو إلى الاستقالة بعد أن سخل الكونجرس خلا غير دستورى ، كما حدث لبيدرو الأول من قبله ،

وكما فعل فارجاس في سنة ١٩٣٧ . وتولى السلطة بعده نائب الرئيس .

وقاست جمهورية البرازيل — ولا تزال تقاسى — من تسلط الجيش ، وهناك مشكلات أخرى نابعة من الولايات وعلاقاتها بالحكومة المركزية .

واستغرقت الزراعة في البرازيل وقتاً طويلاً لتتحول إلى نظام لا يعتمد على الرقيق ، كما أن السمعة الحسنة التي اكتسبتها البلاد في الخارج لبأن حكم بيدرو أخذت في الوهن في أثناء حكم رؤساء الجمهورية الأولين ، فهبط سعر العملة ، وتوالى الأزمات الاقتصادية ، وحل نظام السخرة^(١) محل استخدام الرقيق في المزارع ، وعجزت الحكومات المختلفة عن القضاء على الأمية التي كانت مرتفعة النسبة بين السكان ، فاقصر حق التصويت على طبقة صغيرة وبقيت أغلبية لها خطرها غير ممثلة .

ونشأت أعظم المتاعب السياسية بسبب العرف الذي بدأ في أول عهد الجمهورية بأن يحىء رؤساء الجمهورية بالتعاقب من أقوى ولايتين ، ميناس جيرائس وسان باولو ، مما أثار الغيرة والسخط في بقية أجزاء البلاد . ومع هذا لم تنجح أية ثورة في تغيير الحكومة حتى خرجت إحدى الولايات على هذه القاعدة . فتمد دبر الرئيس واشنطن لوز (وأصله من ولاية سان باولو) أن ينتخب رجل آخر من سان باولو خليفة له في سنة ١٩٣٠ ، وقامت ثورة تحت زعامة مرشح المعارضة جنوليو فارجاس من ولاية ريو جراند دوسول وأثيرت الاتهامات عن الفساد وتزوير الانتخابات ،

(١) تنفى القيام بالعمل في الحقول سداداً لدين . (المترجم) .

وامتدت الثورة واتسع نطاقها وتحولت إلى حرب أهلية ، وكسب الثوار الموقف ، وقبل أن يكمل واشنطنغتون لويز مدة رئاسته أرغم على الاستقالة لصالح فارجاس . ولكن انتصار فارجاس ما لبث أن تزعزعت أركانه لما لجأ إليه من تدابير التمتع فتمد ألغى الدستور والحقوق المدنية ، وحرية الكلام ، وحرية الصحافة . ومع أنه قد برز في البداية كبطل في أعين الجماهير فإنه سرعان ما راح ينزلق على مراحل ليتموم بدور الديكتاتور الفاشي وكانت الفاشية تسود الجو في أمريكا اللاتينية . وفي النهاية وضع فارجاس دستوراً يسمح له بإصدار القوانين بمراسيم . ومع كل ذلك لم يفقد شعبيته إلا بعد وقت طويل .

وفي تلك الاثناء كانت البرازيل قد انضمت إلى جانب الحلفاء في الحرب العالمية الثانية ، برغم وجود جماعة قوية من النازيين في البلاد . وكان من الغريب أن يقاتل الجنود البرازيليون في الجبهة الإيطالية من أجل قضية الديمقراطية ، على حين أن في وطنهم حكومة فاشية . ولم يكن هذا ليستمر طويلاً ؛ إذ عندما عاد الجنود البرازيليون إلى وطنهم كانت حكومتهم قد وعدت بإجراء انتخابات عامة في الثاني من شهر ديسمبر سنة ١٩٤٥ وكانت هي أول انتخابات عامة تجرى في البلاد منذ خمس عشرة سنة .

وباقتراب موعد الانتخابات انتشرت الإشاعات عن تدبير مؤامرات سياسية ، وخشى الناس أن يحدث انقلاب على صورة ما يؤدي إلى تأجيل الانتخابات أو إلغائها كلية . وهكذا فإن قادة الجيش — الذين كان

الكثيرون منهم قد عاونوا فارجاس من قبل على الاحتفاظ بمنصبه — والجنود — أرغموا رئيس جمهوريتهم على أن يستقيل وأن يهرب من العاصمة ، وجرت الانتخابات في نظام وعدالة وفاز بالرياسة الجنرال «أوريكو دوترا» بعد أن حصل على أغلبية كبيرة جعلت الناس يتقبلون النتيجة دون أية مناقشة .

ولكن فارجاس عاد وفاز بالرياسة في الانتخابات التالية ، وبقي في الحكم حتى أغسطس سنة ١٩٥٥ عندما أرغمته المعارضة في داخل حكومته على الاستقالة ، فما كان منه إلا أن انتحر .

وخلفه نائبه جواكافيه فيلو ، ثم جاء بعده الدكتور جوسيلينو كوبيتشك سنة ١٩٥٦ ، وهو طبيب له خبرة واسعة بالإدارة الحكومية . وقد انتخب بأغلبية كبيرة .

ريودى جانيرو

كان للرحالة البرتغاليين فضل استكشاف خليج جوانابارا . وعندما أبحروا بمحاذاة الساحل البرازيل كانوا يختارون الأماكن المختلفة أسماء من التتميم . ولما صادف وصولهم فى أول يناير عام ١٥٠٢ إلى الموقع الذى قامت فيه عاصمة البرازيل فيما بعد فقد أطلقوا عليه اسم « نهر أول يناير » ؛ ذلك لأن الثلاثين ميلا التى تمتد فيها الخليج إلى الداخل نحو الجبال بدت لهم كمصب نهر ، وكان من الطبيعى أن يظنوه كذلك ؛ لأن المستكشفين الذين كان من بينهم أمريجو فسبيرتشى لم يشاهدوا خليجاً فى مثل هذا الامتداد من قبل . وقد بقى الاسم بالرغم من عدم وجود نهر ، ثم اختزل الاسم فصار « نهر يناير » : « ريودى جانيرو » .

وعندما اختارت جماعة من المستعمرين الفرنسيين موقع تلك المدينة بعد ذلك بتليل لم يكن أحد يفكر فى تخطيطها ، أو يتصور المدينة العملاقة التى وضعوا أساسها . وكان المستعمرون قد تشاجروا مع زعيمهم فيلجانيون ، فنزحوا عن جزيرته الواقعة فى الخليج ، والتى لا تزال تحمل اسمه ، إلى تل على الأرض الرئيسية ، ويرجع سبب اختيارهم للأرض العالية إلى رغبتهن فى إقامة حصن لإبعاد البرتغاليين الذين كانوا يزعمون لأنفسهم حق اكتشاف البرازيل ، وكانوا غاضبين على الفرنسيين لاستقرارهم هناك .

ولكن هؤلاء الهوجونوت الفرنسيين ، مثلهم مثل أولئك الذين نزلوا أرض الولايات المتحدة ، كانوا مضطرين إلى الهجرة إلى مكان ما هربا من الاضطهاد الذى كانوا يلاقونه فى فرنسا الكاثوليكية ، وكان ماكنهم الفرنسي سعيداً للتخلص منهم ومن مشكلاتهم ؛ وبخاصة لأنهم هم أنفسهم قد جمعوا الثنود التى مولوا بها مستعمرتهم ، وطن المالك أيضاً أنه يملك حق السماح لهم بأن ينزلوا أرض العالم الجديد ، لاعتماده أن رجلا فرنسياً اسمه جان كوزان كان قد اكتشف قارة أمريكا الجنوبية باسم فرنسا ، وأنه كان أول من سار بسفينة على طول الساحل البرازيلى باحثاً عن أسواق للتجارة فى الأراضى الجديدة ، وكان مجيء الهوجونوت فى الوقت المناسب لإثبات ماتزعه فرنسا ولإعطائها موطناً فى تلك القارة .

ولم يلبث ملك البرتغال أن قلق لهذا ، وبعث بأوامره إلى القبطان ميم دى سا فى مستوطنة باهيا لطرده الفرنسيين . على أنه فى نفس الوقت كان الفرنسيون النشطون قد بنوا بعض الدول الأوربية الطراز التى صنعوا لأجائها قوالب الطوب الأحمر والقرميد فى قرائنهم ، وقامت هذه الدور بوسط أكواخ هنود التامويو المصنوعة من أوراق النخيل . وكان هؤلاء الهنود قرى عديدة على طول خليج جوانا بارا ، فأطلقوا اسم « كاريوكا » (أى دار الرجل الأبيض) على منازل الفرنسيين ، ولا يزال هذا الاسم يستخدم فى ريو التى يطلق على أبنائها اسم « كاريوكيين » . وكان الهنود مسالمين للغاية وأظهروا رغبتهم فى التبادل مع الرجل الأبيض ، فكانوا يقدمون جوز الهند ، والأدوات المصنوعة من الريش ، والقردة ،

والبيغاوات ، والأخشاب البرازيلية ، فى نظير الخرز ، والمرايا ، والأقمشة والحلى المعدنية ، والفؤوس ، وغيرها من الأدوات .

وهكذا استمر الوثام حتى إجماع من باهيا سفن القبطان ميم دى سا يتودها ابن أخيه استاسيو ، وبدأت السفن تطلق نيرانها ، واستمر القتال طويلا لأن هنود التامريو كانوا يتأتلون إلى جانب الفرنسيين ، فجند البرتغاليون أعداء التامريو ليقاتلوا فى صفوفهم . وقد استمر الفرنسيون يقاومون البرتغاليين طيلة سنتين بعد أن اعتصموا بأعلى التل ، ولم يهزموا إلا بعد أن وصل الأنبطان ميم دى سا بنفسه على رأس قوات أخرى للاشتراك فى المعركة الأخيرة التى قتل فيها استاسيو .

وفى مكر ميم دى سا بعد ذلك أن « مرودو كاستيللو » — أى قلعة الجبل التى صمد فيها الفرنسيون تلك المدة الطويلة — تحتل مكاناً ممتازاً ، فقرر أن يبني فى مكانها حصناً أكثر مناعة للحامية البرتغالية ، وكذلك كانت المدينة البرتغالية فى حاجة إلى إحباط محاولات المستعمرين من الدول الأخرى .

ويعتبر استاسيو دى سا المنشئ الحقيقي لمدينة ريو ، ولكن لم يكن ليخطر بباله أو ببال الفرنسيين ما ستصبح عليه تلك المدينة حتى ولو كانوا على دراية بتخطيط المدن ؛ إذ أن موقعها من أعجب المواقع فى العالم لتيام عاصمة كبيرة ونوها . فلم تكن هناك أرض مستوية ، وكانت الشواطئ الرملية على طول الساحل ضيقة تغطيها المستنقعات بسبب المد العالى الذى كان

يطغى عليها ، كما أن الجبال العالية كانت ترتفع خلف الشواطىء مباشرة تاركة مساحات صغيرة جداً صالحة للبناء .

واليوم تكشف لك نظرتك الأولى إلى المدينة عن هذه الجبال التى صنعها الإنسان ، تمتد على ساحل البحر لأميال حتى تصد المد العالى ، وقد ردمت الأرض وراء هذا الجدار لإنشاء طريق متسع تحيط به الأشجار المدارية ، ونمت المدينة فى هذه المحارات الضحلة التى يدور حولها الجدار ، وانتشرت فى الوديان القصيرة الضيقة بين الجبال العالية ، بل وحتى على جوانب الجبال متى توافرت الأرض المنحدرة التى يمكن البناء عليها ، وترتفع فوق حافات الدور جرف عمودية ذات أشكال عجيبة ، تصفها الأسماء التى تطلق عليها مثل : « كوركوفادو » أى الاحدب « دويس . ارمانوس » أى الأخوان ، « بيكودى باباجايو » أى منقار الببغاء ، ثم « بانودى أسوكار » أى قمع السكر ، و « قمع السكر » هذا عبارة عن صخرة مدببة ترتفع من حافة الماء إلى ارتفاع ١٢٠٠ قدم ولا تبعد كثيراً عن وسط المدينة ، وتصعد عربة صغيرة على سلك كالتقاطرة الهوائية ناقلة السياح لمشاهدة المنظر الجميل من أعلاها .

وجبل سائنتا تريزا الذى يرتفع فى وسط الحى التجارى كصف من السلام الخلفية أقل انحداراً من قمع السكر ، وتبدو المنازل على منحدراته متأرجحة ، وللكثير منها ثلاثة طوابق فى واجهتها وطابق واحد فى الخلف أو العكس . وبهذا الحى خط ترام شديد الانحدار تسكد عرباته تنزل برا كيبيا إلى وسط المدينة .

وعندما تشاهد مدينة ريو من الجو يتضح لك كيف وقفت هذه الجبال عائقاً لنمو المدينة . فقد أعطتها هذه الجبال شكلاً من أغرب الأشكال ولكنها في الوقت ذاته أضفت عليها جمالاً بديعاً بمناظرها الخلابة وأفتها الرائع عند غروب الشمس . ولكنك تتساءل : أين تستطيع المدينة أن تتسع بعد ذلك مادامت كل أرض تصلح للبناء تشغها إما الدور وإما الحدائق . وكان هذا أحد أسباب تغيير عاصمة البرازيل من ريو إلى المدينة الجديدة برازيليا .

وعندما تبدأ بك الطائرة في الهبوط فإنك تشاهد عدداً كبيراً من مداخل المصانع ، ولكنك لا تشاهدها فوق المنازل ، وربما كانت العمارات السكنية المطلة على المحيط ذات هواء منعش نوعاً . ولكنك لا تزال في المنظمة المدارية وكل ما يحتاج إليه الإنسان حتى في وسط الشتاء هو مدفأة كهربائية .

وعندما تدخل طائرتك في الممر الجوي بين الجروف التي تبدو أكبر من حتميتها ، وعندما تزوم الطائرة مارة بالتلال الضخم الهائل للمسيح المخلص المنقذ الذي يعلو قمة كوركوفادو (الاحدب) فإن مطارساتوس دامونت الذي أطلق عليه اسم الرائد البرازيلي المخترع لصناعة الطائرات يبدو كأنه ينهض لاستقبال الطائرة ، وهناك منطقة ممتدة من الأرض تصل إلى عشرين فدناً لا يشغلها شيء تقع في جوار أعلى المباني التي تملأها المسكاتب ، وستبدو لك أرضاً مغلقة مهملة في مثل هذه المدينة المزدحمة ،

ولكن الواقع أنها قد ردمت حديثاً ولا تزال تسوى لإعدادها للبناء «
وسترى السيارات وهي تنقل الأتربة لردم الأرض على حافاتها .

وإذا كنت تحاول تحديد موقع « تل القلعة » حيث أنشأ استاسيودي سلة
المدينة في البداية فإن يمكنك ذلك ، فقد ذهب وانتهى ، فبذ سنوات جاء
إلى ريو رجال شركة هندسية من أمريكا الشمالية ومعهم كراكات ضخمة
وأنايبب للتصريف ، وعملوا لعدة سنوات يجرفون تل القلعة ويمسحونه
إلى الخليج ومن ثم لم يبق منه اليوم شيء عدا الاسم « كاستيللو » مكتوباً على
السيارات التي تسير في ذلك الحى .

وكانت توجد أسفل « كاستيللو » في جوار المطار الحالى أرض صلبة
تصلح لشق الطرقات الجديدة وإقامة الأبنية ، وتوجد بها الآن الأبنية
العالية التي تشغها دور الحكومة ومكاتبها في ناطحات سحاب ، وقد
توافرت الأتربة الكافية لإنشاء المطار الكبير في المنطقة التي كانت من قبل
ماء ، ولكن لا يزال حى الأعمال في حاجة ماسة إلى الأرض ، حتى إن تل
سان أنطونيو قد أزيل هو الآخر لإيجاد المزيد من الأرض المستوية
لإنشاء الأبنية .

وليس مشروع تل القلعة أول مشروع هندسى ضخيم قام به أهل ريو
ذلك لأنه منذ أكثر من أربعين سنة فسكر عدد من أعلام المهندسين في
استحداث الطرقات القديمة والمباني التي تضيق الصدر في حى الأعمال في
المدينة البرتغالية القديمة ، وشقوا عدة فتحات في قلب المدينة من جهة البحر

على أحد الجانبين ، تاركين الميناء إلى الجانب الآخر ، ثم هدموا وأزالوا كل شيء يقع في طريق هذا الشارع الواسع « ريو برانكو » .

وبينما كان أفيندا ريو برانكو يصلح من مبانيه القديمة كان غضب الناس يشتد ، فقد تكاثرت الأحجار والأتربة ، وكان الناس يتعثرون بها حين سيرهم ، فضلا عن أن السكشيين أرغموا على ترك المساكن التي يشغلونها ، وكانت المكاتب في المناطق المجاورة قليلة جداً ، ورفض بعض أصحاب أكبر مصانع المدينة أن يجلوا عن مبانيهم حتى أخرجوا منها بواسطة رجال الشرطة ، ولقد أثار هذا الناس وتزايد غضبهم ، وتطلب العمل وقتاً طويلاً فلم تسكن في المدينة سيارات للنقل ، وكانت المخلفات والانتاض تنقل محمولة على العربات التي تجرها الثيران أو على ظهور البغال ، وكانت مواد البناء تنقل بنفس هذه الوسيلة لإقامة المباني الجديدة .

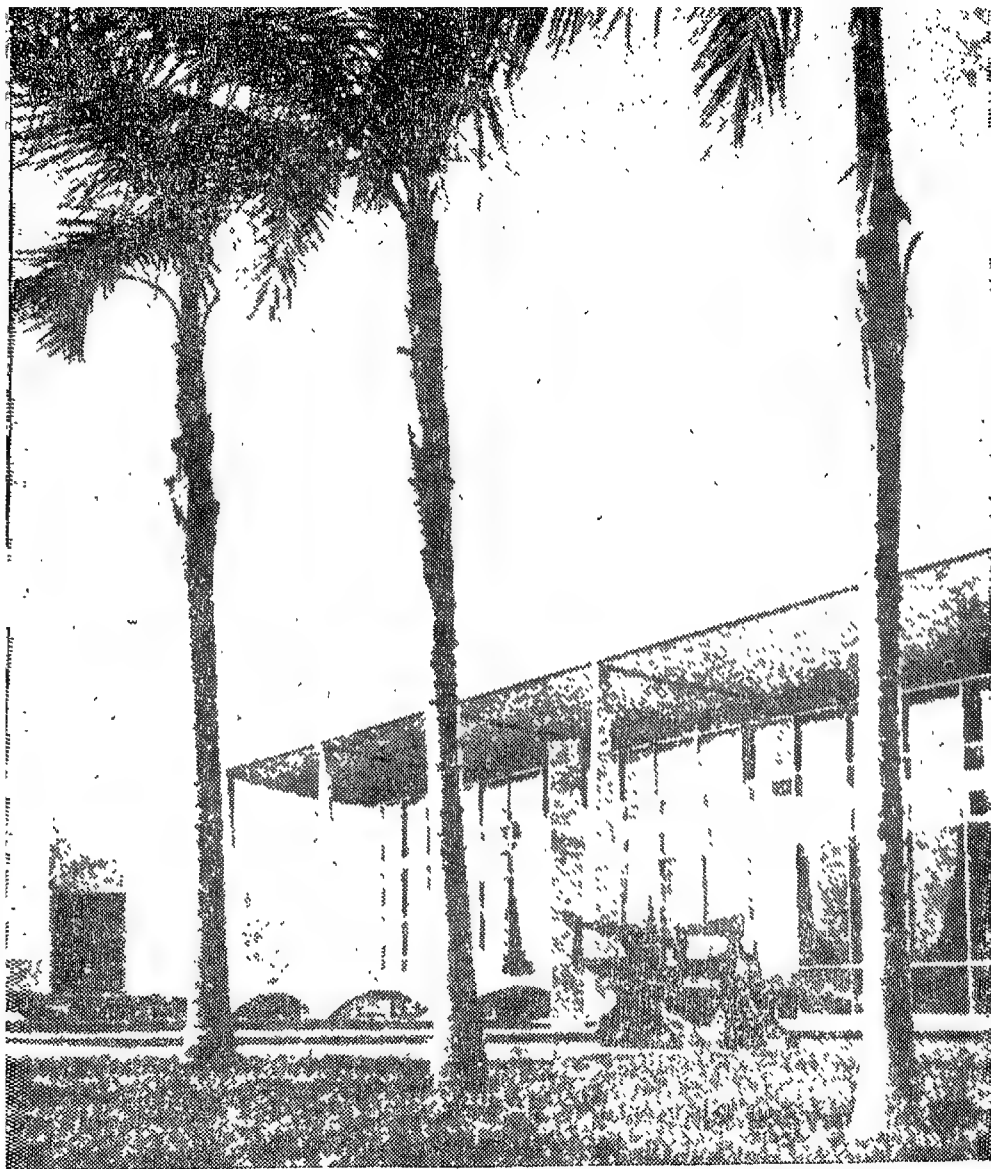
ولكن عندما انتهى كل شيء ، وبخاصة عندما حلت مكان الحوانيت البرتغالية القديمة القائمة بما كان يعلوها من غرف المكاتب بنوافذها الضيقة ، مبان جديدة جميلة ، واستمتع الناس بالمنظر الجميل ، كما استمتعوا خاصة بهواء البحر يهب من « بيرامار » ليرطب الجو في أشهر الصيف ، وأحس الناس بالزهو لهذه المباني العامة الجديدة ، مثل دار الأوبرا بزخرفها الجميل ، وهذه الدرجات المهيبة من أحجار البناء البرازيلية النفيسة ، مثل قصر العدالة ، والمسكبة الوطنية ، وقصر مونرو أو دار مجلس الشيوخ . ولقد أطلق على هذه الدار اسم مونرو رئيس جمهورية الولايات المتحدة ، وقد أقيم البناء أصلاً على أنه الجناح البرازيلي في المعرض الذي أقيم في سانت لويز

يناسبة شراء لويزيانا ، ثم نقل بعد انتهاء المعرض على طول الطريق من سانت لويز إلى ريو دي جانيرو .

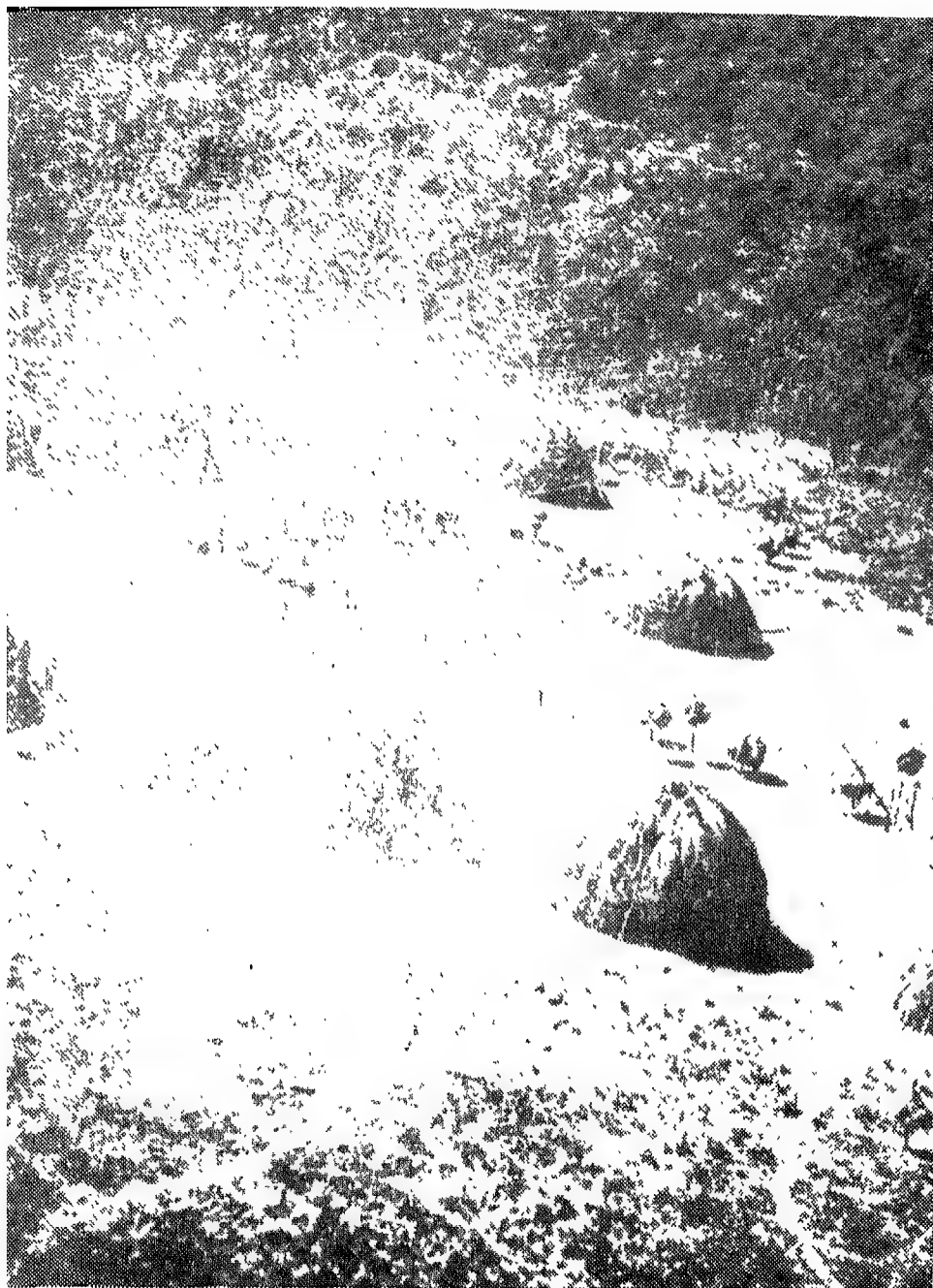
وتقام اليوم ناطحات سحاب جديدة مكان هذه الأبنية القديمة ، ولا يزال هذا القسم من المدينة واحداً من أكثر أقسام المدينة الخلابة اجتذاباً للاقباء ، واستمالة للناس ، بما فيه من حدائق ، ولמידانه الفسيح وللأفارين « الموزايك » ، وللمنظر الجميل الذى يبدو فيه الخليج عبر قنة « قمع السكر » . ثم لهذه الكثرة لدور السينما التى فيه ؛ فلقد أقيمت إلى جانب الميدان عدة دور للصور المتحركة ، وكثير من المناهى ، مع محال كبيرة تبيع الحلوى والأشربة المنعشة لرواد المسارح ودور السينما .

ويوجد فى الطرف التمسى الآخر لطريق « أفيندا ريو برانكو » الجزء المفيد من الخليج حيث ترسو السفن ، وقد أنشئت « أرصفة » حديثة تمتد طعده أسيال خصص الجزء القريب منها لسفن الركاب ، وتوجد عادة دائماً سفينة من سفن الركاب مربوطة عند طرف الميدان الفسيح فى جوار منتدى السياحة ، وترى السياح المشدوهين متجولين فى المنطقة من حوله .

وعلى متربة من هذه المنظمة كانت ريو قد بدأت قبل الحرب العالمية الثانية مغامرتها الثالثة المدهشة للإنشاء ، وذلك بإنشاء شارع « أفيندا » الرئيس جيتوليو فارغاس ، وهدمت المباني القديمة فى شارعين متوازيين من شوارع حى الأعمال قرب المرافىء ، وتكررت قصة ريو برانكو ثانية فحقد رفض أصحاب المسكاتب والمخازن أن يخلوها ، والواقع أنه كان من



برازيليا العاصمة الجديدة للبرازيل وقد افتتحت في ٢١ / ٤ / ١٩٦٠ .
وهي مدينة كثيرة الأبنية الحديثة مثل « قصر الفجر » .



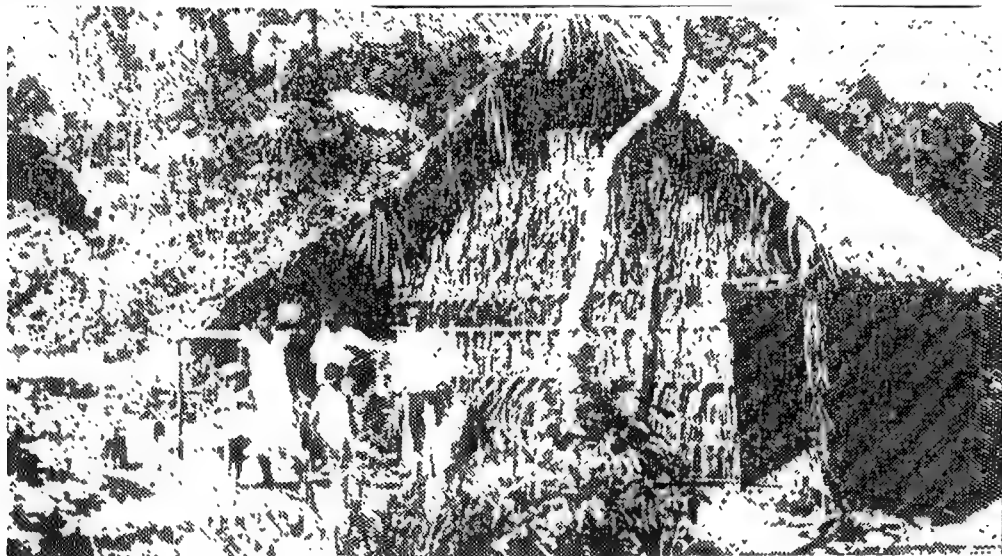
قرية هندية من الجو



النباتات الاستوائية على طول مجرى مائى فى غابات الامازون



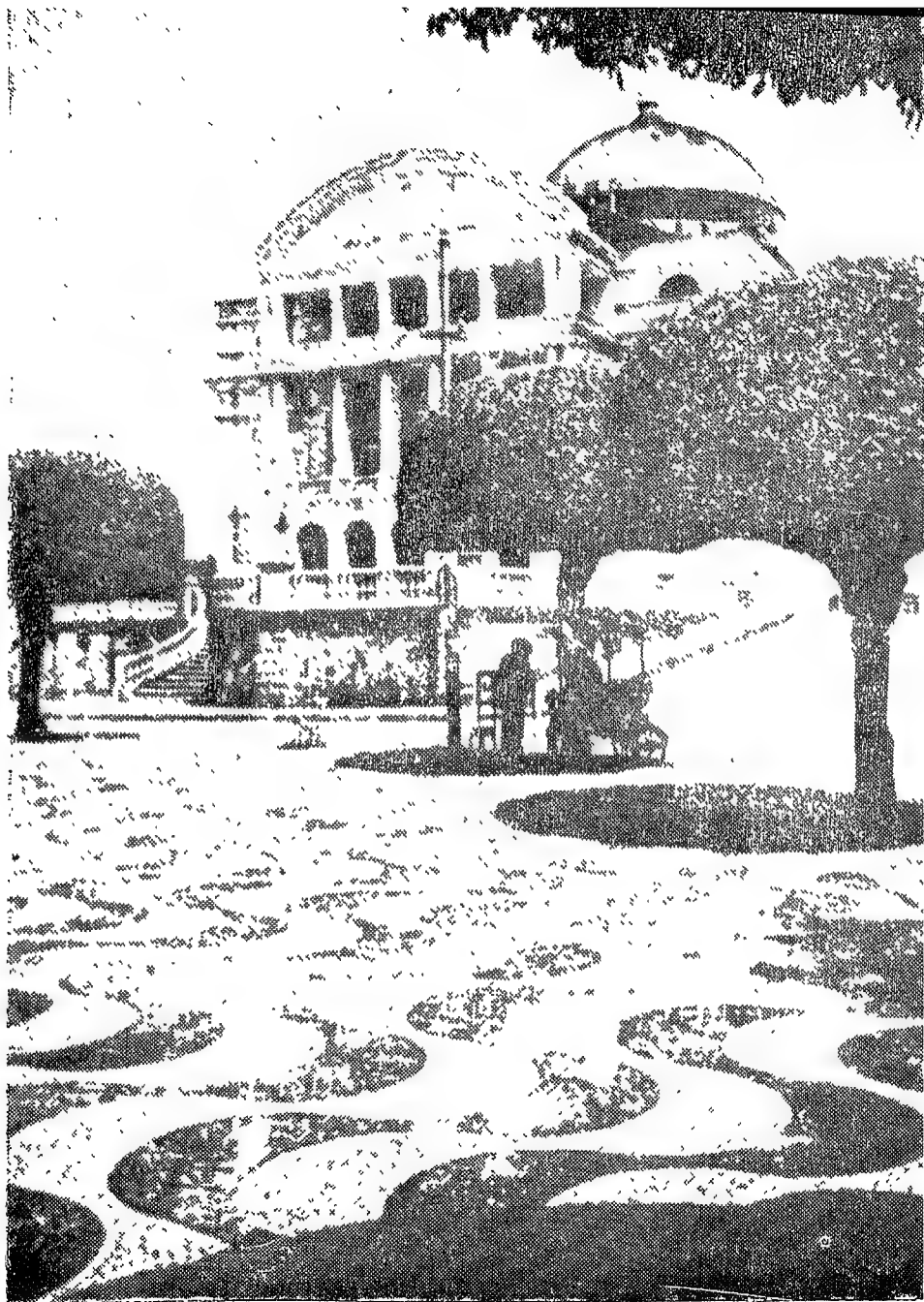
عامل من عمال المطاط يحدث شقا فى شجرة مطاط



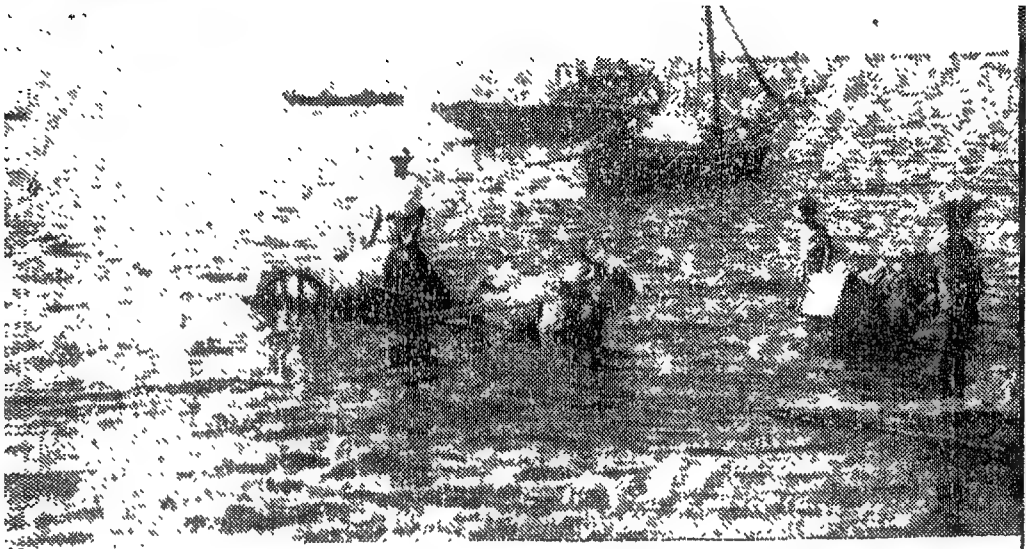
منزل من سعف النخل



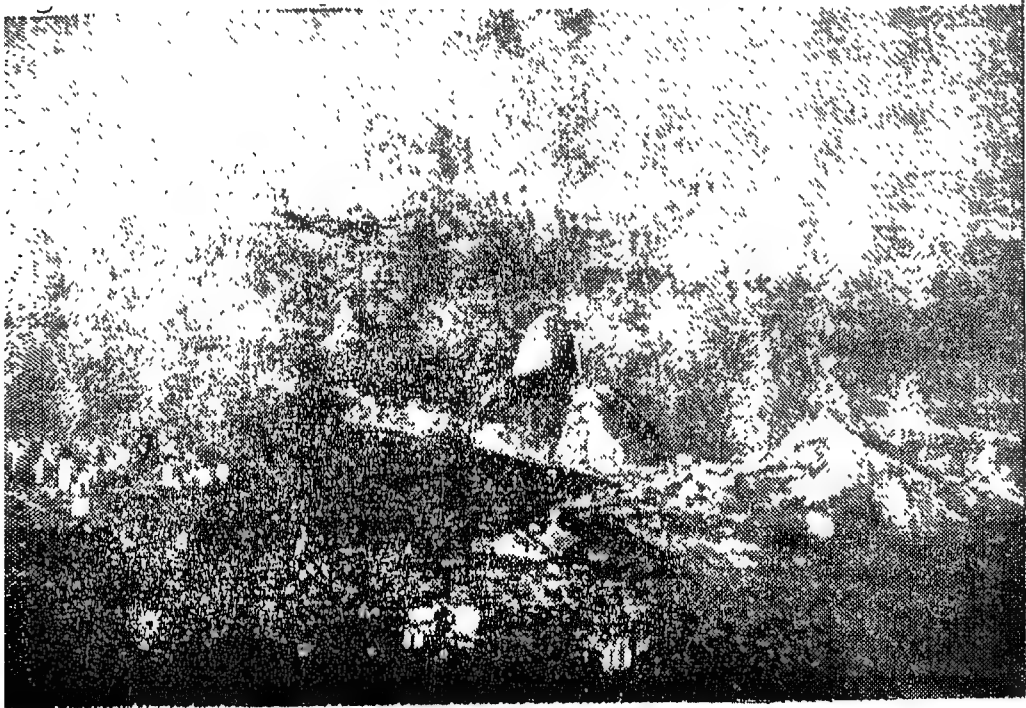
منازل في نهر الامازون أقيمت على طوالات خشبية



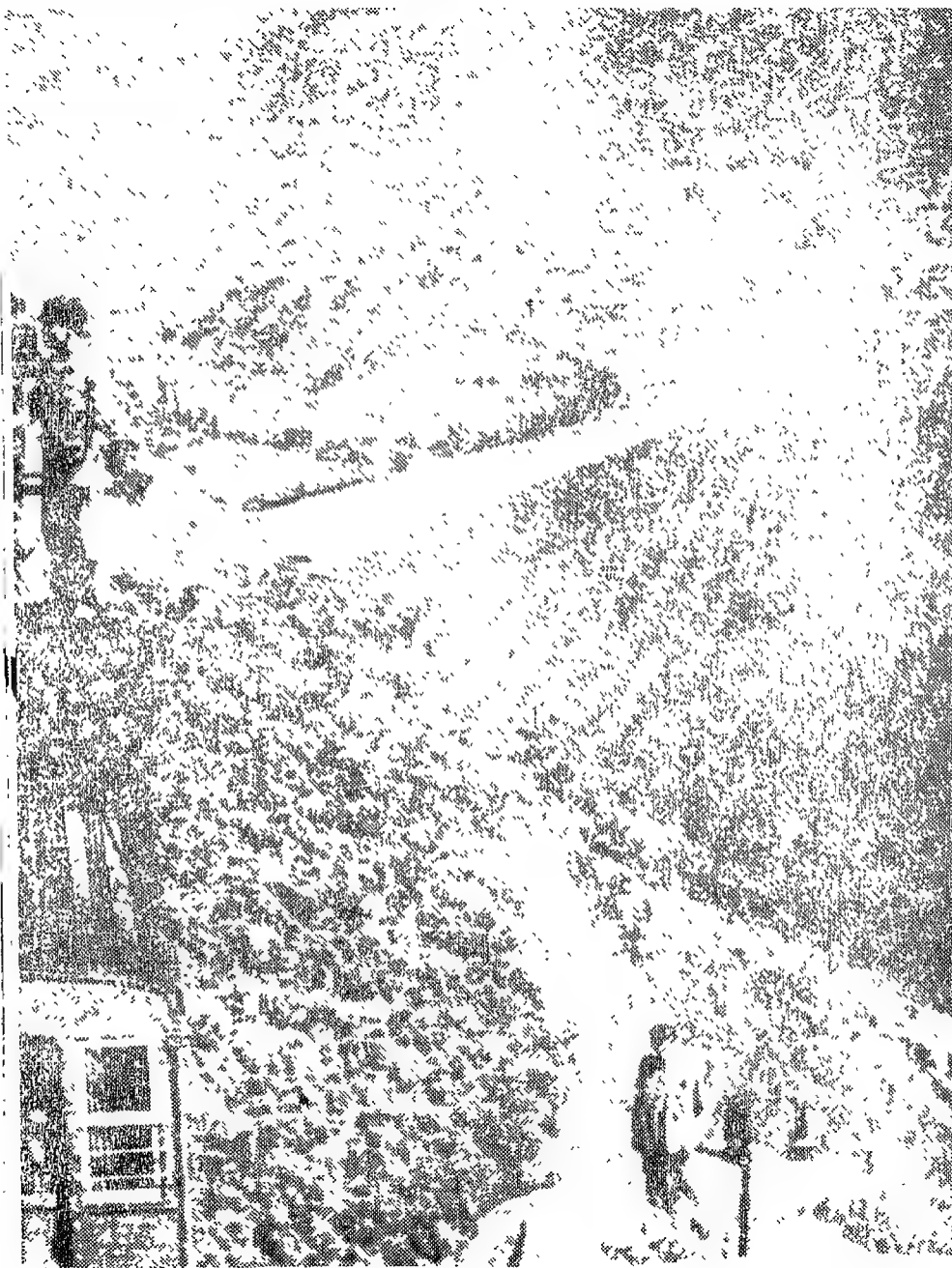
دار أوبرا ماناوس مع طوار من الموزايك



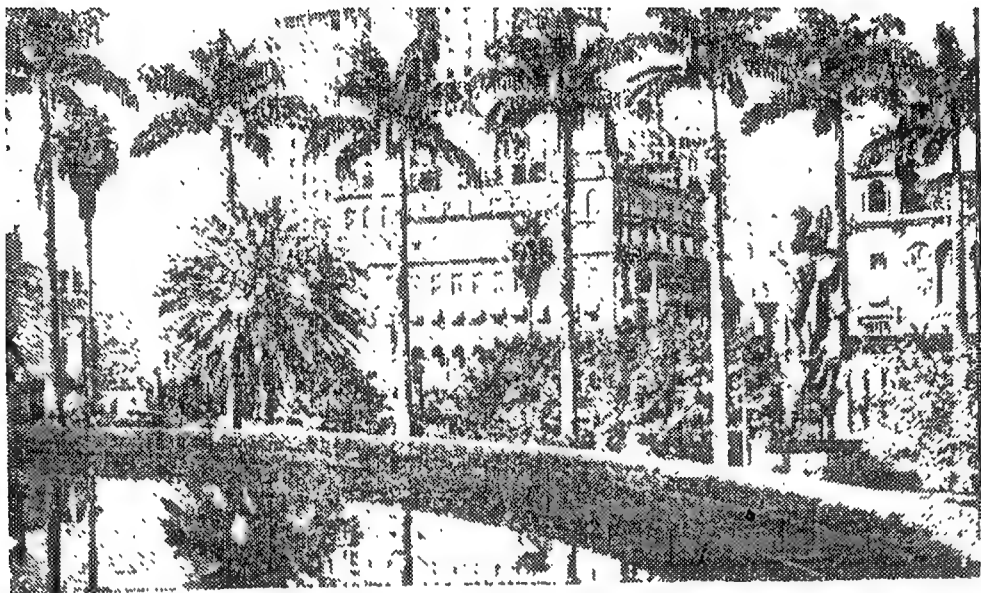
تفريغ شحنات القوارب في سنناريم



خليج جوانابارا توضح الصورة ميناء ريو وقة شوجارلوف



القطار الهوائي إلى قمة « شوجارلوف » فوق ميناء ريو



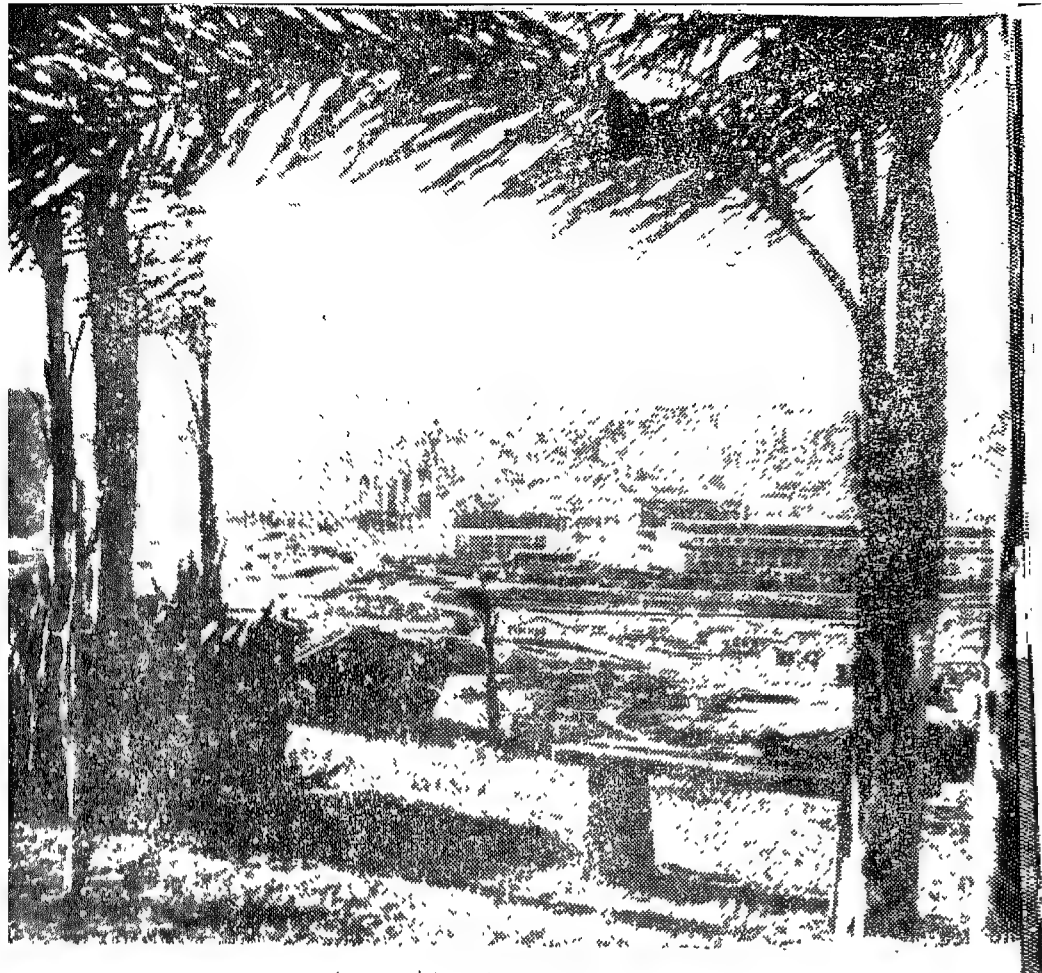
سان باولو



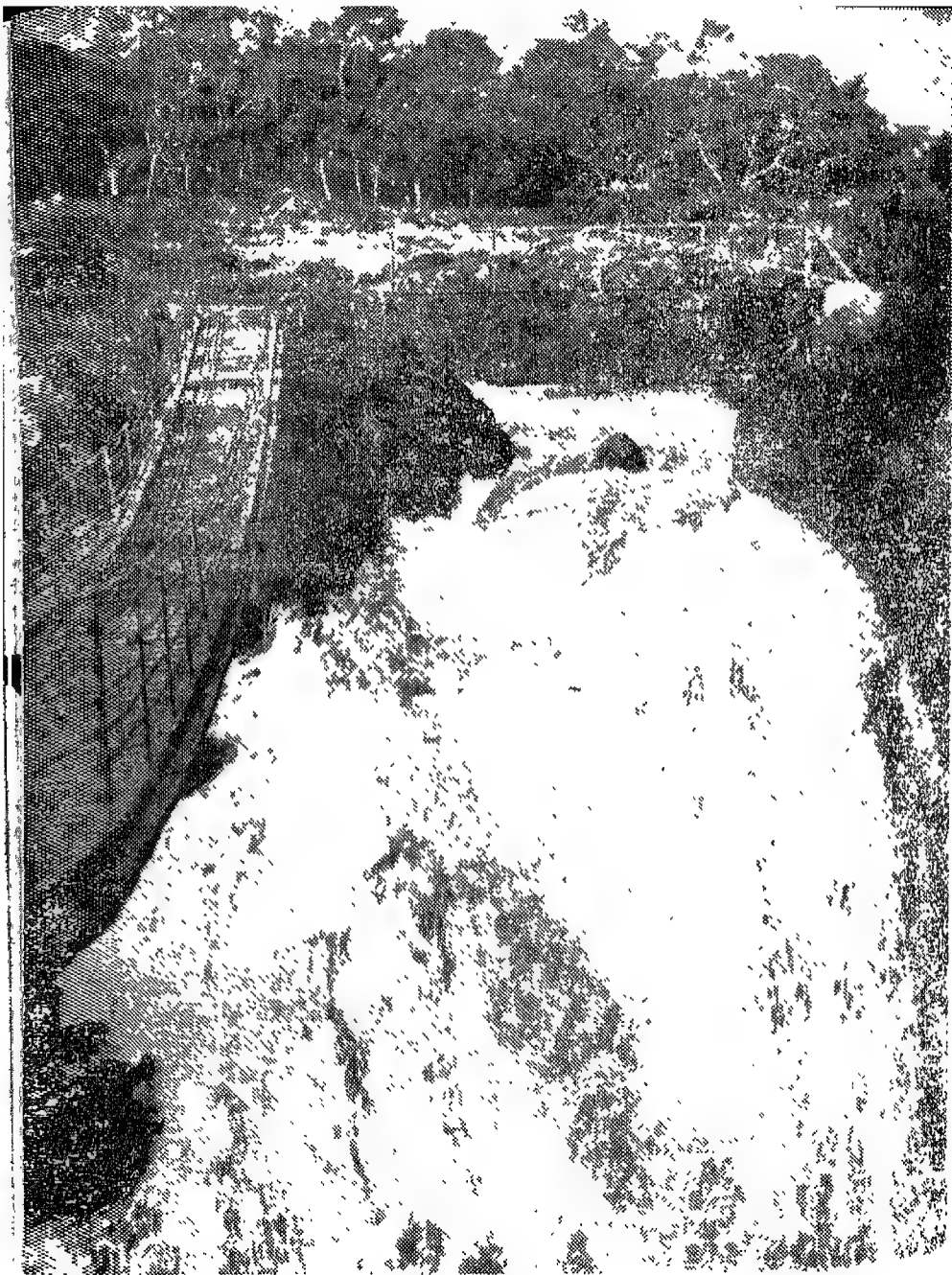
طريق قديم في باهيا



غسل الذهب في ميناس جيريس



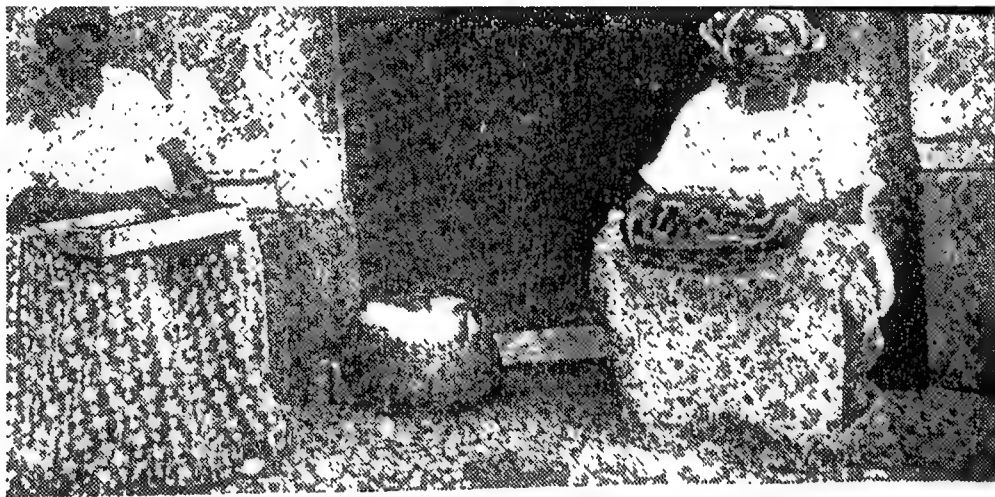
مصنع الصاب في فولنا ردوندا



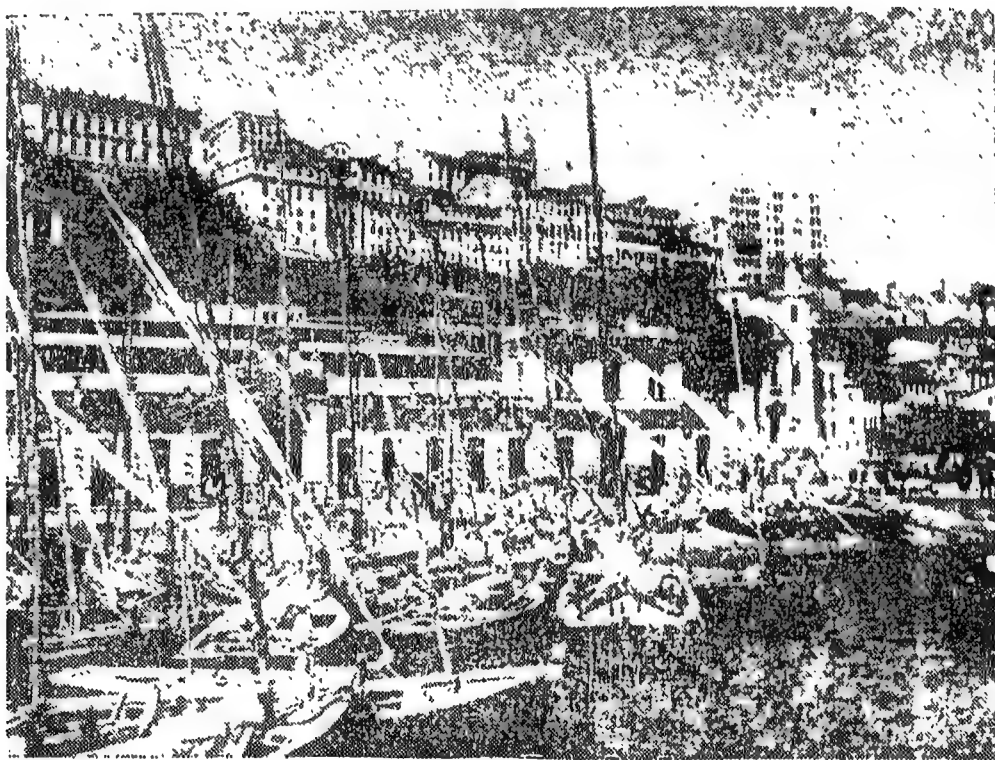
کوہری معالق فوق مساقط سیت کویداس



أشجار الموز في سانتوس بولاية سان باولو



نساء السوق في باهيا



سان سلفادور بياهيا



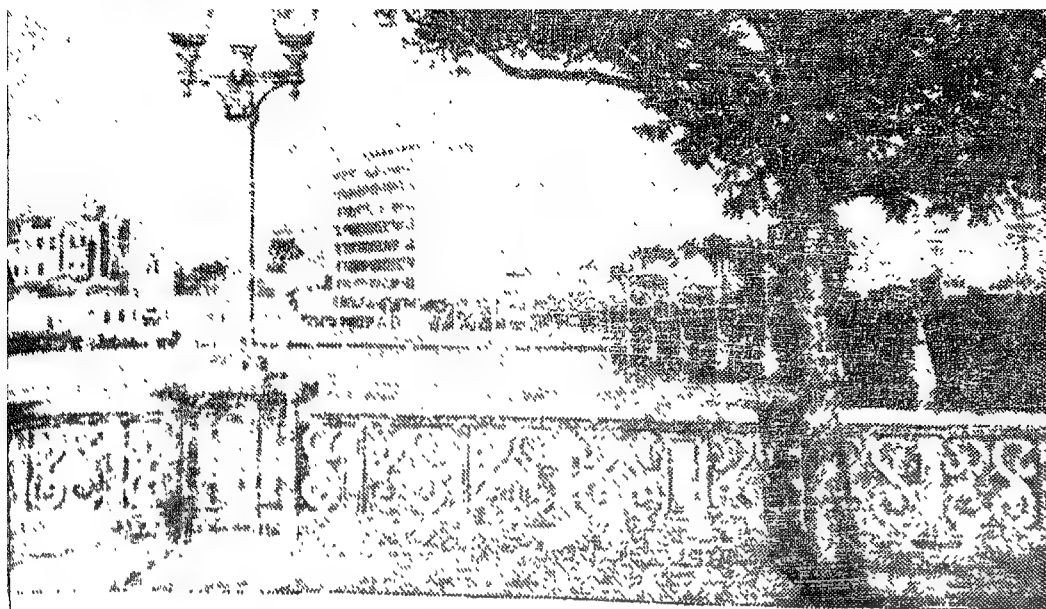
قصب السكر في برنامج بوكو



هندي جوراني من ريو جراند دوسول



كنيسة أورو بریتو



رصف « بندقية البرازيل »



تساق شجرة جوز
الهند في بارايبا

الضرورى هدم عدة مبان في وقت واحد ، ولم تسكن تتوافر المباني التي تتسع لتنتقل إليها المخازن والمكاتب التي تهدم ، ومن ثم تم بسرعة بناء بناطحات في حي القلعة « كاستيلو » وتضاعف العمل وبدأ عمال الهدم يعملهم بسرعة .

وفي أثناء هذا لم تترك احتياجات الحرب إلا أقل القليل من الغازولين ، ولم يكن من الميسور الحصول على سيارات نقل جديدة لمتابعة العمل ، فكان من الضروري إحضار العربات التي تجرها الثيران ثانية من الريف ، وعادت البغال إلى العمل في نقل الأنقاض وأحجار البناء ، فكانت الصور التي التقطت لإنشاء هذا الطريق في السنوات من ١٩٤١ إلى ١٩٤٤ تبدو كذلك للصور التي التقطت لإنشاء أفيندا ريو برانكو في سنة ١٩١٠ .

وقد احتمل البرازيليون الذين يكرهون القذارة وسوء النظام كل هذا مستهجمين عايسين ، كانوا يتسلقون أكوام الصخور ويخطون بحذر وسط حكام الأتربة في الوقت الذي تطلق فيه غلايات البخار من الطراز القديم التي تولد القوة لعمليات الإنشاء الدخان والسنج (الهباب) على أرتيتهم البيضاء الجميلة ، ويسود الدخان الرخام الذي يغطي أجمل أبنية المصارف ، وكان من الواضح أن سنوات ستمر قبل أن تستبدل كل الأبنية القديمة في أفيندا جيتوليو فارجاس بناطحات سحاب جديدة ، ولكن البرازيليين يذكرون تاريخ أفيندا ريو برانكو ، ومن ثم فإنهم لم يشكوا إلا قليلا من المشروع الجديد ، على أن الشيء نفسه يحدث ثانية في المدينة التي تحس بحمى الرغبة في إقامة الأبنية ، ولم تسبب حتى الحرب في إبطاء التشييد بدرجة

ملحوظة ، ذلك لأن ريو يجب أن تنمو صاعدة لأعلى نحو السماء بحكم أنها تقوم في منطقة مغلقة بين البحر وبين الجبال على مثال ما كان على نيويورك أن تنمو وأن تمتد على جزيرة مانهاتن الضيقة بين نهر ايست ونهر الهudson . وسببت الحرب الإسراع في نمو ريو دي جانيرو التي تعتبر اليوم واحدة من أحدث مدن العالم .

وبالإضافة إلى أن ريو دي جانيرو مركز هام للثقافة وللحياة السياسية ، فهي أيضاً مدينة صناعية ، وقد مكنتها السلم وانتهاء الحرب من استعادة حركة التجارة الخارجية الواسعة ، وبدأت الغلات تفيض من داخل البلاد لتصدر إلى الخارج ، وزادت الواردات عن طريق ميناء ريو العظيم كثيراً حتى يمكن أن توصف المدينة اليوم بأنها مزيج من واشنطن ونيويورك على قياس صغير .

ولا شك أن هذا النمو قد تعطل في وقت الحرب لنقص البنزين ولنقص السيارات وعربات السكك الحديدية على مثال ما أحست بالنقص كل البلاد الأخرى ، وكان الناس يقفون في صفوف طويلة انتظاراً للآوتوبيسات ، وكان الركاب يتعلقون بالعربات في ساعات انتهاء العمل ، كما يزدحم ركاب القاطرات حتى على درجاتها الخارجية ، وكان سكان الضواحي الذين يذهبون إلى أماكن عملهم بالقاطرات يتعلقون حتى بالقاطرة أو بعربات الفحم ليصلوا إلى محال أعمالهم ، وكان هذا كافياً لأن يفسد مزاج أى شخص ، إلا أن أهل ريو احتفظوا بما عرفوا به من لطف وبشاشة وظلوا يبتسمون للحياة كما هي .

ولإذا ما وقفت تراقب الناس وهم يمرون بك فإنك لا بد أن تتأثر بمظاهر الود التي يبديونها . فالنساء والرجال الذين يقفون في صفوف انتظاراً لسيارات الركوب قد ينزلون عن أماكنهم لامرأة تحمل طفلاً أو لشخص متقدم في السن أو للمريض ، ولا يزال الناس يتركون مقاعدهم لتجلس السيدات اللاتي يقفن في السيارات ، وهذه عادة لا يعرفها أحد في أى دولة أخرى من دول أمريكا الجنوبية ، ويتبادل الناس التحية حتى وإن لم يكونوا أصدقاء ، وهم يحيون بعضهم بعضاً بأدب إذا جاسوا على نفس منضدة المقهى ، أو إذا نقلوا مقعداً لا يجلس عليه أحد من منضدة إلى أخرى ؛ إذ تقضى العادة أو العرف باستئذان الشخص الذى يجلس إلى جوار هذا المقعد ، ولا يزالون يتبعون الكثير من قواعد الجماعات العامة الشائعة المتعارف عليها منذ أن كان أهل ريو يعرفون بعضهم بعضاً ، بل لا يزال كل فرد يبتسم تلك الابتسامة الدافئة التي عرف بها أهل ريو عند هذه الاتصالات الاجتماعية الصغيرة العارضة .

وعندما يتقابل صديقان تتحول الابتسامات إلى قهقهة عالية إظهاراً للسُرور ، ويحيي الصديقان أحدهما الآخر مظهرين سعادتهما للقاء ، ويربت كل منهما كتف الآخر ثم يمد يده لتصل إلى ظهر صديقه رابتاً ظهره ، ويطلقون على هذا « امبراسو » ؛ أى الاحتضان . وهذا هو الطابع البرازيلي للتعبير عن الصداقة والود ، ويدعو أحدهما الآخر ليتناول كوباً صغيراً من القهوة ، ثم يتجهان إلى أقرب مقهى .

ولإذا راقبنا أسرتين تتقابلان في الطريق رأينا الرجال يتعانقون

البرازيل : شعبها وأرضها

(امبراسو) ، وتقبل كل سيدة النساء الأخريات على كلا الحدين ، ويقبل الأطفال أيدي كبار السن ، ويقبل الرجال أيدي السيدات . وليس هذا كله مجرد عرف متبع ، بل إنهم يفعلونه في حرارة وبإخلاص مما يوضح أن الناس يشعرون بالسعادة فعلاً لهذا اللقاء . ولما كان كل هؤلاء يتفنون وسط الطوار « الرصيف » فإن المارة الذين يضطرون للدوران من حولهم ليتابعوا سيرهم يبدون هم أيضاً سعداء بدلاً من أن يشعروا بضيق لأن هذا الجمع يسد طريقهم ، والواقع أن الفرد بعد أن يعيش في ريو بعض الوقت ويعتاد رؤية هذا ، يبدوله أن أهل بلده الذين يلقاهم في طريقه باردو الحس جافو الطباع ، على نقيض أولئك الذين قابلهم في طرقات ريودي جانيرو .

وبالطبع يتحدث كل فرد اللغة البرتغالية ، ولكنك لا تستطيع أن تشير في وسط المدينة دون أن تسمع أناساً يتحدثون باللغتين الإنجليزية والفرنسية ، بل وربما باللغتين الإسبانية والإيطالية أيضاً ؛ ذلك لأن المدينة بأكملها دائماً بالأجانب وباللاجئين والمهاجرين الذين يجيئون ليقاموا إقامة دائمة في البرازيل ، أو بالأفراد الذين لهم نشاط تجارى دولي ، وتستطيع أن تعرف هؤلاء الغرباء من مظهرهم ومن ثيابهم ، ولكن هناك كذلك طوابع مختلفة كثيرة من البرازيليين أنفسهم في المدينة ، فالتاس يجيئون من كل من الولايات العشرين التي تكون البرازيل ، وينحدرون من سكان وفدوا من جميع الدول الأوروبية تقريباً ، كما ينحدرون من السلالات الهندية والإفريقية التي في البرازيل ذاتها ، وتتفاوت ملامحهم من الأفراد الشقرة

ذوى العيون الزرق إلى السمر الذين تبدو عيونهم في لون التظيفة السوداء .
ولما كانت اللغة الإسبانية شديدة الشبه باللغة البرتغالية في قواعدها
الأساسية فإن أغلب البرازيليين يفهمون اللغة الإسبانية ، على حين أن
الأمريكان الإسبان لا يفهمون اللغة البرتغالية بنفس الدرجة ، ويعرف
البرازيليون المتعلون لغة أجنبية واحدة على الأقل ، ولقد كانت اللغة
الفرنسية هي اللغة المفضلة فيما قبل ، ولكن الكثيرين يتعلون الآن اللغة
الإنجليزية ، وبين أهل ريودى جانيرو كثيرون يتقنون خمس لغات أجنبية ،
والواقع أنهم لما حورن في اللغات حتى إنه عندما يوجد أجنبى في حفل في
ريودى جانيرو فإنك تسمعهم ينتقلون بالحديث من لغة إلى أخرى في سهولة
ويسر بدرجة تدهش أهل أمريكا الشمالية .

وهذا التأثير العلمانى Cosmopolitan لامتزاج عدة أجناس وعدة
لغات معاً في إطار واحد يستقر في أذهان الزائرين بقوة ، ولكن إذا سئل
أحد سكان المدن البرازيلية الداخلية عن رأيه في أهم الصفات البارزة المميزة
لسكان ريودى جانيرو فالمحتمل أن يقول : اهتمامهم بمالبسهم . وسيضيف
أن أهل ريودى جانيرو من طعامهم حتى يشترروا ثياباً أفضل ، وهم يخجلون
من أن يروا في ثياب ليست على أحدث طراز ، أو أن يروا في ثياب قديمة
قد تكون جيدة مناسبة في أجزاء أخرى من البلاد وإن كان كل أهل
البرازيل يعنون بثيابهم أكثر مما يعنى أهل أمريكا الشمالية .

ولكن الذين لا يرتدون ثياباً جيدة في المدينة هم شحاذها ، وإن
كان أغلب هؤلاء يبدون دائماً نظيفي الأجسام ، لأن أى فرد يستطيع أن

تجد مكاناً له في الحمامات الشعبية ، وتبدو الثياب الغالية الثمن من النيل والكتان و « الشارك سكين » التي يرتديها المؤثرون مصقولة ، كما تبدو الثياب المصنوعة من الحرير والصوف وكأنه جىء بها لتوها من محل تنظيف الثياب ، وحتى ثياب العمل المصنوعة من القطن فإنها تبدو وكأنها خرجت لفورها من أحواض الغسيل ، وحوانيت الحلاقين ومحال التجميل للنساء مزدحة دائماً ، ويصفف الرجال شعورهم وتبدو دائماً لامعة منقطة بالدهان (البريفتين) ، وتصفف كل امرأة شعرها في طابع جميل ، وفي كل طريق تهب عليك نفحات من الروائح العطرية و « السكولونيا » من الرجال الذين يكونون قد خرجوا من فورهم من صالونات الحلاقة ، كما تواجهك هبات من عطور مركزة تتصاعد من النساء ، وقد اعتاد أهل المناطق الاستوائية الشدنى المركز لأزهارهم وعطورهم ، ويحبون استخدام الروائح العطرية ، ولقد تعلم أهل البرازيل أن يصنعوا عطورهم عندما قطعوا عن فرنسا بسبب الحرب ، وينتجون ثيابهم في مصانع النسيج البرازيلية التي لا تمتد بالسوق المحلية باحتياجاتها فحسب ، بل وتصدر هذا الإنتاج إلى بلاد أمريكا الجنوبية الأخرى . وإذا اشتريت بكرة خيط من بيرو أو إكوادور فقد ترى في سهولة أنه قد طبع عليها « صناعة برازيلية » .

ومن الأشياء التي لا بد وأن تكون قد لاحظتها كثرة عدد المقاهي على « الأرضفة » حيث يجلس الناس دائماً في الظل ، ويتزاحم الناس هناك قبل طعام الغداء وبعد الساعة الرابعة مساءً حتى إنه يصعب أن تجد منضدة خالية على طول طريق أفيندا ريو برانكو ، ومع أنه يوجد هناك عادة

قليل من النساء والأطفال إلا أن الغالبية دائماً من الرجال ، ذلك لأنهم يتلاقون لإنهاء الأعمال في هذه الأماكن الطريفة ، فيتناولون القهوة أو المشروبات المنعشة أثناء مناقشة الأعمال ، وتجد بعض المقاهي خاصة بتجار الحلى ، وأخرى خاصة بالوسطاء (السماسرة) وهكذا .

والبرازيليون لا يقبلون على المشروبات الروحية ، وهم يفضلون ما يفضلون « ريفريسكو دى كوكو » ؛ وهو شراب مخفف من لب جوز الهند المضروب مع السكر والشالج ليكون شراباً ذا رغوة ، أو يحتسون شراباً يطلقون عليه اسم « جورانا » ويصنع من فاكهة تشبه حبة البن الذى يقتصر نموه على منطقة واحدة فى الأمازون حيث يقوم الهنود المحليون بإنتاجها ويطلق عليها هناك « العين الهندية » ؛ لأن شكلها يشبه فعلاً عيون الهنود من السكان .

وتصنع الفواكه الاستوائية الخريبة فى مشروبات وتباع مثلجة كما يحدث فى ماناوس ، ولشراب الكوكا كولا شعبية فى البرازيل ، وتحبب الزجاجات هناك محلياً ، ولكن القهوة هى الشراب المفضل ، ويحتسيها الناس فى هذا القسم الأوسط من البلاد أكثر من مرة فى أثناء النهار حيث يعتبر إنتاج البن وبيعه أهم الأعمال كلها ، وتوجد عدة محال فى الطريق العام تبيع القهوة ، ولهذا المحال أبواب واسعة ليستطيع الرواد الاندفاع إلى الداخل فيتعجلوا شراء البطاقات للحصول على القهوة ، ثم يحتسوها فى أكواب صغيرة دون أن يفقدوا دقيقة واحدة فى هذا كله ، ويملا بكل فرد كوباً قفرياً بالسكر حتى نهايته قبل أن يصب فيه الشراب الساخن الذى يتصاعد

منه البخار ، ولاتقصاد الوقت ولتوفير جهد الخروج لاحتساء القهوة فإنها توزع في المكاتب في ساعات معينة ، ويبحث رجال الأعمال لإحضار القهوة إلى مكاتبهم من المقاهى القريبة للترحيب بعميل هام له قدره ، وحتى في أثناء الصعود في مصعد أى ناطحة سحاب فإن صبي المقهى ينفذ إلى المصعد الملىء بالناس حاملاً أكوابه على سفارج (صينية) ويسكب القهوة للصاعدين يحتسونها بين طبقات المبنى في صعودهم ملقين في « الصينية » بقطع من العملة الصغيرة ذات السنن والسننن ، وأكوابه الصغيرة قرنية الشكل تتسع لما يئلا ماعقتين من الملاعق الكبيرة ، وتوضع في حوامل من المعدن على مثال أكواب الصودا الصغيرة ، ويحتسى بعض الناس ما يقرب من اثني عشر كوباً صغيراً من القهوة في اليوم ، بما في هذا ما يحتسونه منها بعد وجبات الطعام وما يحتسونه قبل النوم ؛ إذ أن القهوة لا تبقى البرازيليين متيقظين ، على مثال ما تسبب لغيرهم من الناس .

وبالإضافة إلى المقاهى التى تنتشر على « الأرصفة » نشاهد محال الحلوى وهى مزيج من صالات الشاي ومحال بيع المشروبات ، وتزدحم هذه حتى تضيق بروادها في ساعات احتساء الشاي ، ولكنك لا تجد غالباً أحداً يشرب الشاي ، ولا حتى « الماتى » ، وهو الشاي البرازيلى الذى يذبت في أقصى جنوب البرازيل . بل إن أغلب ما يطلبه هؤلاء الرواد المشروبات ، و « الدندمة » المغطاة بالشراب والفاكهة والسكر من شتى ألوان الفطائر الفرنسية واللبن المضف إليه خلاصة الشعير والبن كريمة بالصودا من أجهزة أمريكية ، ولكن لا يقف الناس لاحتساؤها ، لأن كل فرد يجلس

منتظراً في صبر حتى يقدم له ما يطلبه ، ولكن في بعض هذه المحال صناديق زجاجية مسخنة توضع فيها بعض الفطائر الصغيرة المحشوة باللحم وفطائر الجبرى Shrimp Croquettes وغير هذا من الفطائر التي تختص بها البرازيل والتي يتخير الناس منها حاجتهم ويأكلونها وقوفاً أمام هذه الصناديق ، ويتناول العملاء هذه الوجبة الخفيفة إما بواسطة ملاقط خشبية رفيعة كالتى تستعمل لتنظيف الأسنان، وإما بأن يمسكوها بمذيل من الورق مما لا يضطرهم لغسل أيديهم . ويقف الناس المهندمو الثياب حول صناديق الفطائر الساخنة هذه يتحدثون إلى الأصدقاء الذين جاءوا أصلاً لتناول هذه اللقبات الشبيهة ، وهذه عادة لطيفة .

وتقع محال بيع المرطبات — كما نتوقع — في حى الأسواق الذى لا يكاد يفصله شئ عن الجزء التجارى من المدينة ، ذلك لأن وسط المدينة لا يوجد به اتساع كاف لغير ذلك . ولكى يشاهد الإنسان المحال التجارية فإن عليه أن يسير على قدميه متطعماً إلى نوافذ الحوانيت ، ولا يشق ذلك على المرء لأن اثنين من أهم الشوارع فى حى البيع بالتجزئة مخصصان للمشاة فقط وهما لا يتسعان لغير ذلك من وسائل النقل ولكنهما يكفيان للتجول الهادئ الذى يقوم به أهل المدينة متقلبين من باب إلى آخر ينظرون إلى معروضات الحوانيت وإلى البضائع المعلقة فى مداخلها مما يضىء عليها جوى أيام العطلات .

وأحد هذه المرق البهجة « روادز اوفيدور » أى شارح القاضى ، وقد جاء هذا الاسم من الأيام القديمة عندما كان الكثير من الطرق تسمى

تبعاً لأوثك الذين يعيشون بها ، ولكن يمكن أن يطلق اليوم على هذا الطريق « شارع القراء » ؛ ذلك لأن به اليوم الكثير من المكتبات وواجهات العرض المليئة بأحدث المؤلفات تغطيها أغطية لامعة تتميزها الأتربة ، ولكن أسفلها أغلفة من الورق العادي ، لأن البرازيليين يحبون أن تجلد كتبهم وفق أذواقهم الخاصة ، ونشاهد في هذه المكتبات عدداً كبيراً من هواة استطلاع المؤلفات الجديدة التي ترد إلى المكتبات كل بضعة أيام .

وسترى بينها بعض أسماء المؤلفين الذين تعرفهم وعناوين الكتب التي تذكرها ؛ ذلك لأن الكثير من المؤلفات الناجحة التي تصدر في أمريكا الشمالية تترجم اليوم إلى اللغة البرتغالية ، كما أن من بينها الكثير من الكتب الفنية والعلمية ، لأن البرازيليين يتوقون إلى معرفة مايجرى في العالم خارج وطنهم الكبير الشاسع المساحة .

وفي هذا الشارع متاجر لا تباع سوى الحرير ، وأخرى تتخصص في الجوارب فقط ، وهذا أحداً الأشياء العجيبة في التسويق والابتاع في ريو ، فلا يوجد متجر واحد في المدينة يبيع مختلف السلع ، بل إن لكل نوع المحل الخاص الذي يبيعه دون غيره ، فمتجر المظلات لا يبيع غير المظلات بل وحتى هناك محال تتخصص في بيع المناديل وحدها ، ويعرض الكثير من متاجر الحلى في شارع أوفيدور . منتجات عجيبة مذهشة من مناجم الماس في البرازيل ، من العقيق النادر ومن « الأكوامارين » الأصداف الحجرية ، ومن الياقوت الأصفر الذهبي .

وتعرض حوانيت الهدايا حلياً مصنوعة على شكل فراشات ذات

أجسحة زرقاء ، ومصنوعات جلدية من جلود الأفاعى والتماسيح ، وصوانى وصناديق من الخشب الوطنى الفاخر الذى يعتبر خشب صنوبر بارانا المنقوط أفضلهما .

ويطلق على الشارع الآخر الذى يستخدمه المارة المترجلون وحدهم اسم شاعر معروف هو جونسالفيس دياس الذى يحب الجميع أشعاره ، مع أنه قد عاش فى ريو منذ سنوات طوال يكتب ويعلم الطلاب فى المدارس عندما كانت البرازيل لا تزال امبراطورية . وتوجد سوق الأزهار الجميلة فى أحد طرفيه وتعرض فى واجهات متاجر الأزهار كل الأشياء الأنيقة .

وستلاحظ فى تجوالك وجود حرائيت تبيع ثياب النساء وأخرى للملابس الأطفال ، والبعض للملابس الرجال فقط ، وتستوقفك الأزهار الخلابة الزاهية فى المحال المخصصة لبيعها ، كما تشاهد فاكهة المناطق الاستوائية المجففة فى محال البقالة الراقية ، إلى جانب الأوعية الزجاجية التى تحتوى على شتى أنواع الفواكه من حوض الأمازون ، أو من مناطق أخرى بعيدة من هذه البلاد الفسيحة . وسوف يلفت نظرك كثرة المحال التى تبيع العطور وأدوات التجميل التى تتألف واجهات عرضها بزجاجات أنيقة . وستدهشك مخازن الأدوية والعقاقير هى الأخرى ، وما يوجد منها فى وسط المدينة يتصف بالضخامة ، وهى تمتلئ بالعملاء الذين يتراصون فى صفين أو ثلاثة خلف موائد العرض منتظرين دورهم لشراء حاجتهم من الأدوية ، لأن هذه المحال ليست سوى صيدليات لا تبيع المرطبات أو أى سلع أخرى غير الدواء .

وينزل الشعور بالغربة عند الزوار الأمريكيين عندما يقع بصرهم على « لوخا أميريكانا » — أى « المتجر الأمريكى » — وهو مايقابل محال « الخمسة والعشرة سنتات » فى الولايات المتحدة . وقد أسس هذه المتاجر الرخيصة مواطن من أمريكا الشمالية — وقد ترتفع فيها الأسعار إلى دولار أو أكثر . وتبدو واجهات العرض والأقسام الداخلية وأماكن بيع المرطبات و « السجق » فى الطابع الأمريكى بالرغم من أن الفتيات اللاتي يقدمن لك ماتطلبه لايعرفن كلمة واحدة من اللغة الانجليزية .

وتقع السوق المركزية للواد الغذائية قرب الميناء ، ويمكنك إذا شاهدتها أن تعرف ماذا يأكل أهل ريو . وبعض المطاعم التى تتمتع فى هذه المنطقة قديمة العهد ، وهى توجد بالقرب من ميدان « ١٥ نوفمبر » وهو تاريخ تأسيس الجمهورية .

ويضم هذا الجزء القديم من المدينة عدداً من الكنائس البديعة والمباني ذات الطراز البرتغالى التى تعود إلى عصور ماضية . ويقع قصر تيرادنتيس — وهو الاسم الذى يطلق على مجلس النواب — على مقربة من هذا الحى . ويقوم أمام هذا البناء تمثال برونزى ضخم لتيرادنتيس (مقتلع الضرس) الذى أعدم فى هذه البقعة عام ١٧٩٢ لتزعجه حركة كانت تستهدف استقلال البرازيل عن البرتغال . وفى الفترة التى رزحت فيها البرازيل تحت حكم فاشى أغلق هذا المجلس كما أغلق مجلس الشيوخ ؛ لأن الرئيس الديكتاتورى كان يشيع جميع القوانين بنفسه كما يتراءى له . وكان تمثال تيرادنتيس يبدى كأنه ينظر محزوناً لهذا الانتهاك الجديد للحريات التى مات فى سبيلها . ولكن كلمة

استعداد البرازيليون حتمهم في وضع القوانين التي يعيشون في ظلها تتغير ملامح التمثال وتعود إليه السكينة .

وتتدفق جموع الناس باستمرار في جميع شوارع هذا الحى من المدينة في طريقهم إلى المبيعات المزدهمة التي تعبر خليج جونا بارا الفسيح ، وتوجه هذه السفن إلى نيتروى Niteroi توأم ريو التي تبعد عنها بحوالى عشرين دقيقة ، ونيتروى عاصمة ولاية ريو دى جانيرو وتضم أحياء تجارية وصناعية خاصة بها ، وهى مدينة منفصلة تماماً عن ريو دى جانيرو عاصمة البرازيل السابقة التي كانت تقع في إقليم فيدرالى ، تشبه في ذلك واشنطن التي تقع في « إقليم كولومبيا » . ولمدينة نيتروى علاقات وثيقة بريو دى جانيرو على غرار ما بين جيرسى سى ونيويورك .

وتتألاً أضواء نيتروى في الليل في شكل أقواس يتميز بها خليج ريو ، وتبدو هذه الأضواء وكأنها تنفذ من واجهة عرض ضخمة لمتجر حلى اكتظت بالعقود الماسية والأساور ومشابك الزينة .

ومن الطبيعى أن يوجد في مدينة أنشئت منذ أربعائة سنة ويسكنها حالياً ما يربو على ثلاثة ملايين ونصف مليون من السكان الكثير من الأماكن التي يجب مشاهدتها ، وهى فعلاً من الكثرة بحيث يتعذر على الإنسان أن يخصص لها من الوقت ما يكفي لإشباع نفسه منها . فهناك متاحف للتاريخ والفن وللتاريخ الطبيعى ، وفيها مجموعات رائعة من الفن الهندى توضح كيف تطورت البرازيل ، كما تاقى ضرواً على ما تتكون منه البلاد بطريقة

أقوى تأثيراً من تصفح الكتب . وهناك مكاتب ومبان عامة لكل منها طابع خاص يشير اهتمام المشاهد ، وترجع بعض الكنائس الكاثوليكية إلى الأيام الأولى للإرساليات البرتغالية ، وهي تختبئ على كنوز ثمينة من الرسوم الزيتية والخشب المحفور والفضة ومن الثياب الكهنوتية والحلى ، وهذه الكنائس مفتوحة الأبواب على الدوام ولا تخلو من بعض الناس فى أى وقت حتى فى الأوقات التى لا تقام فيها الصلوات . ومع أنه توجد جماعات كبيرة من البروتستانت إلا أن أغلب البرازيليين من الكاثوليك وهم متدينون إلى حد بعيد .

ويوجد حتى فى الحدائق العامة والميادين ما يستحق المشاهدة ، فهناك النافورات والبحيرات الصناعية والقنوات والجسور « السكارى » الزخرفية وتمثال الأبطال البرازيليين ومجموعات من النباتات والحيوانات من المناطق الحارة ، ولكل هذه الأشياء جاذبيتها الخاصة .

وحديقة پاسيويو بيلسكو هى إحدى الحدائق القديمة الساحرة ، ويعنى اسمها (المتنزه العام) ، وتواجه هذه الحديقة الخليج فى جوار قصر مونرو ، وكانت فى الأصل مستنقعا يضاء ليلاً بشمعة واحدة فى مشكاة دير ، كما كان يعلق مصباح يشعل بالزيت ، أعلى باب منزل مجاور ، ولكن منذ مائة عام جفف المستنقع وغرست أشجار ضخمة هى التى تحمل الحديقة اليوم ، ويتجول جمع غفير من الناس فى طرق الحديقة فى ظلال الأشجار نهائياً وليلاً ، ولا يوجد اليوم ما يسجل ماضيها كمستنقع إلا الاسم الذى يطلق على طريق عام قصير يسمى « روديس ماريكوس » ، أى شارع البط البرى .

ويؤدى المتنزه إلى « أفيبدا بيرامير » أى طريق السكرينيش ، وتحف به المتنزهات التى توجد بها النافورات الملونة والسيجات النباتية التى شذبت فى أشكال حيوانات مثل الجمال والفيلة والأسود وغيرها .

ولعل أجمل حدائق ريو هى الحديقة النباتية التى تقع على السنبوح الدنيا لجبل « جافى » . ويتكون مدخل هذه الحديقة من صفين من أشجار النخيل الملكية القديمة التى استمدت منها البذور لغرس النخيل الشاهق. الارتفاع الذى تشاهده فى جميع أنحاء المدينة. ولتبدأ إنشاء هذه الحديقة الملك يوحنا ملك البرتغال عندما حكم البرازيل . وتشتمل هذه الحديقة على أكثر من مائة فدان من الأشجار والنباتات النادرة ، منها حديقة جلبت من الأمازون من الأقاليم التى مررت فوقها بالطائرة فى طريقك إلى ريو .

وفى الطرف الآخر من المدينة حديقة « كواتادا بوفيسستا » أى حديقة. المنظر الجميل ، وهى ضخمة المساحة ، وكانت أصلاً حديقة خاصة شيد فى وسطها قصر الملك يوحنا، واطرد نموها فى أثناء حكم ابنه الإمبراطور دوم بيدرو الأول ، ثم حفيده الإمبراطور دوم بيدرو الثانى ، وهى متنزه رومانسى جميل ، ولقد حول قصر الأباطرة إلى متحف قومى ، وتضم هذه المساحة حديقة حيوان تخصص فى الحيوانات والطيور البرية العديدة. التى توجد فى البرازيل .

ويؤم هذه الحدائق جموع كبيرة من البرازيليين فى أيام الأحد بغية النزهة بالرغم من أن حماسة السكان الحقيقية تتجه إلى مباريات كرة القدم التى تقام أيام الأحد . وتشبه فرق كرة القدم التى تشترك فى مباريات

البطولة القومية أو بطولة أمريكا الجنوبية — تشبه فرق دورى البيسبول فى الولايات المتحدة . ويتمتع مشاهير اللاعبين بشعبية تجعل منهم أبطالاً حقيقيين . وتمتلئ الملاعب الضخمة بمئات الآلاف من المشاهدين ، أو يقبع الناس فى بيوتهم فى أثناء المباريات يتبعون تفاصيل سيرها على أجهزة الراديو أو التليفزيون . ويكاد كل طفل يبدأ تدريبه على لعب الكرة بمجرد تعلمه السير ، وتستخدم لذلك كرات التنس أو البرتقال . ويأمل كل منهم أن يصبح بطلاً فى يوم من الأيام . وقلما يقيم الوافدون من أمريكا الشمالية مدة كافية فى البرازيل لتستهوهم لعبة كرة القدم بالطريقة التى تمارس بها هناك والتى تختلف عن كرة القدم الأمريكية . وإذا استثنينا سباق الخيل فإن أنواع الرياضة القومية الأخرى تعتبر أقل جاذبية للزائر الأجنبي من صعود جبل « شوجرلوف » (قمع السكر) تلك الصخرة العارية التى ترتفع ألفاً ومائتى قدم من سطح الماء فى الخابج . ويذهب الركاب إلى قمة هذا الجبل فى عربات تتدل من سلك غليظ وتسمح بهم فى الهواء فيجدون أنفسهم على التمة المدببة لتلك الجزيرة الصخرية التى نحتتها الطبيعة فى شكل قمع السكر . ومنظر ريو من هذه البتعة منظر أخاذ ولكنه أقل روعة من المنظر الذى يشاهد من قمة كوركوفاد والتى تبلغ ضعف ارتفاع قمع السكر . وتستخدم السيارات العامة للوصول إلى هذه التمة فتصعد بركابها طريقاً طويلاً تحف به الغابات الجميلة ليهبطوا من تلك السيارات فوق هذا « الأحب » .

ومن أماكن النزهة الأخرى المفضلة تلك الجزر الجميلة المنتشرة

في الخليج بنخلها وخضرتها أو المصايف في جبال أورجان ذات القمم المدببة التي ترسم خطأ مضرساً في السماء يوحى منظرها بآلة أرغن ضخمة بها فيها من أنابيب . وأهم هذه المصايف الجبلية هي مدينة بيتروبوليس العاصمة الصيفية التي أسسها دوم بيدرو الثاني عندما كانت ريو دي جانيرو مكاناً غير صحي للإقامة في فصل الصيف . وتشتهر بيتروبوليس بمنظرها البديعة وأزهارها الجميلة ، ولكنها بالإضافة إلى ذلك مدينة صناعية هامة تسكثر فيها مصانع النسيج التي تدار بالتقوى المائية . وتنتقل الحكومة إلى هذه المدينة في أشهر الصيف كما تزدهم بالمصيفين الذين ينتشرون في شوارعها التي تزدان جوانبها بالأزهار أو في الطرقات التي تحترق غاباتها . ويخيل إليك أن كل فرد يمارس إحدى الألعاب كالتنس أو تنس الطاولة أو الجولف أو الغطس في حمامات السباحة من ارتفاعات مختلفة . ويملك أثرياء ريو منازل في هذه المدينة لا يقيمون فيها إلا أربعة أشهر من ديسمبر إلى مارس وهي أشد الشهور حرارة . وهناك كثير من الفنادق القديمة و « البنسيونات » ، ولكن هناك فندقاً عظيماً هو فندق « كويتاندينا Quitandinha » وهو من أكبر وأفخم فنادق أمريكا الجنوبية ، ويتمتع فيه السياح من كل مكان بمسبحه المغطى « حوض السباحة » وبضروب الرياضة المختلفة في الهواء الطلق .

أما مدينة تيريزوبوليس Theresopolis فهي مصيف صغير تملأه الأزهار ويربطه بمدينة بيتروبوليس طريق جبلي ساحر كما يخدمها خط حديدي من نيتروى توأم ريو عبر الخليج .

وتتعدد ألوان الألعاب الرياضية في ريو دي جانيرو ، ويستطيع شباب

المدينة أن يسهموا فيها أو أن يشاهدوها ، وتتضمن هذه مباريات مائية ، وسباق اليخوت ، والسباحة والغطس وسباق الخيل وتسلق الجبال ، هذه فضلا عن الزهات الخلوية والرقص في المنتديات الخاصة كما تسكثر دوز السيئا والمسارح والفرق الموسيقية الساحرة ، ويحب أهل ريو الموسيقى الجيدة ، ويقدم المالحنون والموسيقيون البرازيليون برامج ترويحوية مستمرة رائعة بل لا يوجد عازفون على البيان أفضل من البرازيليين ، كما أن ريو تجتذب دائماً ذوى المواهب من خارج البلاد للحماسة الكبيرة وللتشجيع المنقطع النظير الذى يبدية البرازيليون ، فى ترحيهم بالفرق الأجنبية ، وتجيء فرق الأوبرا لإحياء موسم قصير فى دار أوبرا البلدية الجميلة .

ويستطيع كل فرد عندما لا يجد ما يشغله أن يذهب إلى شاطئ البحر للسباحة وللاستمتاع بالماء ، وفى البرازيل قانون قديم يجعل الشاطئ ملكاً عاماً للجماهير ، فلا يسمح لأى فرد بتملك أرض على الشاطئ ، كما لا يسمح بإقامة أى بناء إلى مدى محدد منه ، وهكذا تتوافر أميال على شاطئ البحر تخصص للسباحة والاستحمام ، كما توجد بعض المناطق الرملية الفسيحة يقصدها الناس على طول العام عندما يريدون ، وتقضى فيها الأسر أيام العطلات حتى لأنهم لا يعودون إلى دورهم إلا لتناول الطعام وللنوم .

ويلعبون هناك كرة اليد وكرة القدم والريشة الطائرة ، بينما يقضى الأطفال الوقت يبتون القلاع من الرمل ويتعلمون السباحة والغطس قبل أن يتعلموا المشى ، وتكتسب بشرات الجميع سمرة خفيفة بتأثير أشعة الشمس حتى يبدوا كالهنود وإن لم تكن فيهم أى دماء هندية .

ويستطيع الفرد أن يطيل إقامته في ريو دي جانيرو ماشاء مستمتعاً
بوقت طيب ، ولا تشبه هذه المدينة أى مكان آخر في العالم ، ففيها جمال
وسحر وعمل ومرح ، ثقافة وأنس ورقة ، فيها كل ما هو برازيلي خالص
الطابع .

ولكن توجد أماكن أخرى في هذا الإقليم الساحلي المزدهم السكان
لها هي الأخرى جمالها في طابع خاص ، ومن ثم فإننا يجب أن نبدأ رحلتنا
إلى الولاية المجاورة ميناس جرايس (ومعناها المناجم العامة) التي يؤتى
منها بالماس ، وعاصمتها بلو هوريزونتي ، أى الألف الجبل .

ميناس جيرايس

يطلق سكان ولاية ميناس جيرايس على أنفسهم اسم مينيروس Mineiros ؛ أى عمال المناجم ، سواء أكانت مهنتهم الطب أم المحاماة أم الفلاحة أم كانوا عمال مناجم حقيقيين . وهم يفاخرون بعاصمة ولايتهم أعظم الفخر ، فهى مدينة خططها الإنسان ، يحلوهم مقارنتها بواشنطن . فقد وضع تصميمها أولاً على الورق وبدىء باختيار موقع جميل لها على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم . وهذا الارتفاع فى المناطق المدارية يعطى مناخاً لطيفاً . وكان التصميم يقضى بإنشاء مدينة حدائق (جاردن سيتى) على أكمل طراز . وبالفعل لم تبدأ أى عملية من عمليات البناء إلا بعد سنوات طويلة من التفكير والتخطيط .

وعندما تقلع بك الطائرة من العاصمة تتخذ اتجاهاً شمالياً وتعبّر جزءاً من ولاية ريو دى جانيرو وتصل بك إلى عاصمة ميناس جيرايس فى ساعة . وتطير الطائرة نصف رحلتها فوق أول طريق عام طويل أنشئ فى البرازيل — وهو أهم مشروع تدين له ولاية ميناس جيرايس بتطورها وتنميتها . وتراه اليوم وهو يعج بسيارات الركوب الخاصة والعامة وبالشاحنات التى تنقل حاصلات هذه الولاية العديدة من مواد غذائية إلى منسوجات . وقد حلت هذه الشاحنات والسيارات محل المسافرين القدماء الذين كانوا يمتطون الجياد أو يركبون العربات التى تجرها الخيل ومحل البغال التى كانت

تحمل بالذهب والبن ؛ وهى السلع التى من أجلها أمر دوم بيدرو الثانى بإنشاء هذا الطريق من نحو مائة عام . وتشاهد فى رحلتك الجوية بعضاً من أغنى الحقول والمراعى ومزارع البن، كما تشاهد كثيراً من المدن الصغيرة المزدهرة ومدينة جويرى دى فورا Juiz de Fora (قاضى الحدود) ، وهى مدينة صناعية كانت فيما مضى نهاية هذا الطريق ، ولسكنها الآن مدينة كبيرة نوعاً تضم مصانع كثيرة للنسيج .

وعندما تهبط بك الطائرة فى بلو هوريزونتي تشاهد دائرة التلال التى تصفى جمالا على غروب الشمس ، ومن ثم سميت المدينة بالأفق الجليل . وسترى أيضاً كيف خططت المدينة التى تمتد شوارعها من مركزين كل منهما دائرى، يشغل أحدهما ميدان مبنى البلدية ويشغل الآخر حديقة قصر الحاكم . ويبلغ اتساع هذه الطرق مائة قدم مما يسمح باستيعاب نمو حركة المرور فى المستقبل ، وقد غرست الأشجار على جانبي كل طريق ، وهناك أكثر من مائة ميدان ومنتزه صغير . وتخرج من المدينة طرق متسعة إلى المناطق الصناعية ، ويحيط بها طريق دائرى ، ولكن المنظر الذى سيبلغت نظرك أكثر من غيره هو منظر مبنى حديث الطراز تنعكس صورته من سطح بحيرة خاصة به . وهذا المبنى هو معرض دائم تعرض فيه عينات من كل شئ تلتجه الولاية ، وبخاصة المعادن القيمة والأحجار الكريمة .

وبالإضافة إلى المعرض الدائم تعقد سوق سنوية فى منطقة فسيحة للمعرض ، ومن أهم معالم هذه السوق معرض الماشية التى يؤتى بها من المزارع والمراعى التى تتخصص فى تربيتها ؛ ذلك لأن ميناس جرايس وإن كان

لها مكان الصدارة في إنتاج المعادن تحتل المركز الثاني بعد ريو جراند دوسول في الماشية التي تربى للذبح ولحلب اللبن فضلا عن الخيول والخنازير ، وخاصة السلالات الوطنية من البقر المسنم Zebu ومن عجول براهما Brahma steers والتي تعرف باسم العجول البرازيلية الهندية ، إذ جاءت أصولها من شرق الهند ، ولها سنام كبير فوق كتفها ، وللذكور عيون رقيقة معبرة وجلد مترهل متهدل ، وآذان متدلية على مثال ما تصورهما رسوم وولت ديزنى .

وبالرغم مما تتصف به بيللو هوريزونتي من أناقة وجمال فإن السياح الذين ينفدون إليها من أمريكا الشمالية لا يطيلون إقامتهم فيها لأن هناك بالقرب منها عدة مدن تعدين تاريخية تستحق الزيارة ، أهمها عاصمة الولاية السابقة أورو بريتو Ouro Preto ، أى الذهب الأسود ، ويمكن الوصول إليها بالسيارات العامة .

وقد حولت مدينة أورو بريتو بأكملها إلى تذكار قويم كما حولت الأراضى المحيطة بها إلى حديقة قومية ولم يغير بها شيء منذ أيام الاستعمار . وهى عزيزة جداً لدى البرازيليين الوطنيين بوصفها المسكان الذى انبعشت منه حركات الكفاح الأولى للبطالة بالحرية والاستقلال . ولعلها من هذه الوجهة تشبه وليامزبرج فى ولاية فرجينيا التى أعيدت إلى حالتها الأصيلة التى كانت عليها أيام حرب استقلال الولايات المتحدة . فكما أن وليامزبرج تزخر بذكريات واشنطون وجيفرسون وباتريك هنرى ، فإن أورو بريتو تحتفظ بروح الأبطال الأوائل وبخاصة تيرادينتيس . وهو طبيب الأسنان

البطل الذى جراً على تحدى البرتغال وإثارة شعور الشعب للحصول على الاستقلال .

وكان تيرادينيس — بعد أن انتصرت الولايات المتحدة فى حرب الثورة — يحمل فى جيبه أينما سار نسخة من دستور الولايات المتحدة ، يقرأ صفحاته لكل من ينصت له ، وتجمع من حوله الكثيرون من المعدنين ولكنه فشل فى القتال برغم شجاعته وشجاعة رجاله ، وشنق تيرادينيس فى ريو دى جانيرو حيث يقوم تمثاله ، وكان شنقه فى القسم القديم من المدينة ، ويحتفلون فى البرازيل « بذكرى استشهاده » كما يحتفل أهل الولايات المتحدة الأمريكية بيومى ميلاد واشنطن ولينكولن .

ويبقى المكان الذى يجتمع فيه الشوريون فى أوروبريتو كل تبجيل واحترام . أما منزل تيرادينيس فقد دمرته السلطات البرتغالية التى كانت تقضى أوامرها بعدم الإبقاء على أى أثر له يذكر الأجيال المستقبلية به .

وقد أدت هذه الإجراءات التى عمت كل أنحاء هذه الولاية إلى انتقال جميع الثروات والمناجم إلى أيدي البرتغاليين بدلاً من المواطنين البرازيليين الذين اكتشفوها ، وقد أحدث ذلك شعوراً مريراً عند الأهالى كان العامل الأساسى فى التاريخ الثورى الطويل الذى يميز هذه الولاية .

ولم تتطلب إعادة أوروبريتو إلى أصلها جهداً كبيراً ، فللمدينة تاريخ خاص تشاركها فيه عدة مدن برازيلية قديمة أخرى من مدن التعدين ، فلقد كان نمو المدينة سريعاً عندما كان العبيد يستخدمون فى جمع

الذهب من رمال الأنهار وغيرها من المجارى الضيقة حيث تراكم المعدن النفيس من عصور بعيدة الأمد ، فلما استخلص كل ما بها من ذهب توقف نمو المدينة قرناً كاملاً .

وكان الذهب يرسل إلى البرتغال ولا يسمح للبرازيليين أن يحتفظوا بشيء منه ولا أن يتزينوا به ، ولم يكن هذا القانون يطبق على البرتغاليين . الذين يعيشون في أوروبريتو ، ولهذا فإنهم بنوا المنازل والكنائس الجميلة التي غطيت مذايحها برقائق الذهب ، وصنعت أوعية التناول من الذهب أو الفضة الخالصة ، كما زينت الصور بأثمن الحلى .

واستطاع بعض البرازيليين أن يجمعوا ثروات برغم هذا القانون ، وعندما كانت صناعة التعدين مزدهرة كان في هذه المدينة الصغيرة التي تقوم وسط الجبال أجمل ما في البرازيل من الصور والتماثيل والأخشاب المحفورة ، كما كانت تضم بعضاً من أجمل نماذج العمارة في عهد الاستعمار . ومن حسن الحظ أن صدرت القوانين التي تصون كل هذه الآثار القديمة قبل أن تقتحم الصناعة الحديثة المنطقة كلها ، هذا عدا أن مدينة « الأفق الجميل » بيللو هوريزونتي قد اختيرت لتكون عاصمة الولاية ، وهذه يمكن أن تمتد وأن تتسع دون حاجة إلى إتلاف الآثار التاريخية التي في أوروبريتو . ويكاد المرء يشعر أنه قد انتقل إلى عالم غير هذا العالم عندما يشاهد نافورتها الجميلة وكباريها الساحرة ، بل وحتى الاحجار الصغيرة التي رصفت بها طرقاتها . وقد أمكن الاحتفاظ بالمنازل ذات الأسقف المقوسة التي تعلوها البرتغاليون من الصين ، وبالمصابيح المصنوعة من الحديد

المطامير وأوجهات المنازل وأركان الحدائق المزدانة بالقراميد المصورة والمداخل التي استخدم في إنشائها حجر الطلاق ، هذا بالإضافة إلى الكنائس ، وهي جميعها توضح لنا حياة البرازيل في العصور الماضية .

ولا شك أن الرقيق قد عاشوا حياة تعسة في أكواخهم الخميرة ، في الوقت الذي عاش فيه السادة في منازل جميلة ، ومع هذا فقد استطاع العبيد أن يحصلوا على نصيب تافه من الذهب وبنوا كنيسة جميلة لتقديسهم الأسود ، ولقد كانوا يعملون في صفوف منتظمة كما يعمل الجنود وقد انغمرت أقدامهم في المياه المشلجة من المجارى الجبلية ، وسيط المشرفين مرعة لتلهب ظهور من يتوقف منهم عن العمل ، وقد مات الكثيرون منهم بالتهاب رئوي ، ولكن البعض عاش وأثرى في ظل القوانين الجديدة التي سنت فيما بعد لحمايتهم .

وقد اشتهر من بين هؤلاء الرقيق رجل اسمه شيكوري ، كان زعيماً إفريقياً اشترى من سوق الرقيق في ريودي جانيرو هو وأفراد أسرته وعدد كبير من أفراد قبيلته ، وعمل الرجل بنشاط وصبر عظيمين في أثناء الساعات المحدودة التي كان يسمح بها للعبيد في ذلك الوقت أن يعملوا لأنفسهم . واستطاع بجهود جبارة أن يجمع من الذهب ما يكفي لشراء حريته وحرية أبنائه ، واستمر الجميع في عمل متواصل حتى حرروا ببقية أفراد قبيلتهم ، ووضعوا يدهم بعد ذلك على موقع نهري تحتوي رماله على ذهب فجمعوا منه ثروة مكنتهم من الإنفاق على تشييد الكنيسة الجميلة . وبقي شيكوري ملكاً على شعبه ورئيساً للاحتفالات السنوية التي يقيمونها

فى كنيستهم فى اليوم السادس من يناير ، اليوم الذى ذهب فيه الملوك الثلاثة بالهدايا إلى بيت لحم على ما يقول العهد القديم ، ولما كان أحد هؤلاء الملوك الثلاثة لإفريقيا ، كان لهذا اليوم معنى خاص عند الرقيق وخاصة عند شيكورى الذى ولد ملكا فى إفريقيا ، وفى هذا اليوم تقام صلاة خاصة فى الكنيسة ويعقب الصلاة عرض عظيم يسير فيه شيكورى تحت ظلة من القطيفة ، ثم تقام بعد هذا حفلات للرقص فى شوارع المدينة .

ولم يكن هذا ليقارن بالحفلات الفاخرة التى كان يقيمها السادة البيض فى أيام مجد أوروبريتو . كان كل ما يستخدم فى تلك الاحتفالات والمواكب الكنسية ، وكل ما يمسك به الموظفون البرتغاليون وأصحاب المناجم يغلف بالذهب ويزين بالماس ، وكانت ملابس رجال الدين الموشاة والمطرزة بخيوط الذهب صلبة العود حتى لتقف وحدها ولو لم يرتدها أحد ، وكانت مسامير العربات تصنع من الذهب الخالص ، وكانت المربيات وخدم المنازل يتزين بالأساور والسلاسل والأقراط الذهبية الكبيرة ويضعن فى أصابعهن خواتم من الماس ، كما يضعن على صديرياتهن مشابك من الماس . ولم يكن الناس يفكرون فى شئ غير الذهب ، وماذا يمكن أن يشتري بالذهب ؟ وكيف يمكن أن تخدم السلاطات البرتغالية لاحتفاظ ببعض ما يستخرجونه منه ، فلم يكن القانون يسمح بأى صناعة أخرى للناس غير استخراج الذهب .

ولهذا فلا عجب أن الذين اكتشفوا الماس احتفظوا بالسر خفية من ملك البرتغال إلى أطول وقت ممكن ، ولكن عندما أرسل الملك

حاجاً إلى مناطق التعدين وبدأ أنه من المحتمل أن تتسرب الأنباء أرسلت بعض النماذج من إنتاج الماس إلى البرتغال ، ومنح الملك كل المواطنين يوم عطلة عامة ، وازدهت الكنائس بالناس في كل بلاد البرتغال لأداء صلوات الشكر ، وبدأت الأحجار تصل إلى البرتغال بمعدل ضخيم ، فقد زيد من عنف القوانين العادية بل وفرض القانون الجديد حكم الإعدام جزاء لمن يخالفه ، ونص على أن كل الماسات التي تزيد زنتها على العشرين قيراطاً حق خالص للملك ، فضلاً عن أربعين في المائة من كل ما ينتج من الماس سداداً للضرائب ، وكان لإنتاج الماس كبيراً ، بل ولربما بلغت جملة حصيلة ما استخرج من المناجم في الخمسين السنة التي تلت اكتشافه مليوني ماسة ، وكان مركز تعدين الماس مدينة « ديامانتينا » وهي مدينة ساحرة أنيقة تشبه أوروبا ويتوقع على مسافة مائتي ميل لشالها .

واستمر تدفق الناس لاستخراج الماس لوقت طويل بعد أن انتهى الاندفاع لاستخراج الذهب ، ولا تزال سبع ولايات من ولايات البرازيل غنية بالماس ، ولا تزال ديامانتينا التي اتجه إليها جنون البحث عن الماس في السنوات العشرينيات من القرن الثامن عشر واحدة من أفضل مناطق استخراجه ، ولقد أمكن في السنوات التالية الكشف عن أحجار أخرى ثمينة مثل « التورمالين » والتوباز والبرجد والزجاج البللوري .

ومع أن التعدين حالياً ليس بالقدر الذي كان عليه فيما مضى ، إلا أن وسائل التعدين الحديثة قد أبقت لميناس جرايس مكان الصدارة في البرازيل ، ولا يزال في الولاية أعرق منجم لتعدين الذهب في العالم إذ

يصل عمقه إلى ميل وربع الميل وتمسكه شركة إنجليزية ، وتبدو قرية « موروفياهو » — التل القديم — التي قامت حول المنجم ببيوتهما الخلوية الصغيرة ذات الأحجار الحمراء والمدافئ ذات المداخل ثم صفوف السياجات وحدائق الورود وكأنها قطعة من أرض إنجلترا اقتطعت منها ووضعت في البرازيل متماسكة متكاملة . أما اليوم فقد اكتشفت موارد معدنية أخرى بدأت تجلب الثروات إلى أهل الولاية بقدر لم يبلغه تعدين الذهب والماس في أيام البرتغاليين ، إذ وجدت في الولاية جبال بأكملها من الحديد الخام — وهذه إذا أضيفت إلى مواطن الحديد الأخرى في البرازيل تقدر بنحو ربع احتياطي العالم من هذا المعدن . كما أن هناك كميات لا حصر لها من المنجنيز ومن معادن أخرى تحتاج إليها صناعة الصلب .

ولكن لسوء حظ ولاية ميناس جرايس أن أقيمت مصانع الصلب التي مولت بقرض كبير من الولايات المتحدة في فولتا ريدوندا بولاية ريو دي جانيرو ، واعترض أهل ميناس جرايس على هذا الاختيار لموقع المصنع خارج الولاية ؛ إذ أن مستودعات الحديد تتركز كلها حول بيللو هوريزونتي « الأفق الجميل » .

وأقوى الولايات نفوذاً في البرازيل هي بالترتيب : ريو دي جانيرو تليها سان باولو ثم ميناس جرايس ، وتغار كل ولاية من الأخرى في هذه المجموعة ، فولاية ريو دي جانيرو كانت فيما مضى تحيط بعاصمة البرازيل وقد استفادت تلك العاصمة بما شيد بها على حساب الاتحاد من

« الأرصفة » والتسهيلات الملاحية ، كما أنفقت مبالغ طائلة على تحسين المدينة وتجميلها عندما كانت العاصمة السياسية للبلاد .

وتغذى ميناس جرايس ميناء ريو دي جانيرو بحاصلاتها الكثيرة ، كما تجد في هذه المدينة الغنية سوقاً من أفضل أسواقها ، ولكن الواقع أن ثراء ميناس جرايس كان — كما رأينا — بسبب المناجم الأولى التي وجدت بها وخاصة مناجم الذهب والأحجار النفيسة ، وبعد ذلك جاء البن الذي جعل الولايات الوسطى الثلاث ، سان باولو وميناس جرايس وريو دي جانيرو تسكاد تتعادل في الأهمية ، فقد كان البن قوة جعلت هذه الولايات الثلاث تحتل مراكز الزعامة في البلاد .

ساوباولو المدينة والولاية

توجد أربع طرق للرحلة من ريو دي جانيرو إلى ساو باولو وأسرعها بالطبع طريق الجو ، ولكنك تستطيع الذهاب بالسفينة إلى ميناء سانتوس. أو بالسيارة على طريق جيد للسيارات، والاختيار الرابع أن تذهب بالقطار على الخط الرئيسى للخطوط الحديدية الوسطى فى البرازيل والتي تملكها الحكومة .

ولما كان رجال الأعمال يسافرون كثيراً جيئةً وذهاباً بين هاتين المدينتين اللتين هما أكبر مدن البرازيل فإنه يوجد قطار خاص فاخر يبدأ رحلته فى ساعة متأخرة مساءً ، وكل القطار عربات للنوم على الطراز الأوروبى ، فبدلاً من وجود عمر فى وسط العربّة يوجد عمر ضيق فى أحد الجانبين تفتح عليه أبواب « دواوين » صغيرة كثيرة ، ولكل منها نافذة خاصة ويشغل « الديوان » كل عرض القطار فيما عدا الممر الضيق ، وتوجد غرفة صغيرة لللبس والزينة بين كل ديوانين متجاورين ، وهذا تنظيم مريح جداً ، وفى كل ديوان فراشان يعلو أحدهما الآخر ، وتوجد فى « الديوان » منضدة ومقاعد تنطوى ، وأضواء السطّاحة ، ومياه جارية و « الديوان » بمثابة « جوسك » قمره فى سفينة بحارية . ومن الطبيعى — ونحن لانزال فى البرازيل — أن نجد الرجل الذى يقدم القهوة يتنقل من ديوان إلى آخر

طوال الليل ، وستلقاه أمامك عند باب الديوان يحمل « صينيته » بمجرد أن تضغط الجرس .

على أن السياح يفضلون قطاراً يسير في ضوء النهار حتى يستطيعوا رؤية الأرض من حول الخط الحديدي ، وبالإضافة إلى القطارات المنتظمة التي تسير في أثناء النهار توجد أيضاً وسيلة أخرى للرحلة سوف تروق لك - وهي « الليتورينا » ، وهي عبارة عن عربة أكل مزودة بمقاعد مريحة وتسير على القضبان بواسطة بطاريات مشحونة بالكهرباء ، ويقدم طعام الغداء في منتصف النهار . أما القهوة فتوزع طوال ساعات اليوم ، ويوزع الشاي في المساء ، وتصل هذه العربة إلى سان باولو في وقت مناسب لتناول طعام العشاء .

وتبدأ العربة فور مبارحة ريو في تسلق المدرج الجبلي الذي يفصل الساحل عن الأرض المرتفعة ، وتندفع العربة عبر عدة أنفاق وتتابع سيرها فوق أرض مرتفعة وعرة حتى تصل إلى هضبة متموجة السطح ذات تربة حمراء زاهية . وتبدأ إذ ذاك أرض المزارع ، ترى حقول قصب السكر والذرة ومراعي الماشية ، كما ترى مزارع لنباتات جميلة ذات أوراق زخرفية الشكل ، تعصر ثمارها لاستخراج زيت الخروع ، وتستجد أحراش البرتقال بجي تلك المنطقة وكأنها لا تتوقف عن الإنتاج ؛ ذلك لأنك تجد الثمار الصفراء والأزهار البيضاء هنا وهناك في وقت واحد . كما توجد زراعات عارضة للبن ؛ ذلك لأنك لن ترقب المنطقة التي تنتج المحصول الرئيسي من

البن حتى تقترب من سان باولو أعظم منطقة لإنتاج البن في البرازيل إن لم يكن في العالم كله .

ويجرى طريق السيارات إلى سان باولو بجوار الخط الحديدي ، وهذا جزء من الشريان الأمريكي الكبير الذي سيربط يوما ما جميع الأمريكان من الولايات المتحدة حتى أقصى جنوب الأرجنتين . ويجب بعض سائقى السيارات الخاصة وسيارات النقل زيادة سرعاتهم لمسابقة قاطرتك ، وسترى أن أغلب هذه السيارات وقد غطتها الأوحال أو التراب الأحمر مما يدل على أنها قد قطعت مسافات طويلة على الطرق الفرعية . ويزداد عدد السيارات كلما اقتربت من سان باولو، فهي مركز صناعة السيارات وفيها أكبر عدد من السيارات في البلاد ، وهنا تختفى المزارع الكبيرة وتحل محلها مزارع صغيرة تتوسطها مساكن صغيرة أنيقة . ولا يوجد ما يفصل بين هذه المزارع وبين الضواحي التي تمتد لمسافة طويلة ، والواقع أن المدينة كانت تتسع بسرعة كبيرة في المناطق الريفية المحيطة بها — وكان معدل لإنشاء المساكن الجديدة ٧٠٠٠ مسكن سنوياً — وذلك قبل أن يتسبب الحرب العالمية الثانية في إبطاء هذا التوسع .

وأول ما يلاحظه الزائر لسان باولو هو تراحم السكان وعجلاتهم بما جعلها تسمى « شيكاغو البرازيل » . وسان باولو أكثر ارتفاعاً وألطف حرارة من المدن الساحلية ، وطرقاتها أكثر حركة من شوارع العاصمة ريو دي جانيرو ، والناس يسبرون بسرعة أكبر، ويبدون أكثر دأباً ولسكنهم أقل سعادة وأقل تودداً. فابتساماتهم ليست حاضرة، كما لو لم يكن

لديهم وقت لذلك ، وتحس كأن كل فرد لاهم له إلا أن يذهب إلى مكان ما وأن يفعل شيئاً ما ، وهذه هي شيمة أهل المدينة التي مكنتهم من جعل مدينتهم ثمانية مدن البرازيل سكاناً بعد ريو دي جانيرو .

وقد تطبع سكان سان باولو بروح النضال منذ وصول أول رجل أبيض ، وكان بحاراً برتغالياً اسمه رامالو ، بعد تسلقه الحاجز الجبلى متعتباً درباً من دروب الهنود حتى أقام فى هذا المكان وتزوج ابنة رئيس القبيلة ، وكان هذا الرئيس واسمه « تيبيريسا » قد اختار — دون علم منه — هذا الموقع الذى كان مقدراً له أن يصبح أهم مدينة صناعية فى أمريكا الجنوبية . ففضلاً عن كونها ملتقى طرق تسير فى كل اتجاه ، فإن مناخها منهش ومياهها جيدة وفيرة ، وتربتها غنية بخصبها .

ولم يلبث أن لحق برامامو اثنان من المبشرين هما نوبريجا وأنشيتيا اللذان أقاما الكنيسة الكاثوليكية والمدرسة لتعليم الهنود ، وكان هذان البناءان بداية العمران الذى قامت المدينة حوله ، وراح سكان سان باولو الاولون يغزون الأرض إلى غاية المدى الذى يمكن أن يصلوه ، وقد بتوا يفعلون هذا منذ ذلك الوقت . . بل إنهم لا يزالون يفعلونه حتى اليوم بغزواتهم التجارية .

ولا يقتصر الاختلاف بين سكان سان باولو وسكان العاصمة على أن الاولين أكثر حركة ونشاطاً ، بل إن لهم مظهرأ مختلفاً ، وقد يرجع هذا جزئياً إلى أن أغلب المليونين الذين يسكنون المدينة من الأجانب ، والإيطاليين أكثر هؤلاء عدداً . وقد أضفوا على الطعام والعادات طابعاً إيطالياً ، كما

لأنهم يسيطرون أيضاً على الصناعات الهامة . وكانت أكبر ثروة جمعها برازيلى هى تلك التى كونها ليطالى يدعى « ماتارانسو » ، الذى وفد إلى سان باولو كهاجر فتمير . ويحتل البرتغاليون المركز الثانى بين الأجانب من حيث عدد السكان ، ثم يأتى بعدهم الإسبان والألمان . وهذا المزيج من السكان يجعلهم أشبه بسكان أمريكا الشمالية ، وتبدو سان باولو نفسها كما لو كانت مدينة كليفلاند أو ديترويت بطرقها التجارية الفسيحة وناطحات سحابها — إذا استثنينا الجزء القديم منها .

وتؤدى بنا الطرقات الفسيحة إلى منازل جميلة وحدائق مبهجة ، وبالرغم من أن النهار بارد رطب ، والليالى قارسة البرد فى الشتاء فوق هذا السهل المرتفع فإن الأزهار تنشق من التربة الخصبة الحمراء طوال العام وتنتفتح للشمس الدافئة عندما تعلو فى كبد السماء ، وتحاط الأركيديا والأضاليا Azaleas مع الورود وأزهار الداليا وغير ذلك من أزهار البلاد الباردة . ذلك لأن سان باولو هى المدينة الكبيرة الوحيدة فى العالم التى تقع نصفها فى المنطقة المدارية ، ويقع نصفها الآخر فى المنطقة المعتدلة ، فهى تقع على كلا جانبي مدار الجدى ؛ وقد أنشئ "ماعب للجولف على طول هذا الخط الوهمى ، مما يعطى اللاعبين فرصة فريدة فى نوعها بأن يدفعوا الكرة من أحد جانبي الخط إلى الجانب الآخر .

ويقبل أهل المدينة « الهوليستاس » بشغف على العمل لإقبالهم على المرح ، وهم يتوقون إلى « الأكبر » وإلى « الأفضل » فى كل شىء ، مما ينعكس على دور التعبئة ، ومصانع النسيج ، بل وأيضاً على متاحفهم.

ومدارسهم ومظاهر نشاطهم الثقافي ، وفي الموسيقى والفنون كما في الألعاب الرياضية . ففي سان باولو يوجد أكبر المحال التجارية في البرازيل لبيع مختلف السلع ، كما يوجد بها مضمار رياضي ضخم يستحق الزيارة . ففيه مقاعد لثمانين ألف متفرج ، وهو في حد ذاته مدينة تحتوي على مطاعم وحانات وعيادات طبية ، ومستشفى للطوارئ ، وملاعب مغطاة واستراحات ، ومسكن لإقامة الفرق الرياضية الزائرة ، ومدرجات إضافية ، وقاعات للموسيقى ، وأجهزة للإذاعة ، كما يوجد برج عجيب للإضاءة عند إجراء المباريات ليلا ، فضلا عن إضاءة أسفل سطح الماء لمشاهدة المباريات التي تجري في حوض السباحة ليلا ، وتذاع هذه المباريات الرياضية إلى جميع أنحاء البرازيل ، ويتربص الناس نتائجها كما يتربصون نتائج سباقات الخيل الهامة .

على أن الزائر الذي يحمي إلى سان باولو من أمريكا الشمالية ، والذي اعتاد ما يشاهده بها من مناظر في وطنه ، لا يجد في هذه المدينة ما يجده في ريودي جانيرو من سحر وجاذبية ؛ إذ لا يكاد يوجد فرق بين سان باولو وأي مدينة صناعية حديثة في أمريكا الشمالية . فالشوارع الضيقة في الحى التجارى القديم تزدحم بعربات الترولى وبسيارات الركوب وسيارات النقل التي صنع أغلبها محلياً — كما صنعت إطاراتها من مطاط برازيلي في نفس المدينة . وإذا ما صعدت إلى أعلى أحد الأبنية العالية الكثيرة ، أو تسلقت تلالا في الحى السكنى لرأيت غابة من المداخن التي تطلق الدخان من أفواهها والتي تفسر لك سر هذا النشاط . وبالإضافة إلى المصانع التي تدار محركاتها بالوقود يوجد عدد كبير غيرها يحصل على القوة المحركة من

محطات الكهرباء المائية . وفي المدينة عدد لا حصر له من الطرقات الموحشة تتمتع على جوانبها منازل قائمة كثيفة هي بيوت العمال الذين يديرون آلات تلك المصانع ؛ ذلك لأن العمال البرازيليين يتقاضون أجوراً منخفضة .

وكانت كل ثروة سان باولو — في وقت من الأوقات — تأتي من البن وحده . أما الآن فهي تستمد من محصولات أخرى مثل القطن والرز والفاكهة ، كما تحققها أيضاً من الصناعات المطردة النمو . ولكن الواقع أن البن قد جعل سان باولو قوية متعجرفة إلى حد أن كان سكان الولاية يستتكرون دائماً عبء الضرائب الإضافية التي تفرض لصالح الحكومة القيدرالية ، ولم تنقطع محاولاتهم ، إما للسيطرة على الدولة كلها ، وإما للانفصال عنها وإقامة جمهورية منفصلة ، وقد أدت هذه الأناية إلى قيام ثورة في عشرينيات هذا القرن ، بل وإلى حرب أهلية فجائية سنة ١٩٣٠ . وقد أوجد هذا تربة صالحة لمؤامرات من جانب هتلر قبل الحرب العالمية الثانية ، ولكن هذه الفترة قد مضت وانتهت ، واكتشف « البوليستاس » أنهم يحتاجون إلى باقي بلاد البرازيل كسوق لتجارهم بقدر ما يحتاج الدولة إليهم . ولا يزال البن أهم عناصر التجارة في هذه الولاية الفسيحة التي تصل مساحتها إلى جملة مساحة ولايتي نيوجانلاند وبنسلفانيا من الولايات المتحدة الأمريكية .

ويعتبر تل ايبيرانجا Ipiranga أطرف مزار تاريخي في هذه المدينة . فعنده أعلن الامبراطور دوم بيدرو الأول سنة ١٨٨٢ الاستقلال عن البرتغال ، ويفتخر « البوليستاس » لأن الحادث قد جرى في إحدى ضواحي مدينتهم ، كما

أنهم يفخرون بالدور الذى لعبوه فى مناوأة البرتغال وتحديها برفضهم دفع الضرائب الفادحة الباهظة ، فكانت سان باولو زعيمة حركة التمرد على مثال ما فعلت بوسطون لإزاء مشكلة « الشاي » فى فجر حروب الثورة الأمريكية ، وأنشئ متحف أيرانجا فى نفس المكان فى تاريخ لاحق ، ويقوم هناك تمثال كبير من البرونز للدوم بيدرو الأول وقد امتطى جواده ملوحاً بسيفه كما فعل عندما أطلق صيحته التاريخية « الاستقلال أو الموت » ، وقد رسم المشهد المثير كله بارزاً على قاعدة التمثال ، ويشاهد فيه الإمبراطور الصغير وقد همز حصانه مندفعاً أعلى المنحدر تحيط به حاشيته التى أقسم أفرادها على مساندته وسيوفهم مرفوعة فى الهواء .

وقد احتفظ كذلك بالسكوخ البدائي المصنوع من سعف النخل الذى قضى فيه الدوم بيدرو تلك الليلة ، ويقوم السكوخ فى أرض المتحف دليلاً بيناً على عناد وقوة ذلك الإمبراطور الأول الذى أحب مثل هذه المغامرات الخطيرة ، وكانت لديه الشجاعة ليخطو أول خطوة ناجحة لتحرير البرازيل من الظلم والاضطهاد .

ويعتبر معهد بوتانتان أكثر ما يمكن أن تراه فى المدينة طرافة ، فهو شئ غير عادى ؛ مشروع آخر من المشروعات العلمية التى أسهمت بها البرازيل لحيز العالم . ومع أنه ليس بأهمية معهد أوزوالد كروز فى ريو دى جانيرو حيث تدرس كل أمراض المناطق الحارة ، إلا أن معهد بوتانتان قد أنقذ حياة الآلاف من الناس ، ويعرف أحسن ما يعرف باسمه الشائع : « مزرعة الأفاعى » ، فهو فعلاً مزرعة أفاع . وقد أقيم المعهد لتربية

الافاعى واستخلاص سمومها لمنع وعلاج التسمم من لدغات الافاعى . وترسل مئات الافاعى السامة من مختلف أنحاء البرازيل كل سنة إلى هذا المعهد فتعيش حياة طبيعية ما أمكن في أوكار صغيرة مصنوعة من الاسمنت ، وليوضحوا لك كيف يستخلص السم يسير أحد العمال أمامك وسط الحيات المجاجلة وغيرها من الزواحف القاتلة، وقد ارتدى حذاء طويل العنق ويده عصا مزودة بسلك يمسك به الافعى من عنقها، ثم يضغط بإصبعه على غدد السم فوق قرح من الزجاج فتبصق الافعى السم من فمها ، ثم يؤخذ القرح إلى المعمل لإعداد « المصل » وتعبئته في حتمن تعطى تحت الجلد ، ويرسل هذا المصل إلى كل مكان في البرازيل ، وتحفظ مخازن الادوية في المناطق الريفية والمزارع الحديثة الكبيرة بكميات من هذا المصل لاستعماله عند الحاجة ، كما يحمله المستكشفون معهم أينما ساروا ، والمصل جزء من صندوق الإسعاف الأولى في كل المؤسسات الهندسية للإنشاء والبناء ؛ ذلك لأنه يجب حث المصاب فور اللدغ لإيقاظ حياته .

وفي معهد بوتانتان بمجموعات من الافاعى غير السامة أيضاً يحتفظ بها للدراسة عاداتها ، كما يوجد في مبنى المعهد متحف تعرض فيه نتائج البحوث عن طبيعة الزواحف وتأثير سمومها في الناس . وتوجد أفاع مجففة كما توجد هياكلها ونماذج مكبرة من البلاستر لانيابها ودقاتها ولحماث السم موضحة الاعصاب والعضلات التي تفرز السم القاتل ، وهذه الزيارة دراسة مفيدة ولسكنها أشبه بكابوس مزعج .

والآن — وقد انتهيت من رؤية كل مشاهد المدينة — يحسن أن نتوهم بالرحلة إلى الأرض التي تزرع البن ، ولكن قبل أن تذهب إليها يجب أن تسمع قصة « البن » الشائقة والتي يعرفها كل طرف برازيلي ، فالقهوة — على خلاف الشاي الذي كانت له أهميته منذ تاريخ مغرق في القدم في الصين — شراب حديث نسبياً ، ويمكن أن يوعز اسمه النباتي « كوفي آرابيكا » أي « البن العربي » إلى أن أصله من بلاد العرب ، ولكن البن في الواقع نبات إفريقي ، وقد نقلت شجرته إلى بلاد العرب بسبب أوراقها اللامعة ورائحتها النفاذة وثمارها الحمراء اللامعة ، وتقول أسطورة عربية الأصل : إن صبيّاً من رعاة الغنم رأى جماله وأغنام قطيعه تأكل ثمار وأوراق شجرة صغيرة ، فبتيت بعد ذلك تلعب وتقفز طوال الليل ، فتناول هو بعض الثمار الحمراء ومضغها ولم يتمكن من النوم . واعتاد بعد ذلك أن يأكل بعض الثمار كلها رعى قطيعه في منطقة خطيرة حتى لا يفاجئه لص أو أسد يغير على القطيع ، وسمع رجال الدين بالقصة ، فاعتاد المسلمون أن يأكلوا بعض الثمار عندما يريدون أن يقضوا الليل كله في الصلاة والعبادة ، ولكن لا يعرف أحد كيف اكتشف أمر تحميص وحن البن لصنع الشراب الزكي الرائحة ، على أنه في الوقت الذي اكتشفت فيه أرض البرازيل كانت القهوة مشروباً شعبياً في غرب أوروبا .

وكانت للبن أهمية كبرى في فرنسا حتى إن أول حاكم فرنسي ذهب ليتولى أمر جزر المارتينيك في أوائل القرن الثامن عشر أخذ معه شجرة صغيرة من أشجار البن ، وقد تعطلت سفينته في وسط المحيط لاسابيع

عندما هدأت الرياح وسكنت صفحة الماء . وعندما بدأت مياه الشرب تقل وأشرفت على الانتهاء ، ولما لم يكن يسمح للفرد بأكثر من رشقات قليلة من الماء كل يوم، قسم الحاكم نصيبه من الماء بينه وبين شجرة البن ، واحتمل هو الظمأ شهرين كاملين لينقذ حياة أول شجرة بن وصلت إلى العالم الغربي، وقد نمت الشجرة وأنتجت الثمر الذي أرسل لكل جزيرة ومستعمرة فرنسية مجاورة ، وصدر قانون فرنسي بأقصى العقوبات لمن يحمل بذور البن إلى خارج حدود المستعمرات الفرنسية .

وكانت واحدة من هذه المستعمرات جيانا الفرنسية ، وفي وقت ما ذهب موظف برازيلي من بارا لزيارة الحاكم الفرنسي لجيانا لتسوية وإقرار الحدود بينها وبين البرازيل ، فلما انتهت المهمة الرسمية كسبت البرازيل جزءاً من الأرض التي هي الآن إقليم آمايا الذي تغطيه الغابات الكثيفة على ساحل المحيط الأطلنطي شمال مصب نهر الأمازون ، إلا أن جانباً من الزيارة كانت له أهمية خاصة ، ذلك لأن زوجة الحاكم قدمت — كعادة الفرنسيين — كوباً من القهوة للزائر الذي فتن بالشراب ، ولكنه حزن عندما عرف بالقانون الذي يحرم نقل البذور لخارج المستعمرات الفرنسية، على أنه قبل أن ينادرهم أخذه الحاكم وزوجته إلى الحديقة ليشهد شجرة البن وليعجب بها ، وبينما كان الزوج يلتفت ناحية أخرى ملأت الزوجة الفرنسية جيوب الزائر ببذور البن .

ووزعت هذه الحبوب على عدد من المزارعين وبدأت زراعة البن

في شمال البرازيل ، وبعد ثلاثين سنة جاء مسافر بأربع بقلات من البذور حملها معه طوال الرحلة الطويلة البطيئة حول ساحل البرازيل حتى وصل إلى ريو دي جانيرو ، وقد أعطى بقلته منها إلى رهبان كابوشين^(١) الذين اعتنوا بزراعتها وأحاطوها برعاية كبيرة ؛ فكانت هذه البقلة هي وحدها التي عاشت من الأربع بقلات ، ولا تزال هذه الشجرة قائمة في حديقة الدير السابق لهؤلاء الرهبان في شارع ايفياريستودافيجا .

وكانت هذه الشجرة الأم هي أصل كل مزارع البن التي قامت في ولاية ريو دي جانيرو وامتدت حتى وادي نهر بارايبا في ولاية مناس جرايس ، وحصل كثيرون من المزارعين في تلك المناطق على الثروة من زراعة البن ، وذلك قبل أن تمتد زراعته على نهر بارايبا في ولاية سان باولو التي كان ارتفاع الأرض وخصب التربة واعتدال الجو في صالح زراعة البن خاصة .

وتغطي أرض البرازيل آلاف المزارع التي ينبت فيها البن للاستهلاك المحلي ، ولكن الولايات التي تفضل غيرها لإنتاج المحصول الذي يصدر هي ريو دي جانيرو ومناس جرايس وسان باولو ، وفي الأخيرة أكبر مناطق لزراعة البن ؛ إذ بها بليون ونصف بليون شجرة تغطي أربعة ملايين من الأفدنة تنتج نصف محصول البرازيل من البن .

وتكاد مزارع البن تبدأ عند أطراف المدينة ثم تمتد في جميع أنحاء

(١) طائفة من الرهبان الفرنسيين الذين يرتدى كل منهم قباء بقلنسوة .
(المترجم)

الولاية تتميز ، وفيها حالياً اثنتا عشرة منطقة لزراعة البن ، بعضها قريبة قديمة ، وبعضها بعيدة مهدت واقتلع منها ما كان فيها من نباتات زرعت حديثاً ، وهذه هي الأفضل ، ذلك لأن الأشجار أو الأعشاب العالية تستنزف خصب التربة .

وقد اتبع البرازيليون نفس الأسلوب السيء الخاطئ الذي اتبعه سكان أمريكا الشمالية ، فحيثما وجدوا أرضاً طيبة فسيحة فإنهم مهدوها وزرعوها ، وبذلك فإنهم أجهدوا الأرض الطيبة بمحصولاتهم ، فإذا ما أنهكت الأرض تحركوا ومهدوا مزيداً من الأرض الجيدة وزرعوها . ولكن لما كان البن هو محصول البرازيل الأول من قرابة مائة عام ، كما انقضت خمسون سنة منذ أن تصدر محاصيل سان باولو ، فقد أخذت الأراضي الجيدة التي تصلح لزراعته تصبح نادرة . وتوجد الآن مشروعات مختلفة لحث المستوطنين على أن يتوغلوا إلى مسافات أبعد وأبعد في أراضي البرية البكر .

وكان زراع البن هم أول من جاءوا بالإيطاليين بالآلاف عبر البحر ، وذلك بعد تحرير العبيد ، فلقد بدأوا ينشرون الإعلانات في صحف إيطاليا للدعوة الناس إلى الهجرة ، كما عقدوا الاتفاقات مع دول أوروبية أخرى ومع اليابان ، لإرسال جماعات كبيرة من المستعمرين . ولما كان لزماً على أصحاب المزارع أن يفوا بالوعد الزاهية من حيث تهيئة المساكن وفرص العمل التي نصت عليها العقود - فقد شيد السكليون منهم منازل للعمال

تشتمل على غرفتين أو ثلاث غرف. وتمتد هذه المساكن عادة في صفوف تشبه أحياء العبيد في مدن الولايات الجنوبية من الولايات المتحدة . وتكاد بعض هذه المزارع تبلغ حجم قرية كبيرة بما فيها من الشوارع والكنيسة والمتجر والمدرسة ومباني المزرعة المتعددة ، وعادة ما يكون لها مستودعها الخاص الذي يصدر منه المحصول . وكان لإحدى المزارع القديمة بالفعل ثلاثون ميلا من الخطوط الحديدية وقاطراتها الخاصة بها .

وتستطيع أن ترقب بعض هذه المزارع الكبيرة ، كما ترى المزارع الصغيرة لصغار المستوطنين في رحلة بالسيارة لمسافة سبعين ميلا إلى بلدة كامبيناس ، وتستطيع أن تقوم بعدة جولات فرعية طريفة على الطريق في أثناء رحلتك .

وتتنوع مناظر المزارع على طول الطريق ، فإن بعض المزارع التي أجهدت تربتها قد حولت إلى مزارع للعب وبساتين للبرتقال ، أو حولت إلى مراعي خصصت لتربية الماشية من السلالات الأوربية ، وتجىء هذه بكسب أكبر مما يمكن الحصول عليه من تربية ماشية براهما المختلطة بالماشية المحلية على مثال ما نجد في أجزاء كثيرة من البرازيل ، والمراعي خصبة غضة مليئة بعشب (حشيش) خاص يقال له « عشب التسمين » ويستخدم لتسمين العجول التي تاتي سواقا طيبة في مصانع تعبئة اللحوم بسان باولو .

وستجد على الطريق عدداً من المدن التي يتميز بها الإقليم . وستتوقف لتري منطقة جميلة المنظر عند مستط مياه يطلق عليه الهنود اسم « مساقط ايتو » ،

ولسكنك في هذه الرحلة ستمر بصفوف تمتد لأميال من أشجار
البن متألقة متلائة ، فإذا كانت رحلتك في الربيع ، أى في المدة من شهر
سبتمبر إلى شهر ديسمبر ، فستجد الأشجار مزهرة بأزهار بيضاء والهواء
مثقلاً برائحة عطرية نفاذة ، أما إذا كانت الرحلة في الخريف الذى يبدأ
في شهر أبريل فستجد الهواء مليئاً بالرائحة التى تطلقها حبات البن الحمراء
اللامعة ، وفي ذلك الوقت يكون الناس في هذا الجانب من البلاد قد نشطوا
لجمع المحصول الثمين .

ويجمع الرجال والنساء المحصول ملتقطين حبات البن باليد ويلقون
بها على قطع من الخيش مبسوطة على الأرض أسفل الأشجار ، ويقفون
على سلاسل متحركة يسهل حملها للوصول إلى الأغصان العالية المرتفعة ،
ويحمل آخرون الثمار ويلقون بها في مياه جارية تحملها إلى معامل
لعدادها حيث يفصل اللب عن البذور بالآلات ، وتفرد الحبوب بعروق
عدة بوصات على أفاريز من الأسمنت ، ويحرك بعض الرجال هذه الحبوب
باستمرار بوساطة مدمّات حتى تجف في الشمس والهواء ، ثم يضعونها
يعد أن تجف في حقائق من الخيش استعداداً لشحنها .

وعندما ينتهى جمع المحصول كله ، ينهمك كل فرد في حساب
دخله ؛ ذلك لأن العمال يزرعون البن مقابل نصيب من المحصول
ويتعرضون لنفس المخن التى مر بها زراع أمريكا الشمالية الذين كانوا
يشاركون في المحصول ، فيعيش هؤلاء العمال بالدين بقيمة السنة ، يشتررون

الطعام بل ويتعاون كل احتياجاتهم من متجر المزرعة ، ويأملون دائماً أن تنتهى عملية تقدير المحصول بأن يحصلوا على فائض يدفع لهم نقداً بعد تسديد ما كانوا قد اقترضوه .

ويوجد فرق كبير بين الدور البسيطة التي يعيش فيها العمال وبين قصر المزرعة الكبير الذى يعيش فيه صاحب الأرض عندما يكون مقماً في مزرعته على مثال مانجد في بعض الولايات الجنوبية من أمريكا الشمالية ، ولا يدرك فرد هذا التباين بقدر ما يدركه بعض البرازيليين أنفسهم ، ولقد بدأت حركة من جانب بعض ذوى الضمائر الحية لرفع مستوى معيشة العمال الزراعيين الذين لا يملكون أرضاً ، ويستطيع هؤلاء العمال أنفسهم أن يغيروا من هذه الحال عندما يتكون لديهم وعى يحعاهم يمشركون في حكومة بلادهم في ظل نظام ديمتراطى .

وكامبيناس مدينة قديمة جذابة ، تعمل فيها الآن يد التجديد . وكانت من أوائل المحلات الريفية في الولاية ، ولا يزال فيها طابع المباني البرتغالية مع فيلات من طراز قديم لها حداثتها المليئة بأشجار الفاكهة ، وشهرتها التاريخية الرئيسية أنها مسقط رأس كارلوس جرميس أحد المؤلّمين الموسيقيين البرازيليين ذوى الشهرة العالمية .

كان والد كارلوس مدرس موسيقى في كامبيناس في منتصف القرن الماضى ، وكان ذا أسرة كبيرة مكونة من ستة وعشرين طفلاً من الأطفال المراهقين ، وكان كل واحد له ولد له ولد عليه الموسيقى ، ثم وجهه ليعمل في

الفرقة الموسيقية التي تكونها الأسرة . وكان كارلوس في العاشرة من عمره عندما أصبح عضواً في هذه الفرقة الموسيقية ، وقد تعلم كما تعلم الباقون العزف على عدة آلات . وكانت أسرة جوميس تعزف في الحفلات في منطقة تمتد لمسافة أميال حول موطنها . وقد جعلهم الأب يحفظون عشرات المقطوعات الموسيقية الكلاسيكية والشعبية الشهيرة في ذلك العصر ، ومن ثم فقد أعطى كارلوس بداية طيبة ، واكتشف الدوم بيدرو الثاني الموسيق الصغير الموهوب فأرسله إلى إيطاليا للدراسة ، وقد عمل هناك بجد كما كان يعمل مع أبيه ، وجاء أول إنتاجه الناجح في إيطاليا ، ومنذ ذلك الوقت تمثل أوبراته ، وبخاصة أوبراه « جواراثي » التي نالت شعبية كبيرة ، ولب موضوعها الكفاح بين البيض وبين الهنود في القرن السادس عشر ، وقد جاءت الفكرة لجوميس من رواية في مجلدين تحمل نفس الاسم من قلم الشاعر الروائي الكلاسيكي خوزي دي آليينكار . ويستخدم جوميس في مقطوعاته الموسيقية الناي والترومبيتة والخشخيشة التي يستخدمها الهنود ، ولا بد من وجود هذه الآلات في الأوركسترا إذا أريد للموسيق أن تعزف بنجاح .

ويحاول أهل كامبيناس أن يجعلوا من مدينتهم « سان باولو صغيرة » فقد نما سكان المدينة إلى أن بلغ عددهم مائة ألف ، ولها مصانعها التي تنسج الأقمشة وتصنع الفخار والآلات وأشياء كثيرة أخرى ، وتقع في تقاطع أهم الطرق العامة في الولاية ، كما أنها مركز للسكك الحديدية ، ويصل أحد الخطوط الحديدية التي تمر بها إلى حدود بوليفيا .

وعلى مسافة أميال كثيرة من كامبيناس تقع « فيلا أميريكانا » ،
أى القرية الأمريكية التى نزلها أهل الولايات الجنوبية من الولايات المتحدة
للاجئين بعد هزيمتهم فى الحرب الأهلية ، إذ تذكرهم الأرض المتموجة
بولاية تنيسى ، وقد كانوا يحملون بالسعادة فى البرازيل بفكرة أنهم
يستطيعون الاحتفاظ بعبودهم ، ولكن برغم ما منحه لهم الدوم بيدرو الثانى
من معونة شخصية لبدء حياتهم فى البرازيل فإن الكثيرين لم يلبثوا أن
أسفوا لترك وطنهم وعادوا من جديد إلى الولايات المتحدة . وسرعان
ما عرف الذين بقوا أن ماحلوه معهم من نقود لا قيمة له ، وكان القليلون
منهم هم الذين تعلموا حرفة ما لكسب عيشهم فضلاً عن أن الأحوال
المعيشية فى الولاية كانت بدائية إلى درجة كبيرة . أما الذين بقوا منهم
فقد تركوا ذرية كبيرة يعيش معظمهم فى المدن وكلم من أصحاب المن ،
وهم يرسلون أبناءهم إلى الولايات المتحدة للدراسة فى جامعاتها ، ولا يزالون
برغم مرور عدة أجيال يحتفظون بطابعهم الأمريكى . ولم يستوطن
إلا عدد قليل جداً بالقرب من فيلا أميريكانا . ولكن الكنيسة الصغيرة
التي شيدوها هناك محاطة بقبور كثيرة تحمل على شواهدها أسماء أسر قديمة
من أسر الجنوبيين .

وتستطيع أن تذهب من كامبيناس بالسيارة ، أو بالطائرة ، أو بالقطار
إلى « النهر الأسود » والذي يبعد مائتى ميل عنها ، وهناك تجد أغنى منطقة
لزراعة البن ، ولكنها لا تختلف عن غيرها كثيراً . ومن ثم فإنك بدلا
من أن تذهب إليها فستفضل أن تتبع أحمال البن فى طريقها إلى ميناء

سانتوس على خط حديدي يقال إنه الخط الذي يلقي أكبر عناية في العالم ؛ ذلك لأن الشركة الانجليزية التي أعطيت امتياز هذا الخط قد شق عليها أن تبعث إلى إنجلترا بأكثر من نسبة مئوية معينة من كسبها ، ولهذا فهي تتفق الزيادة في الكسب على تحسين الخط الحديدي . وتصل إلى آلتودي سيرا أو إلى حافة سلسلة الجبال بعد أن تترك سان باولو بقليل بوساطة هذا الخط الحديدي ، وهذه هي نفس الشرفات التي تفصل الأرض العالية عن ساحل البحر لمئات الأميال على طول الساحل البرازيلي ، وتستطيع هنا أن ترقب مدى العناية بالخط الحديدي ، فكل حجر صغير من الدكة التي تمسك بالعقد والشدادات يبدو مصقولاً ، ولا ترقب أي أثر للصدأ الذي قد يشوب اللمعان الفضي للقضبان الحديدية ، وستجد أعمدة التلغراف أو أكشاك الإشارة مدهونة لامعة ، وترقب الحقائق المليئة بالأزهار على جانبي الخط الحديدي ، وتختلف هذه كلها عن الصورة القائمة السكتية التي هي الطابع العادي للخطوط الحديدية .

ولكن سرعان ماتحول عينيك عن هذه الأعجوبة ، لأن قطارك يندفع لأسفل فوق منحدر وعر ، وترى أمامك المناظر الجميلة للمدينة الفريدة في طابعها ، فتتبدى الميناء والجزر الجميلة التي لا تبعد عنها كثيراً . فالواقع أن سانتوس نفسها مشيدة على جزيرة يفصلها عن الأرض الرئيسية مجرى نهري ضيق - مما يجعل ميناءها من أكثر موانئ العالم أمناً .

ولقد كانت سانتوس يوماً ما مباءة للأمراض ، يخشاها الملاحون ، ويخافونها ، وتتجنبها السفن ما استطاعت . ولكنها أصبحت مدينة جميلة

صحبة يسكنها مائتا ألف ، بها حدائق مدارية بديعة وأميال طويلة من الشواطىء الرمائية المتناسكة . وفيها كل وسائل الاجتذاب التى تجعل منها مدينة سياحية ، ففيها الكثير مما يمكن أن يشغلك ، كما يتوافر كل ما هو أنيس . أليف سهل المنال فى مدينة من هذا الحجم الكبير ، ويقول سكانها لانهم يقضون بها أفضل وقت فى العالم ، ففيها المصائد الجميلة لصيد البر والبحر ، ويتوافر الوقت لركوب الخيل وقيادة القوارب البخارية والقوارب الصغيرة ذات المجاديف ، وتساق الجبال والاستحمام فى البحر ، والسباحة فى المياه الهادئة ، ويجد الزائر المتعة فى كل لون من ألوان الرياضة والسباق ، فضلا عن الملاهى الكثيرة فى المدينة وفى الجزر .

ويتوافر فى إحدى هذه الجزر . . جواروجا . . كل ألوان اللهو مجتمعة معاً فى إطار واحد ، ويحييها الزوار من سانتوس فى أيام الآحاد لقضاء اليوم كله بأطفالهم على الشاطىء الرملى ، كما يحيى سكان سان باولو ليقضوا أسابيع الشتاء الباردة وسط أمواج الساحل الدافئة وتحت شمس جواروجا الساطعة ، والواقع أن فنادق ومنازل سانتوس تزدهم دائماً بالزلاء القادمين من سان باولو لما اشتهرت به من الحفاوة بنزلاتها وبجوها المتحرر من الرسميات .

وسان فيسبىتى إحدى الجزر الأخرى الهامة ، وهى الآن إحدى ضواحي سانتوس ، وكانت أول مستوطنة فى البرازيل إن لم تكن أول مستوطنة فى أمريكا كلها ، ولقد أنشئت هذه المستوطنة على هذه الجزيرة سنة ١٥٣٢ ، وكان هذا تاريخاً مبكراً ولا شك ، فإن سانتوس نفسها لم تشيد إلا بعد هذا

بعشرة أعوام ، وكانت عندما أنشئت مستشفى للبجارة يطلق عليه اسم « مستشفى دوس سانتوس » ، أى مستشفى القديسين . وفي سنة ١٥٩١ نزل التمرسان الانجليز إلى البر وسلبوا كل ما استطاعوا أن يحملوه معهم ، وقد حدث هذا قبل أن تقام مستوطنة واحدة في أرض الولايات المتحدة الأمريكية .

* * *

ولقد توافرت لك الآن فكرة طيبة عن المشاهد العامة في المدينة وما يحيط بها قبل أن يطلق السلك القوي قطارك عند حافة الجبل ، ولكذك لا تزال بعيداً عن المدينة ويسير بك القطار في منطقة مسطحة من الأرض مليئة بمزارع الموز ، ولقد كانت هذه الأرض مباءة للبلايا والحصى الصفراء اللتين اشتهرت بهما سانتوس ، إلا أن المستنقعات قد جففت ، وزرعت الأرض بأشجار الموز القصيرة التي تتدلى منها الثمار إلى متربة من الأرض ، والاعداق (جمع عذق) « السباطات » ثقيلة جداً حتى تبدو الجذوع القصيرة وكأنها تنوء بحماها ، ومع أن هذه الأشجار سهلة الزراعة وافرة الإنتاج ، إلا أن موزها ليست له النكهة الطيبة التي يفضلها هواة الموز ، ولكن ثمار أشجار سانتوس تملأ أسواق شعب ياكل أفراد الموز مع كل وجبة من وجبات طعامهم ، ومن ثم فإنه يدر ربحاً كبيراً ، فضلاً عن أنه سهل النقل إلى جنوب البرازيل وإلى الأرجنتين ، وحتى إلى أوروبا ، وسيطر على إنتاج الفاكهة وبيعها في سانتوس كثير من اليابانيين .

ويصل بك القطار إلى سانتوس بعد أن يقطع بضعة أميال وسط صفوف من أشجار الموز التي تذبذب كالحشائش العملاقة ، وتشم إذ ذاك رائحة البن ، رائحة زيتية حادة قوية ساطعة تنطلق من ملايين الجوالات من حبوب البن التي تملأ كل المستودعات وسيارات النقل الكبيرة والصغيرة وعربات السكك الحديدية ، وهي ليست بالرائحة المستحبة إلا لأولئك الذين يعملون في زراعة البن وتجارته ؛ فهم ينشأون على حبها ، ثم تقابلك هبات ونفحات الهواء صاعدة من آلات تحميل البن لأن سكان سانتوس يستهلكون كمية كبيرة من البن ، ويخصص البن « طازجا » في كل وقت ، سواء أكان هذا للاستهلاك في المنازل أم في المقاهي .

وتبدولك سانتوس مدينة رضية الحياة ، هنية الطابع ، والناس هنا يسرون متململين في خطى أبطأ مما يفعل الناس في ريو ، ولكنك عندما تقترب من سوق « بورصة » البن تراهم يسرعون الخطى على مثال الناس في سان باولو ، وبالرغم من أن أسعار البن ونفقات الشحن ثابتة دائماً تنظمها قوانين صارمة إلا أن عماليات البيع والشراء عمليات كبيرة لها عنفها وأهميتها .

ولنفترض أنك ستزور المكاتب المكيفة الهواء لأمريكي ممن يمثلون مجموعة من المتاجر الأمريكية في سانتوس ، ستجد موظفيه برغم الهواء الحار في الخارج يرتدون صديريات خفيفة ، ولن تجد شيئاً غير عادي حتى يأخذوك إلى الغرف الخلفية التي يجري فيها اختبار البن ، ففيها يفحص ما يشتري من البن ؛ ذلك لأن البن محصول خادع ، فإن حبوب شجرة واحدة قد تختلف

فى النوع والنسكة تبعاً للفصل من السنة وتبعاً للجو . ولما كان أهل أمريكا الشمالية يشترى الصنف تبعاً لمزاجهم الخاص ، فإن هذه الأصناف يجب أن تظل هى هى دائماً ، ومن ثم تخطط معاً عدة أنواع مختلفة من الجيوب حتى يتم الحصول على النسكة المطلوبة .

وقد يكون من الطريف أن تراقب الاختصاصى مختبر البن المحترف فى أثناء عمله ، فهو يجلس أمام منضدة مستديرة صغيرة تدور بما عليها من فناجين من القهوة السوداء التى صنعت من عينات صغيرة تم تحميلها خصيصاً لهذا الاختبار . ويحمل كل فناجان رقاً ، ومهمة الخبير الذى يذوق عينات القهوة هى أن يتوصل إلى النسكة التى تمثل المستوى المطلوب للتاجر التى يعمل لها . وهو يتناول رشفة واحدة من فناجان ثم يبعثها فى حوض أمامه ؛ ذلك لأنه لى ببقى حاسة التذوق صحيحة يجب ألا يحتسى أى كمية من القهوة ، ثم يدير المنضدة ليتذوق مافى الفناجان الثانى ، وهكذا حتى يختبر ما فى جميع الأقداح ، ويقيّد رقم القدح الذى يعتبره أجودها ، ثم أرقام القدحين الثانى والثالث من حيث الجودة . ويبدو هذا عملاً سهلاً ، ولكن القليلين جداً هم الذين يمكن أن يكونوا مختبرين للبن ؛ إذ تتطلب هذه الحرفة تدريباً شاقاً ، كما تتطلب حاسة ذوق مرهنة جداً يعنى بها صاحبها كما يعنى عازف البيان بأصابعه . ويجب على هذا الاختصاصى ألا يدخن وألا يحتسى المسكرات وألا يتناول الأطعمة الحريفة .

ولابد أنك تريد بعد تعقبك للبن إلى هذه المرحلة أن تراه يشحن فوق السفينة التى ستنقله إلى حيث يصدر ، وسيد هشك منظر المرافىء ، فهى تمتد

إلى مسافة أربعة أميال طولا ، وفيها مراس لحسين سفينة تشحن كلها في وقت واحد ، وتحمل مجرات النقل صفوفاً لاتنتهى من الأكياس من المستودعات إلى ظهور السفن ، وتملأ عتار السفينة وجوفها في ساعات . وقد كان العمل يستغرق أياماً عندما كان الشحن يتم بنقل الجوانات على رؤوس العمال .

والآن يبقى أن تجرب بنفسك قذحاً من قهوة سانتوس الخاصة ، فدعنا نعد إلى أحد المقاهى القريبة من سوق « بورصة » البن ، حيث تقدم أحسن أنواع القهوة . املا الكوب الصغير حتى حافته بالسكر كما يفعل كل برازيلي ، وراقب السائل السميك البني اللون الذى يشبه التغطية ينساب من الآنية الصغيرة ليذيب السكر الذى يملأ الكوب ، وقد يكون الشراب قوياً ، إذ ستحس وكأن رأسك يدور ، ولكن خبراء البن في سانتوس يفضلون تناول القهوة بهذه الطريقة .

جنوب البرازيل

عندما تعبر مدار الجدى — الذى يخترق سان باولو — متجها نحو الجنوب فتمد تتوقع أنك ستنتقل إلى جزء أبرد مناخا من البرازيل ، فكل شىء يتعلق بالمناخ هنا على النقيض مما اعتاده سكان نصف الكرة الشمالى ؛ إذ تزداد البرودة جنوباً ، كما أن شتاء البرازيل يقع فى شهور الصيف لدينا . ولكن الواقع أنك أحسست بتغير فى المناخ فى مكان ما فى أثناء سفرك بمقطار « ليتورينا » من ريو دى جانيرو إلى سان باولو ؛ ذلك لأنك ارتفعت عن مستوى سطح البحر وبلغت منطقة عالية هوائها منعش ويكثر بها الضباب والمطر . أما الآن فعندما تتجه من سان باولو جنوباً إلى الولاية المجاورة لها — وهى ولاية « بارانا » ، فإنك لن تشعر بتغير يذكر فى درجة الحرارة ، بل سيخيّل إليك فى بادئ الأمر أنه لا جديد فى هذه الولاية .

فها تجد نفس المساحات الواسعة التى تغطيها أشجار البن ومزارع القطن والذرة والرز ، وتربى الخنازير والمماشية والخيول والبغال بنفس الأساليب ، ويمتد خط سان باولو الحديدى عبر ولاية بارانا والولايتين الواقعتين إلى الجنوب منها فى طريقته إلى الأرجنتين . ثم إن نفس الجزء البرازيلى من الطريق العام الذى يجرى فى كل بلاد أمريكا والذى شهدت جانباً منه من قبل قد امتد فى أقصى جنوب البرازيل حتى يصل حدود

أوروجواى . أما إذا أردت أن تصل إلى البحر فعليك أن تهبط من فوق هذا الحائط الجبلى . وأهل بارانا الذين يزدون على المليون نشطون على مثال أهل سان باولو ، والواقع أن أهل سان باولو يحبون دائماً أن ينظروا إلى أرض ولاية بارانا على أنها جزء من ولايتهم ، ولا يبدى سكان بارانا اعتراضاً على ذلك ؛ لأن ولايتهم صغيرة المساحة ، تقل عن ربع مساحة سان باولو .

ولكنك لن تلبث أن تشاهد بعض المحصولات التى تشترك فيها هذه الولاية مع الولايتين الأخرين الواقعتين فى المنطقة المعتدلة . فهناك — أولاً — تلك الغابات الشاسعة التى يتميز بها أقصى جنوب البرازيل ، كما أن هناك أراضى برية تختلف طبيعتها كل الاختلاف عن الأدغال المدارية فى الولايات الشمالية والوسطى ، وتغطى ملايين الأشجار التى تعرف باسم أشجار صنوبر بارانا آلاف الأفدنة ، وتنمو هذه الأشجار إلى ارتفاع كبير يصل إلى مائتى قدم ، وتوجد بعض أصنافها الممتازة التى يصل قطرها إلى ثمان أو عشر أقدام ، ولهذه الأشجار ظاهرة غريبة تعطى غابات بارانا منظرها الفريد ، فإن أغصان الأشجار تنمو فى دوائر بدلا من أن تخرج متعاقبة من جذوعها ، وهكذا تدور مجموعة من الأغصان حول جذع الشجرة ، وهكذا تتوالى الأجزاء العارية ودوائر الأغصان الملتفة حول الشجرة ، وهكذا تختلف هذه الأشجار عن أية أشجار أخرى ، وتعطى العقد الناتجة عن ذلك فى الخشب نقشة طريفة يستخدمها النجارون فى شتى صناعاتهم الزخرفية - من كيات المصابيح Lamp - shades والصواني إلى مختلف ألوان الأثاث ، ويصنع الورق من لب خشب

الصنوبر ، وهذه صناعة جديدة بدأت في الولايات الثلاث عندما توقف الإمداد بالورق من خارج البلاد لإبان الحرب العالمية الثانية .

ولكن أعظم هبة قدمتها هذه الغابات الجنوبية لكل البرازيل هي الـ (ماتي) ، والذي يعرف أيضاً باسم شاي براجواي ، ويصنع الشاي من أوراق شجيرة صغيرة من عائلة الإيليكس ، وتنمو هذه الشجيرات برية في الأراضي العالية من غابات صنوبر بارانا ، ويلتقط أوراق الشاي من أراد ، ولكن مع هذا صار جمع هذه الأوراق صناعة حقيقية ، إذ يجب أن تجمع وتجفف ، بل وأحياناً تدخن وتعد للسوق ، وتبعد أحراش أشجار الماتي بعداً شاسعاً عن المدن ، فتخرج جماعات من الرجال ومعها معدات إقامة معسكر ، وتأخذ معها حاجتها من الغذاء ، بما في ذلك الأبقار الحية ، ويتمون في هذه الغابات طوال كل صيف ، ويعملون من ديسمبر إلى يوليو ، فيجمعون الأوراق من شجيرات الماتي وينشرونها على الأرض لتجف ، ولكي يمكن حزم الأوراق الكثيرة الوبر في شحنات صغيرة فإنهم يحزمونها في جلد البقر . . . الجلد الخام غير المدبوغ . ولما كان هذا الجلد ينكمش ويتقلص في الشمس والهواء فإنه يضغط أوراق الماتي حتى يجب انتزاعها بقوة بعضها من بعض فيما بعد ، ثم ترسل هذه الحزم إلى المصانع في المدن حيث تفرز الأوراق وتفرم ثم تعبأ .

وتجد هذا الشاي في كل المستودعات والمتاجر الصغيرة في طول

البلاد وعرضها ، وثمنه قليل جداً بالنسبة لسعر الشاي العادى الذى يقال له « الشاي الصينى » أو « الشاي الانجليزى » ، وقد زرع هذا النوع من الشاي فى البرازيل ، ولكن زراعته لم تلق نجاحاً كبيراً . ولهذا فإنك إذا طابت كوباً من الشاي فى أى مقهى صغير متواضع فثق أنهم سيقدمون لك الماتى فى إريق شاي مع كوب وإناء للسكر وما إلى هذا من المستلزمات التى تقدم عادة مع الشاي الذى ألفنا شربه .

ولأهل جنوب البرازيل عاداتهم الخاصة بشرب الماتى، فهم يمزجون بعض أجزاء الاوراق المفرومة مع السكر فى قرعة صغيرة على شكل السكرى يطلق عليها الهنود « ماتى » ، ومن هنا جاء لهذه الاوراق اسمها الذى تعرف به الآن ، والمألوف أن تزين هذه « التمرعات » أو تغلف بالفضة ، ويرسم على هذا الغلاف بعض الرسوم ، ثم يحفر عليها أسماء أصحابها ، ويسكب الماء الساخن على هذا المزيج من الاوراق والسكر ، ثم يمتص الشراب بوساطة أنابيب خاصة أو « بومبيلا » على ما يطلق عليها البرازيليون ، وفى أطراف هذه الأنابيب تتوء « بروز » بصلى الشكل مشتبوب يحول دون امتصاص الرواسب « العكارة » ، وقد تملأ « القرعة » بالماء الساخن أكثر من مرة ، لأن أوراق الماتى تفقد قوتها بدرجة أبطل مما تفقدها أوراق الشاي الذى نحتسيه نحن ، ثم إن المتنوع لا يتحول إلى مذاق مر بكثرة غايانه ، ويتناول الناس الماتى فى أقاليم لإنتاجه عدة مرات فى أثناء النهار ، كما يحتسى غيرهم القهوة فى أقاليم أخرى من أرض البرازيل . ومن المناظر المألوفة فى الصباح البارد أن تجد بعض

الرجال يستندون إلى جدران دورهم في الشمس يتناولون فطورهم السائل من الماتى خارج الدور ، وقد أطبقوا بأيديهم على آنية الماتى لتدفئتها ، ويمتصون السائل بوساطة الأنابيب « البومبيلات » ، وبعد برهة يخرج أحد الناس مسرعا من المطبخ حاملا غلاية فيضيف مزيداً من الماء الساخن إلى كل إناء .

وكان رجال الإرساليات الأولى قد وجدوا هنود « الجواراني » يحتسون الماتى ويسافرون لأيام دون أى غذاء غيره ، وعندما نقل « الماتى » إلى أوربا أطلقوا عليه اسم « شاي براجواى » ، ذلك لأنه شحن على السفن التى سارت به فى النهر عبر أرض براجواى . وكان الرهبان الجزويت الذين يعيشون فى براجواى هم الذين نشره بين الناس . وتروى بعض القصص الانجليزية القديمة أن الماتى كان يقدم فى الحفلات . غير أن الشاي الشرقى كان قد انتشر فى العالم على يد الانجليز ، ومن ثم ترك الماتى لأمريكا الجنوبية فكان المشروب الوحيد الأساسى فى كل مكان للجنوب من سان باولو بين المحيطين الاطلسى والهادى .

وفى ولاية بارانا مدينتان حديثتا البناء وافرتا الحركة ، وتقع « كوريتيبا » عاصمة الولاية فى منطقة المرتفعات ، وهى مركز إقليم الزراعة وقطع الأخشاب الذى يحيط بها . ويزهى السكان بسقوط الثلج الذى يحدث مرة أو مرتين فى حياة الفرد العادى ، وتبدده الشمس بمجرد سطوعها .

ويربط العاصمة كوريتيبا بالمدينة الأخرى وهى ميناء بارانا جو خط

حديدي بالغ الإثارة ؛ إذ يسير القطار لثلاث ساعات وسط أنفاق خانقة وفرق جسور « كبرى » وقناطر معقدة تعطى الراكب إحساساً بأنه فى قطار بمدينة الملاهى . وفى بارانا جوا أجمل مرفأً طبيعى فى البرازيل ، ومن ثم فإنها قد تبرز وتسبق سانتوس وريودى جانيرو يوماً ما .

ولكن الواقع أن زوار هذه الولاية إنما يجهشون لرؤية مسقطى الماء العظيمين على نهر بارانا ، ولتد ظلا فترة قصيرة فى إقليم اجواسو ، إلا أن هذا الإقليم الذى كان قد اقتطع من ولايتى بارانا وسانتا كاترينا قد عاش لوقت قصير ولم يعد له وجود اليوم . وكان قطاع صغير من نهر بارانا الطويل يشكل حدود هذا الإقليم الغربية ، وكذلك الحدود التى تفصله عن إقليم بونتابورا Ponta Pora . يفصل بين اجواسو وبونتابورا ، وبين ماتو جراسو وباراجواى . وفى النقطة التى تلتقى فيها هذه البقاع نجد « سيقى كويداس » ، أى المساقط السبعة . ولكن باستخدام طرق مختلفة للعد فى أوقات مختلفة من السنة قد يبلغ عدد المساقط عشرين مستقطاً ، لأن نهر بارانا الأعلى — الذى يبدو كالبهيرة — يندفع فجأة من خلال خنادق عديدة ، وتقفز مياهه قفزات رهيبية من المستويات العالية إلى المستويات المنخفضة .

وهكذا فإنه بدلاً من أن يكون هذا الطوفان مستقطاً واحداً مثل نياجرا ، نراه يتقسم إلى أقسام عديدة ، إلا أن كمية المياه الكلية أكثر من ضعف كمية مياه نياجرا . وتزأ هذه المساقط الكثيرة بصوت أعلى بكثير من زئير مستط نياجرا بسبب الأصدااء المخيفة التى تتردد جيئةً وذهاباً فى الخنادق

العميقة ، والموقع رومانسي جامع ، ولكن ما أجمل منظر أقواس قزح التي تتكون في الرذاذ المتطاير الذي يعلو هذه المساقط .

أما المساقط الأخرى التي تثير الإعجاب على نهر بارانا فهي مساقط أجواسسو التي تعني « المياه العظيمة » باللغة هنود الجواراني. ولا تقع مساقط أجواسسو على مجرى نهر بارانا ، بل على مسافة قصيرة أعلاه على نهر أجواسسو ، وينبع هذا الرافد في ولاية بارانا ثم يسير في اتجاه جنوبي شرقي ليكون الحد الفاصل بين البرازيل وبين أحد أركان الأرجنتين، وهنا يتفرد النهر فجأة فوق نفس الحاجر الصخري الذي يكون المساقط السبعة على بعد مائتي ميل إلى الشمال .

ويحاول الناس دائماً أن يثبتوا أن مساقط « سیتی کویداس » أكبر من مساقط أجواسسو ، أو أن يثبتوا العكس ، وأن كليهما أعظم من نياجرا . على أن الأرقام تدلنا على أن مساقط أجواسسو ضعف مساقط نياجرا سعة وأعلى منها بثلاث وأربعين قدماً ، ولكن من الصعب أن نقارن منظر أو هيئة هذه المساقط البرازيلية بمنظر مسقط أمريكا الشمالية وذلك بسبب أن المساقط البرازيلية تنتشر في حيز واسع ، فإن قسمي مساقط أجواسسو ينقسمان بواسطة الصخور الناتئة البارزة إلى مئات الشلالات ، ولكل منها اسم خاص به ، وكذلك فإن جزيرة تيرتل (السلحفاة) في وسط المجرى الرئيسي تنقسم المنظر الكامل للمساقط ، وهكذا فإن الوسيلة الوحيدة لكي ترى مساقط أجواسسو في صورة واحدة متكاملة هي أن تنظر إليها من الطائرة عبر سحيف الضباب وأقواس قزح التي تكونها .

وتعيش أجمل أنواع الأزهار على رذاذ هذه المساقط ، وتغذى أسراباً كبيرة من الفراش ، مما يجعل السير في الغابات ممتعاً ، ويؤدي بك أحد الطرق وسط الغابة إلى نقطة مراقبة تستطيع عندها أن تحدق إلى أسفل بما يعادل عشرين طابقاً إلى « سالتوينيو » أى « قفزة الاتحاد » وسط السيل الجارف الذى يندفع فى خانق يطلقون عليه « حلق الشيطان » ، ويجرى خط التقسيم بين البرازيل وبين الأرجنتين وسط « سالتوينيو » ، وعند هذه النقطة تبدأ حديقة الأرجنتين العامة (الوطنية) . ويوجد هنا مظهر جغرافى غريب ، حيث تمتد أراضي الأرجنتين على شكل لسان ضيق بين إقاييم اجواسو البرازيلي وبين باراجواى . وسبب ذلك أن نهر بارانا ينحنى انحناء حاداً إلى اليسار .

وتتملك طائرة من اجواسو عبر ذيل البرازيل الجنوبي الذى لا يقل غرابة عما شاهدته ، وتهبط بك الطائرة فى أكبر مدن الجنوب « بورتو أليجرى » أى الميناء السعيد عاصمة ولاية ريو جراند دوسول ، وسوف تلقى بنظرة خاطفة إلى سانتا كاتارينا (سانت كاترين) عندما تطير فوقها وتتوقف بك الطائرة لتزود بالوقود .

ولهذا الطرف من البرازيل الذى يمتد على الساحل جنوباً تاريخ طويل مثل باقى أمريكا الجنوبية ، فيقال إن الحملة البحرية التى كان أمريجو فيسبوتشى Amerigo Vespucci يقود إحدى سفنها كانت أول حملة نزلت بهذا الساحل سنة ١٥٠٢ ، وبعد هذا بقليل تحطمت سفينة برتغالية هناك وعاش بعض

ملاحيا الذين وفتقوا للسباحة إلى الساحل لعشرة أعوام في جزيرة سانتا كاتارينا ، ولاند قامت مدينة فلوريانوبوليس أو « مدينة الأزهار » عاصمة ولاية سانتا كاتارينا في المكان الذي قامت فيه يوماً أكواخ هؤلاء الملاحين الذين صنعوها من الحشائش .

ولكن البرتغاليين كانوا أكثر اهتماماً بالأراضي الشمالية الأكثر دفئاً ، لأنها كانت أصالح لإنبات قصب السكر باستخدام الرقيق الذين جرى بهم من إفريقية ؛ فلقد كانت أوروبا منمتونة بالحلوى ، وكان السكر لونا جديداً من ألوان الترف ، وكان يباع بأعلى الأسعار ، هذا فضلاً عن أن البابا كان قد أعطى إلى إسبانيا كل ولايات بارانا وسانتا كاتارينا تهرباً مع ولاية ريو جراند دوسول ، وقد أدى هذا إلى منازعات طويلة دون إقامة مستوطنات دائمة هناك ، بل إن هذا الإقليم لم يكن داخل في حدود الحكومة البرتغالية الأولى في البرازيل .

وهكذا تعطل التطور الزراعي لهذه الولايات الثلاث حتى تم استقلال البرازيل ، وعندئذ قدمت الحكومة البرازيلية عروضاً مختلفة اجتذبا للهاجرين من أوروبا ، وبدأت الجماعات تفد لإعداد المستوطنات والمستعمرات والمزارع الأسرية التي نمت حتى صارت اليوم هذه المجتمعات الحديثة الموفورة الرخاء التي نجبها الآن .

ولم تسكن هذه المزارع الصغيرة لتتأرن بالمزارع الفسيحة في باقي أنحاء البرازيل حيث كان ملك البرتغال يمنح عدة أميال مربعة للمالك واحد .

وفي البداية كان الناس من كل جنسية يعيشون معاً ، ولند أخذ الألمان جزءاً من الأرض جعلوا منه ألمانيا مصغرة في البرازيل ، وأقام المهاجرون البولنديون مزارعهم وقراهم على مثال مزارع وقرى بولندا ، ثم جاء الإيطاليون في تاريخ لاحق ليزرعوا الكروم والخضراوات في مزارع أشبه بمزارع إيطاليا .

وقد حدث شيء مثل هذا في الولايات المتحدة حيث استوطنت مناطق فسيحة بالألمان والبولنديين واللواتين والإيطاليين ، ولكن على تقيض المهاجرين الذين نزلوا أرض الولايات المتحدة والذين صار أبنائهم أمريكيين حتميةً فإن مهاجري البرازيل قد ظلوا أوروبيين ، ولبشوا عدة أجيال لا يتحدثون غير لغاتهم ويعلمون أبناءهم في مدارسهم الخاصة بهم ، وقد عاشوا بمعزل عن غيرهم ولم يمتزجوا بالبرازيليين الذين يتحدثون اللغة البرتغالية إلا بأقل قدر ممكن .

ومدينة بلوميناو Blumenau التي أنشئت قبل مائة عام نموذج لبلدة ألمانية في أرض البرازيل ، ويسكنها اليوم أربعون ألفاً ، وقد فعل منشئها — وهو طبيب ألماني أطلق اسمه على المدينة — أكثر مما فعله أى فرد آخر وحده لاستيطان ولاية سانتا كاترينا واستعمارها ، ولا تزال جوانفيل Joinville - وهي من أقدم هذه المستعمرات - تحتفظ حتى اليوم بطابعها كمدينة ألمانية ، وفي كليهما - بلوميناو وجوانفيل - كثيرون من المواطنين الشقر ذوي العيون الزرقاء . والواقع أن الناس السمر البشرة نادرون في هذه المناطق ؛ ذلك لأن العبيد الذين كان يملكهم المستعمرون كانوا في

الغالبية من خدم المنازل ، وقد زرع الأوروبيون الأرض بأيديهم وحدهم .
وتنتشر صناعة قطع الخشب في هذه الولاية وتكثر فيها مناشر
الخشب ، ولهذا نجد هنا - كما وجدنا في بارانا - المنازل التي تصنع قواعدها
وأركانها من الخشب على مثال ما في أمريكا الشمالية ، وبخاصة في الأقاليم
التي يسكنها البولنديون ، وحتى المباني المشيدة من الآجر في سانتا كاتارينا
تقوم على دعائم خشبية ، كما هي الحال في ألمانيا ، وتصنع عربات المزارع
على الطراز الألماني أو البولندي ، فتبدو غريبة قديمة الطابع في هذه الأرض
الجديدة الحديثة .

ومع أن كل ولايات البرازيل تنتج الرز إلا أنه يفسح المكان هنا
جزئيا للقمح وغيره من حاصلات المناطق المعتدلة . وقد أدخلت أساليب
الزراعة الأوروبية إلى سانتا كاتارينا ، كما أدخلت زراعة الحبوب والفواكه
الأوروبية ، ولا تنقل السفن من الموانئ الكثيرة الحركة إلى سائر أنحاء
البرازيل الأخشاب والفحم والماتى فحسب ، بل وتنقل أيضاً التفاح
والكمثرى والعنب وغير ذلك من فاكهة الأجواء الباردة ، كما تنقل البطاطس
والبصل . وقد كان هذا كله يستورد من الخارج من قبل ، وتتضمن
الصناعات المزدهرة في كل من ولايتي بارانا وسانتا كاتارينا صناعات الجبن
ولحم الخنزير والسجق وحفظ الفاكهة والخضراوات ، بالإضافة إلى صناعات
الأحذية والأثاثات والأدوات المعدنية .

وعندما نعبّر حدود ولاية ريو جراند دوسول في اتجاهنا للجنوب

فإننا لا نزال نجد أنفسنا في أقاليم تغلب عليها مستعمرات الأوربيين ويرجع الفضل إلى الألمان في لإنشاء المزارع والصناعات في ريو جراند وبخاصة في العاصمة بورتو أليجري وما حولها . ويطلق عليها اسم المر السعيد بسبب موقعها الجغرافي على المحيط حيث تستطيع السفن عباء المحيطات أن ترسو في مكان داخلي آمن عند الطرف العلوى « لبحيرة البط (لاجودوس باتوس) » .

ومن الغريب حقاً أن هذه الكتلة الأرضية الفسيحة للبرازيل تكو تخلو من البحيرات ، فيما عدا تلك المتصلة بالأنهار وبالمحيط مثل بحير لاجو جراند على الأمازون ، والبحيرات المالحة على طول ساحل البحر وأكبر هذه البحيرات « بحيرة البط » ، إذ تمتد لمسافة مائة وخمسين ميلاً بسعة ثلاثين ميلاً ، وقد كونتها حركات المد والجزر التي تعمل جيئة وذهاباً وراء خط من الشعب والصخور الساحلية ، وعندما رآها المستكشفون ظنوها خليجاً مصبياً واسعاً لنهر عظيم ، ومن ثم أطلقوا عليها « ريو جراند - أى النهر العظيم - وقد أطلق الاسم على الولاية كلها حتى بعد أن عرف كل الناس أن نهرهم العظيم لم يكن سوى بحيرة البط .

وتكثر هذه الظاهرة الجغرافية على طول هذا الجزء من ساحل الأطلنطي ، فهناك مئات من البحيرات والخلاجان الصغيرة والكبيرة المنفصلة عن البحر ، ولقد كان يشك في أن هذه البحيرات والخلاجان مخارج للغواصات في أثناء الحرب العالمية الثانية ، ذلك لأنه كانت لهتلر خطة محكمة لإقامة دولة نازية في أمريكا الجنوبية تتكون من طرف البرازيل الجنو

والولايات المجاورة له من الأرجنتين ، وكان النازيون من سكان المستعمرات الألمانية في جنوب البرازيل منظمين تنظيماً جيداً وعلى استعداد لتسليم إقليمتهم لألمانيا النازية ، كما كانت توجد عناصر مماثلة في الأرجنتين المجاورة ، وكان هذا جزءاً من مشروع كبير يقوم على أساس تقطيع كل أوصال البرازيل والقيام بغزو نازي لأمريكا الجنوبية ، ولكن البرازيل انضمت للحلفاء في الوقت المناسب لتحافظ على تماسك بلادها .

ولقد كانت ولاية ريو جراند - بمواردها الغنية ومدنها الحديثة وموانئها الجيدة - ذات حساسية خاصة بالنسبة إلى الأطماع الهيترية الواسعة لسببين : أولاً ، بسبب العدد الكبير من سكانها الأجانب الذين لا تربطهم مشاعر وطنية بالأرض التي ولدوا فيها ، وثانياً ، بسبب تاريخها الثوري الطويل ، فلقد ثارت الولاية عدة مرات ضد الحكومة المركزية .

ولكن « الريوجرانديز » كما يسمى سكان ريو جراند أنفسهم ليسوا كلهم بالأجانب أو بالنازيين . والواقع أن سهول ريو جراند الواسعة التي ترعى فيها الماشية يسكنها برتغاليون جاء الكشرون منهم من جزيرة ماديرا ومن جزر الآزور بعد عراك مع حكومة البرتغال . وقد امتزج هؤلاء الشوار الأشداء في تاريخ مبكر بقبائل ضارية من الهنود تشبه هنود السهول في أمريكا الشمالية ، فنشأ عن ذلك الاختلاط جماعة « الجاوتشو » Gaucho المحبة للحرية والتي لا يعرف أفرادها الخوف . وعندما يجتاز المسافر المزارع المنظمة بما فيها من خناير وأبقار ، ويمر بحقول الغلال وكروم العنب ، ويرقب الطرق الممهدة والخطوط

الحديدية وهذه الحركة المستمرة ، ثم ينتقل إلى أرض رعاة البقر فإنه يجد عالماً مختلفاً تماماً . لأنه يرى تكساس أخرى ، ولكنها ليست تكساس الحالية بما فيها من مزارع الترفيه وجو الصور المتحركة ، بل تكساس القديمة الموحشة التي كانت موجودة قبل خمسين عاماً .

ويرتدى رعاة البقر البرازيليون سروالا واسعاً على الطراز التركي يسمى « بومباتشا » - يدخلونه في أحذيتهم العالية المزخرفة التي تجلجل فيها المهايمز الفضية ، كما يحيطون وسطهم بحزام عريض مزدان بمعادن لامعة - يحمل مسدساً أو على الأقل سكيناً خفيفة في غمد من الجلد ، وتغطي رؤوسهم قبعات « السومبرير » Sombrero التي تثبت بشريط من الجلد يلف حول أسفل الذقن ، ويحيطون أعناقهم بهنديل مزخرف فوق قميص من القماش الزاهي اللون ، وتكتمل معداتهم بالعباءة التي تسمى « بونتشو » Poncho ، ويبدو « البنجو » المهر المدرب مرحاً هو الآخر بسرجه المزخرف ، ولبجامة المغطى بالفضة وبالألوان المعلقة إلى جانب السرج ولا يزالون في بعض مراعى تربية الماشية يستعملون « البولا » ، و « البولا » عبارة عن سوطين أو ثلاثة سياط من الجلد في أطرافها كرات تدور حول أرجل العجل وتطرحه أرضاً ، وتستخدم « البولا » أيضاً لاصطياد « الايمو » - وهو النعام الصغير الذي يعدو في جماعات عبر البراري .

ولا يرتدى رعاة البقر هذا الطقم المزخرف الجميل ليشتبكوا في مباريات الركوب ، أو ليذهبوا إلى المدينة للزهو بما يرتدون ، وإنما

يرتدون ثيابهم الخاصة هذه لأنهم يعيشون حياتهم على ظهور الخيل ويرعون الماشية ، ثم لأنهم من الجاوتشو ، وهذا هو الطراز الصحيح لثياب « الجاوتشو » .

وأهل ريو جراند شعب قوى مرح ، وعاش الناس حياتهم هذه لأجيال كثيرة في أرض يتوافر فيها الغذاء ، فالحم البتر يمد لهم بالنمو ، و « الماني » يزودهم بالفيتامينات . وقد تعاقبت أجيالهم وهم يقاتلون من أجل حريتهم ويرقصون رقصتهم الوطنية « رانشيرا » ، وينشدون أغنيات رعاة البقر ويروون أقاصيصهم للبتعة والسرور .

ويتكلم « الجاوتشو » لغة برتغالية مختلطة بكثير من الكلمات الإسبانية ، وبعض أغانيه إسبانية الأصل ، ويعزف على الجيتار بإيقاع متقطع يختلف تماماً عن الإيقاع المتأخر النبرات المعتاد في الولايات الواقعة إلى الشمال ، ويغنى الجاوتشو أحياناً بصوت ذى طبقات عالية متكلفة ، كما يغنى الإسبان في الأجزاء التي احتلها العرب .

ولكن الجاوتشو أول من ينسکر أن فيه أى طابع إسباني ، وبالرغم من أن البرازيليين قد استقروا على الجانب الآخر من خط الحدود المشتركة مع الأرجنتين ، وأن الأرجنتينيين قد اعتادوا اجتياز الحدود إلى داخل أرض البرازيل ؛ فقد كانت منازعات الحدود في الماضي من الكثرة بحيث جعلت من القومية على جانبي الحدود مسألة عزة ووطنية .

وبينما كانت ولاية ريو جراند تمتاز بجيئة وذهاباً بين الإسبان الذين

زعموا لأنفسهم أولاً الحق في تملكها وبين المستوطنين البرتغاليين القلائل الذين حاولوا الاحتفاظ بها في أيديهم ، كانت قطعان من الماشية والخيول الوحشية تنمو وتزايد وسط الحشائش الكثيفة التي تغطي السهول المرتفعة ، ولا يدري أحد كيف جاءت هذه إلى هناك ؛ إذ أثبت العلماء أن الخيل والماشية لم تكن معروفة في الأمريكتين في عصور ما قبل التاريخ . ولهذا فإنه يظن أن هذه القطعان الوحشية التي تملأ الأرض في داخل ولاية ريو جراند دوسول من نسل العدد القليل من الماشية والخيول التي فرت من جماعات الاستكشاف الإسبانية التي عبرت حدود الولاية جيئة وذهاباً في طريقها من باراجواي وإليها بحثاً عن الذهب ، وعلى أية حال فإنه عندما اندفع المستوطنون إلى داخل أرض الولاية فإنهم وجدوا في هذه الحيوانات ثروة أعظم من الذهب الذي كان الإسبان يبحثون عنه .

ولم تكن هناك وسيلة لتملأ اللحوم إلى الأسواق العالمية قبل أن تقوم المصانع الكبيرة للتعليب وتبنى سفن التبريد . ولهذا استخدم الرواد الأولون طريقة الهنود لتجفيف لحم الغزلان وغيرها من حيوانات الصيد في الشمس ، كما تعلموا أن يملحوا هذا اللحم ، وأطلقوا على هذا اللحم المجفف الاسم « خاركوى » Xarque وتنطق « تشاركوى » Charque بالإسبانية . وقد انتشرت هذه الطريقة في أنحاء كثيرة حتى وصلت إلى ولاية تكساس شمالاً وإلى باتاجونيا جنوباً ، ولا تزال هذه الطريقة من

أفضل الطرق العملية لحفظ لحم البقر . ويملح الخار كوى بعد أن تنزع عنه العظام ويخزن فترة ، ثم يملح ثانية ويعلق فوق حمالات في الشمس ليخفف ، ويستمر هذا التمليح والتجفيف المرة بعد الأخرى تبعاً للجو حتى يغطي كلا جانبي لحم العجل بطبقة دهنية سميكة ، وبذلك يمكن الاحتفاظ باللحم لوقت طويل ، ويرسل هذا اللحم إلى كل مكان في البرازيل . ومع أن مناطق الماشية في الولايات الأخرى تنتج كميات كبيرة من لحم البقر المجفف ، إلا أنها دائماً في حاجة إلى مزيد منه ، لأن كل طبق جيد من الفول الأسود (الذي يكاد جميع البرازيليين يأكلونه ظهراً) — لابد وأن يحتوي على بعض هذا اللحم الشهى المذاق .

ويعرف « الجاوتشو » جميعاً كيف يعد « الخار كوى » وإن كانت مصانع اللحوم الحديثة تقوم بإعداد الكثير منه . ويحول كل سنة نصف مليون رأس من الماشية إلى لحم مجفف ، وهذه الكمية — بالإضافة إلى اللحم الذي تعده معامل التبريد الكبيرة في ريو جراند — قد جعلت البرازيل رابعة الدول التي تنتج لحم البقر في العالم .

ولقد أدخلت حديثاً إلى البرازيل الماشية الأوروبية الضخمة التي تربي وتسمن من أجل لحومها ، وقد هجنت هذه السلالات مع القطعان التي كانت وحشية يوماً ما ، وتمر ولاية ريو جراند ودوسول بمرحلة جديدة في تحسين تربية الماشية مما يشبه تاريخ ولاية تكساس .

والأرض التي تربي فيها الأبقار البرازيلية طريفة جداً ، ولكن
قلما يزورها الرحالة الأجانب ؛ لأن سانتوس تكاد تكون أقصى نقطة
جنوبية يبلغونها ، وسواء أكان مجيئهم للنزهة أم للعمل ، فإنهم يعتبرون
الساحل من سانتوس إلى الشمال هو الجزء الخلاب الأخاذ من البرازيل ،
ولهذا السبب فإننا نذهب من فورنا إلى هناك .

باهيا

شاهدت حتى الآن في لمحات قصار الجزء الأكبر من أرض البرازيل. الفسيحة ، ولربما تشعر بأنك رأيت أكثر من برازيل واحدة . رأيت وادي الأمازون العلوى الغزير المياه ، وشاهدت ولايتي براري الأمازون ماتو جروسو وجوياسي ، ورأيت مدينة ريو دي جانيرو بما حولها من مشاهد قديمة وحديثة ، وزرت سان باولو الزراعية والصناعية ، ثم رأيت الجنوب القصي بطابعه الحديث تملؤه الحركة ، وكل هذه المناطق التي زرتها تختلف. وتنبأني إلى درجة كبيرة قلما تشاهد داخل حدود دولة واحدة ، ومع هذا فإنك تكاد الآن ترقب برازيل أخرى تختلف عن كل ما رأيت حتى الآن.

فإلى الشمال من ريو دي جانيرو — من انبعاث البرازيل حتى مصب نهر الأمازون — توجد مدن البرازيل القديمة بمبانيها التاريخية وحضارتها القديمة ، وهي تختلف بعضها عن بعض إلى أقصى درجة يمكن أن تختلف بها مدن في نفس الدولة ، ولكل منها تقاليدها وسكانها الفخورون بماضيهم ، ويستطيع الأجانب أن يتيقنواهم وأن يميزوا بينهم عندما يقابلونهم في طرقات ريو دي جانيرو ، وأن يحكموا من فورهم — بملاحظة سماتهم وسلوكهم أو حتى بالإنصات لنبرات أصواتهم وهم يتحدثون اللغة البرتغالية — إذا كان الناس الذين يرونهم قد جاءوا من باهيا أو من برنبروكو أو من بارا ، كما يستطيع أى فرد يعرف البرازيليين جيداً أن يحكم بما إذا كان الشخص الذى يلقاه في الطريق من أهالى سان باولو أو ريو جراندي ، ويحسن

ألا تخطيء فلن يغفر لك أحد أن تظنه من ولاية غير تلك التي هو منها فعلا على نقيض الناس في الولايات المتحدة عندما تتملق أى أمريكى بأن تقول له إنك تظنه من نيويورك ، فإن هذا يسره ويسعده .

وتكثر حركة النقل البحرى على هذا الساحل ، ومع أن الغواصات الألمانية قد أغرقت ثلاثين سفينة برازيلية ، فلا يزال الأسطول البرازيلى التجارى كبيراً ، وتملك الحكومة بعض السفن ، كما تملك شركات الشحن الخاصة البعض الآخر ، ويفرض القناتون على السفن البرازيلية التوقف فى ميناء من مرانىء كل ولاية، وكل من هذه الموانى هى بمثابة ميناء شحن لمنطقة داخلية تختلف حاصلاتها عن حاصلات غيرها .

وهناك — بالإضافة إلى ذلك — سفن تابعة لدول أخرى تتف على مينائين أو أكثر فى طريقها المباشر إلى أوروبا وأمريكا الشمالية . ولا توجد حركة نقل مستمرة على الخطوط الحديدية إلا بين ريو وباهيا . على أنه يجرى خط حديدى لمسافة ألف ميل بين باهيا وميناء على نهر سان فرانسيسكو . أما إلى الشمال من منطقة ريو — ميناس فإن الخطوط الحديدية القليلة لا تسير فى الداخل إلا لمسافات قصيرة ، وعلة هذا أن شبكة الأنهار كبيرة جداً ، ثم إن السفن الساحلية تتموم بالعمل بكفاية إلى الحد الذى لا يترك فرصة للخطوط الحديدية . هذا فضلاً عن أن الخطوط الجوية تنمو وتزايد بسرعة ، ومن ثم ستواجه الخطوط الحديدية معوقاً جديداً ، وتعمل الخطوط الجوية القومية بين ريو وبلم عند مصب نهر الأمازون . وتواجه الخطوط الجوية القومية منافسة شديدة من عدة خطوط جوية أجنبية .

وستتوقف طائرته في فيتوريا العاصمة الصغيرة لولاية إسبيريتو سانتو للحصول على وقود، وهذا الميناء هو حالياً المنفذ لمصانع الصلب العظيمة في فولتا رودندا بولاية ريودي جانيرو، وهي مدينة قديمة جميلة فيها دير محصن قديم بني على جزيرة في الخليج لحماية الميناء .

والآن فلنذهب إلى « بايا » أو باهيا ، كما كان اسم الولاية والمدينة يكتب قبل أن تبسط تهجية كلمات اللغة البرتغالية ، ويحبها أهل أمريكا الشمالية بسبب الجزء القديم البهيج فيها وبسبب سحر وخفة روح سكانها وميلهم إلى المرح ، ويجب البرازيليون باهيا لأنها مولد ثقافة بلادهم ، فقد كانت العاصمة القومية في أكثر فترات تاريخها إثارة ، والواقع أن باهيا في أيام الاستعمار البدائية كانت المدينة الوحيدة على ساحل الإطلنطي التي يعيش فيها العلماء والشعراء ، وكانت المنافس البرتغالي للبا الإسبانية الأنيقة في أرض بيو في الجانب المقابل على ساحل المحيط الهادي .

وأثرى أهل باهيا من تجارة الرقيق ومن زراعة قصب السكر ، وكان أغلب تجار الرقيق البرتغاليين يجهشون بالزواج من إفريقية إلى باهيا مما جعلها المركز الأول لهذه التجارة الرهيبة ، وسرعان ما أضيفت تجارة التبغ إلى تجارة الرقيق وقصب السكر ، فتدفقت الثروة على المستعمرين البرتغاليين الذين شيّدوا الدور الكبيرة الجميلة في مزارعهم الفسيحة ، كما بنوا القصور والمباني الحكومية في المدينة ، وفوق ذلك كله أقاموا الكنائس التي تشتهر بها المدينة .

واسم باهيا الكامل « سنان سلفادور دى باهيا دى تودوس أوس سانتوس » أى « القديس المنقذ للخليج كل القديسين » وكانت المدينة مركز الديانة الكاثوليكية فى العالم البرتغالى الجديد ، كما أصبحت من تاريخ مبكر مدينة الكنائس . ويفخر أهل باهيا اليوم بأن فى بلدهم ٣٦٥ كنيسة ، أى كنيسة لكل يوم من أيام السنة ، وقد يكون الموجود فعلا نحو ربع هذا العدد ، ولكنه مع هذا يكفى لإقامة حفل festa كل يوم مما يبقى المدينة دائماً فى احتفالات مستمرة .

وتعطى واجهة إحدى كنائس باهيا الشهيرة بحجر مخرم منحوت ، ولكثير منها أبواب مزخرفة مع زينات وزخارف خارجية جميلة ، ولكن أغلبها بسيطة المظهر من الخارج ، إلا أن داخلها مزخرف فى كل مكان يتسع لتحفة محفورة أو لإطار صورة مرسومة ، وتغطى واجهات جدران المماشى والدهاليز وغرف الأشياء المقدسة والملابس الكهنوتية Sacristies بقرميد أزرق أو « آزوليغوس » نفيس فاخر بديع ، وقد استعمل البرتغاليون هذا القرميد لصنع الصور الكبيرة المجسمة التى تقدم قصص الكتاب المقدس والأساطير الكلاسيكية والتعبيرات الرمزية على مثال الرسوم المعبرة عن الحواس الخمس والفصول الأربعة ، ولا يكون هذا القرميد الأزرق دائماً باللون الأزرق ، بل لأنه يجيء فى كل ألوان الباستيل اللازمة لرسم الأزهار المتعددة الألوان ، ولقد نقلت هذه الزخرفات الغالية الثمن بوساطة السفن من البرتغال ، وعادت السفن محملة بالسكر والتبغ ، وكثيراً ما كانت السفن تجيء محملة بأحجار البناء البرتغالية وبالرخام مما استخدم فى إقامة جدران الكنائس .

وبعض هذه الكنائس القديمة جميلة الرواء ، وخاصة من الداخل ، وفيها نقوش جميلة من الخشب مغلفة بقشرة من الذهب ، ولا تزال الأديرة الكبيرة المليئة بالآثاث المنقوشة بالخاروف تدير مدارس ومعاهد لتعليم شباب البرازيل ، وتعتبر باهيا حتى اليوم أفضل مركز للتعليم في كل شمال البرازيل .

وتتسم المباني العامة والمسكن الخاصة القديمة ببساطة مظهرها الخارجي، ولكن من يدخلها يجدها متاحف حقيقية مليئة بكنوز من مخلفات عصر الاستعمار ، وتحف هذه الدور بالطرقات الضيقة المرصوفة بالاحجار ، ولا تبعد أكثر من خطوات عن الطرق الحديثة الواسعة المرصوفة بالأسفلت والتي تزدهم بالخوانيت الجميلة والفنادق والمقاهي .

وتزين الحدائق والأبنية الداخلية Patios في كل مكان بالصور المصنوعة من القراميد والأحواض والنافورات المصنوعة من الرخام ، والأسقف في الغالبية عالية جداً وتشق النوافذ على ارتفاع كبير عند حافات الأسقف وتكون عادة من الحديد المصبوع ، كما ترسم على الجدران بعض المناظر الاستوائية ، وتصنع أرضيات الغرف من الخشب الصلب شرائط طولية أو في رسوم من الباركيه ، وتدهن بالشمع حتى لتسكون كالمراقي اللامعة ، ويصنع الآثاث من خشب « الجاكاراندا » الأسود الأملس كالقטיפه أو من غيره من الأخشاب الثمينة . والعادة أن يحفر خشب الآثاث إلى عمق كبير ويطعم بالعاج أو بالآلىء وبالرخام وبعض السحافه ، وهذا طابع برازيلي خالص ، وتغطي بعض الآثاثات بجلد منقوش أو بأخشاب لامعة متعددة الألوان

فتكون كالفسيفساء ، وتغطي الأسرة القديمة ذات الأعمدة الأربعة بقطع من الجلد الجميلة الرخرقة ، وتستعمل للنوم بدلا من الحشاي (المراتب) .
هذه هي الكنوز التي خلفها الماضي ، وبالرغم من أننا نجد بعض هذه المخلفات في كل المدن التي على الساحل ، إلا أن باهيا تفخر بأن فيها أئمن المجموعات التي بقيت كاملة لاعتزاز الأسر القديمة بماضيها . على أنه قد لا تتوافر الفرصة للأجانب لمشاهدة هذه الكنوز والإعجاب بها ؛ لأن الأسر القديمة المحافظة تعيش في عزلة ولا تميل إلى الاختلاط بالغير .

ونمت باهيا بسرعة في الأيام الأولى وذلك لموقعها الطبيعي الممتاز ، فلقد قامت على جزء من هذه الحافة الوعرة أو هذه الشرفة الجبلية التي رأيتها في أكثر من مكان على ساحل الاطلنطي في الجنوب ، وكان هذا الاختيار بسبب الخليج الرائع الذي يتمتع أسفها والذي تصل مساحته إلى ثلاثين ميلا مربعا . ومع أن المستوطنين الأوائل كانوا دائما على أهبة الاستعداد في مواجهة القراصنة وغيرهم من المغيرين ، إلا أن المدينة كانت آمنة والدفاع عنها سهلا ، وبخاصة بعد أن شيد سكانها اثني عشر حصنا .

وتستطيع أن ترى عدداً من هذه الحصون عندما تدور بك الطائرة في أثناء هبوطها ، وأجملها الحصن الذي يحمل اسم القديس مارسيللو ، وقد بنى في السنة التي أنشئت فيها مدينة بوسطون في الولايات المتحدة .
ويقوم الحصن على صخرة في وسط الميناء ، وهو حصن دائري تماما ،

وكان في وقت ما مسلحاً بعدد كبير من المدافع . وقد أصبحت باهيا بفضل هذا النطاق من التحصينات مدينة قوية آمنة ، كما يتضح لك عندما تدبّن شكل المدينة . فهناك مدينة علوية على الهضبة تسكنها أبراج الكنائس ، ومدينة سفلية على شواطئ الخليج الضيقة تضم « أرصفة » حديثة كثيرة الحركة ترسو السفن إلى جوانبها لتسجن بالبضائع . ويشتمل جو المدينة السفلية بروائح منتجات المنطقة المدارية من الفانييا وحبوب الكاكاو والبن الأخضر وحبوب زيت الخروع والتبغ ، وأحياناً — لسوء الحظ — السمك المجفف واللحم المجفف . وتقوم سوق المدينة على مرتبة من الميناء ؛ وهى سوق من أطراف أسواق البرازيل تسكن فيها الأكشاك المائتة بالمصنوعات اليدوية الوطنية وبكل المعروضات العجيبة للأغذية . ويطهون الطعام في باهيا بطريقة خاصة وتشتهر المدينة في كل أنحاء البرازيل بألوان معينة من الطعام تختص بصنعها المطاعم القريبة من السوق .

ونرى في الصور القديمة للمدينة طرقاً ملتوية وعرة غير ممهدة كانت في وقت ما تربط المدينة السفلية بالمدينة العلوية ، وكان الصعود عليها قاسياً بالنسبة إلى الرقيق المثقلين بالأحمال والبغال التي كانت تنقل البضائع من الميناء إلى حى الأعمال في المدينة العلوية ، ولا تزال هذه الطرق القديمة المرصوفة بالأحجار تصعد إلى أعلى بانحدار شديد ، وتبدو المنازل وكأنها متعاقبة بها . ولكن سكان باهيا في الوقت الحاضر يتنقلون جيئةً وذهاباً بواسطة مصاعد كبيرة كافية تجرى في أبراج من الاسمنت مرتفعة كمناطحات السحاب ، ويزدحم الناس في صفوف طويلة أمام هذه المصاعد وأمام

سالكين غليظين تسير عليهما العربات في ساعات بدء العمل وانتهائه ، كى ينتقلوا بين المصارف والمكاتب والمحازن والمستودعات الموجودة في المدينة السفلية وبين منازلهم في المدينة العلوية .

وتوجد في المدينة السفلية أيضاً المعاهد التي تمكن باهيا من اللحاق بالعالم ، وتجرى في معهد بحوث الكاكو - الذي يزهي بطرازه المعماري الحديث - التجارب التي توضح كل مراحل زراعة الكاكو وصنعه .

وكذلك يقوم معهد بحوث التبغ بدراسة مراحل زراعة التبغ ، ويتولى المعهد الدعاية لأنواع السيجار الفاخرة التي تصنع في باهيا والتي تنافس سيجار هافانا . ويوجد في باهيا أيضاً المعهد التجاري أو الغرفة التجارية ، ثم بورصة الحاصلات الزراعية والحيوانية .

ولكن هذا الجزء من المدينة ليس وقفاً على المتاجر الكبيرة ؛ ففي كل ركن تقريباً نجد متجراً صغيراً طريفاً تديره امرأة زنجية ، وهذه المتاجر الصغيرة « مجرد صواني » أو مناخذ تطوى ومصابع للشيشي يضعها على جانب الطريق ، أو في أبواب الدور صباحاً ، ثم يحملنها معهن إلى دورهن مساءً ، وبضاعتين أنواع شبيهة من الوجبات الصغيرة التي يتناولها الناس في كل ساعات النهار ، كما توجد عدة أنواع من الحلوى التي تصنع من السكر المغلى باللبن ، ثم حلوى لزجة يقال لها « كسكز » Cuscuz تصنع من لبن جوز الهند والسكر ، وجوز الهند المبشور مع دقيق التايوكا .

أما المنصات الأخرى فتكاد تكون مطابخ صغيرة تطهى فيها « يخنه »

خاصة تحتوى على فلفل أحمر ، وتعطر بزيت الدندى الذى يؤخذ من بندق أحد أنواع النخيل ، وبأعشاب تشتري من محال العطارين فى السوق .
وتجده إلى جانب ذلك صحناً من جوز الهند المبشور التى تنثر كمية منه على كل طبق يقدم للبشرى ليأكله فى نفس المكان ، وتبيع بعض النساء السمراوات فطائر ساخنة من جذور الكاسافا المبشورة التى تشوى على نار فحم الخشب ، وكل هذه من ألوان الطهى التى تشتهر بها باهيا والتى جاءت أصلاً من إفريقية .

وتتمتاز البائعات اللاتى يقفن على جوانب الطرق بأنهن يرتدين مآزر ذات شيا « تنورات مكشكشة » طويلة فضفاضة من القطن فى ألوان زاهية تغطيها رسوم الأزهار مع صديريات رقيقة من القماش المخرم الأبيض (الدنتلة) الذى يكشف عما تحته ، ويضعن فى أقدامهن خفافاً مزخرفة بكعوب فرنسية وتغطي رؤوسهن عمامات أو مناديل ، وهذا نمط جاء أصلاً من إفريقية ولا تزال النساء يرتدينه فى أرض السودان (١) . وكن يتحلىن بالحلى الذهبية عندما كن من الرقيق المفضل لدى الأسر الثرية فى باهيا . أما اليوم فإنهن يتحلىن بقلائد وأساور ومشابك وحلقات من الخرز على مثال ما تفعل كارمن ميراندا عندما تمثل شخصياتهن . ولكن

(١) تقصد المؤلفة بكلمتى (أرض السودان) غرب إفريقية على مثال ما أطلق

الجغرافيون العرب هذه التسمية على المنطقة التى تساحل خليج غانة لجنوب حافات الصحراء . (المترجم) .

أغرب ما في ثيابهن هذه الملفحة (التلفيحة) المطوية التي تضعها كل منهن فوق كتفها الأيسر للعرض لا للتدفئة في هذا الجو الحار . ويبدو أن هذه هي كل ما بقى من الغطاء الكبير للرأس والوجه على غرار ما كانت تفعل المسلمات في إفريقية اللاتي لم يكن يسمح لهن بالكشف عن وجوههن علانية .

ولا شك أن هذه الثياب توضح من أين جاءت هذه الزنجية الباهية بالإضافة إلى ما تبديه من الزهو والتفاخر بأسلافها ، ولقد كان لأسر باهيا دائماً الانتقاء الأول من العبيد الذين ينتمون إلى سواحل باهيا ، وكان « الباهيان » — كما يطلق سكان باهيا على أنفسهم — فخورين يدفعون أثماناً مرتفعة للرقيق الذين يحملون من الشعوب الإفريقية ذات الثقافة العالية ، بل كان تجار الرقيق يتلقون الطابايات مقدما لتوريد إفريقيين من صيفوة الطبقات سواء تم ذلك بالشراء أو السرقة ، وكذلك لتوريد نساء من أسر راقية مهذبة كي يتمكن بأعمال التدبير المنزلي ومرافقة السيدات ، وكانت « مامى بريتا » الأم السوداء — التي تعادل « مامى »^(١) في الولايات الجنوبية من الولايات المتحدة الأمريكية — تلقى ما تستحقه من التدبير ، وكان أطفالها يتلقون العلم مع أولاد السادة ، وكثيراً ما كن يتزوجن من

(١) « مامى » Mammy السيدة الزنجية التي كانت ترضى الأطفال البيض في الأسر الأمريكية القديمة في الولايات الجنوبية . (معجم ويدستر طبعة سنة ١٩٥٦ ص ٨٨٩) .

أفراد من أسرة السادة . ولما كان الكثير من هؤلاء قد اختلطوا بدماء هندية من قبل ، فإن سلالات سكان باهيا تحمل مزيجاً من دماء مختلفة منذ وقت بعيد . وقد أثبت هؤلاء أنهم ليسوا أقل من غيرهم كفاية ، فخرج من بينهم جماعة من خيرة العلماء والسياسيين والمهنيين في البرازيل . وكانت باهيا بوتقة الانصهار لكل هؤلاء الناس معاً . ولهذا تلقى في طرقات باهيا أناساً من كل لون . غير أن اللون السائد أكثر سيرة من الناس الذين تلقاهم في ريودي جانيرو .

كانت باهيا المدينة الرئيسية في البرازيل فيما مضى . وحتى عندما حلت ريودي جانيرو محلها كعاصمة للبلاد ظلت باهيا مدينة هامة ، إلا أنها لم تستطع اللحاق بميناس جيرائيس وسان باولو وريودي جانيرو عندما أثرت ثلاثتها من زراعة البن . ومع ذلك فإن وسائل الفلاحة في هذه الولاية الغنية قد جعلت معدل ثرائها مرتفعاً ؛ إذ بالإضافة إلى ما تنتجه من التبغ والقطن وقصب السكر والخنازير والماشية ، نجدها تنتج أفضل أنواع الموالح في العالم ، كما أنها تحتفظ برقم قياسى عالمى بإنتاجها ٨٧ نوعاً من الفاصوليا واللوبياء . وتشمل صادراتها سلعاً غريبة : مثل ألياف النخيل لعمل المقشاشات وغير ذلك من الصناعات ، ومثل زيت الخروع والشمع الكرنوبى من النخيل الذى يحمل ذات الاسم ، كما تصدر الملح والألماس الأسود ، وليس هذا الألماس هو الألماس الذى يستعمل في الحلى ، بل هو ألماس من نوع تجارى خاص يستخدم في أطراف آلات التشقيب والتخريم والحفر . وفي باهيا ثروة كبيرة من خامات الحديد

والمنجيز ، كما أن بها بعضاً من أغنى حقول البترول في البرازيل ، ولهذا استمرت باهيا تحتل مركزاً هاماً في اقتصاديات البرازيل .

ولا تصدر كل منتجات باهيا الوفيرة عن طريق خليج كل القديسين ، إذ من حسن حظ هذه الولاية أن بها نهراً مفيداً — هو نهر سان فرانسيسكو — يذكرنا بنهر الأمازون ، وهو نهر عجيب من عدة وجوه . فهو أحد الأنهار العظيمة القليلة في العالم التي تجري في اتجاه الشمال ، ولهذا السبب يقال له نيل البرازيل ، وعلى مثال نهر النيل يفيض النهر سنوياً في الفصل المطير ، فإذا جاء الفيضان طغت المياه على كلا جانبي النهر حتى يكون حوضه أشبه ببحيرة فسيحة ، ثم يخاف الماء وراءه عندما يهبط منسوب الفيضان طمياً غريباً يغطي كل الأرض ، ولهذا بقيت حقول باهيا وفيرة الخصب كحقول حوض النيل ورغم استخدامها في الزراعة على مدى قرون كثيرة .

وينبع نهر سان فرانسيسكو من وسط ولاية ميناس جيرايس ، ويصبح طريقاً مائياً هاماً بعد أن يصل إلى ميناء « بيرابورا » النهرى الذى يتصل بمناطق التعدين الغنية بخط حديدى قصير وبطريق مرصوف للسيارات ، ومن عنده يسير النهر في ولاية باهيا موازياً لساحل المحيط الأطلنطى . ولهذا النهر العظيم نفع آخر ؛ ذلك أنه يحمل إنتاج الحقول ومزارع تربية الماشية إلى الأسواق في المناطق التي لا توجد بها طرق ولا خطوط حديدية ، وفي النهاية يرسم النهر خط الحدود بين ولايتي

باهيا وبرنيموكو ، ثم يدور النهر في انحناء فجائى متجهاً للجنوب الشرقى حتى يصب في المحيط الاطلسي مكوناً خط الحدود بين الولايتين الصغيرتين. «الاجوواس» و«سرجيه» ، وتنتهى صلاحية النهر للملاحة فجأة عندما يصل ركن ولاية الاجوواس بسبب وجود مساقط باولو آفونسو العظيمة ، والتي هي نياجرا أخرى مثلها مثل مساقط أجواسو ، وفي هذه المساقط منحدرات كثيرة سريعة يمكن أن تنتج قوى مائية تكفي لإدارة كل صناعات أمريكا الجنوبية ، ويندفع النهر عند قمة المساقط عبر هوات وجروف من الجرانيت فينحت خنادق عميقة تهبط به ٢٥٠ قدماً . وللمساقط جمالها الذي سيجتذب يوماً ما السياح زرافات ووحداً المشاهديها ، ويسير النهر فيما وراء المساقط متباطئاً لمائتي ميل أخرى حتى يصل إلى المحيط الاطلسي ، وبذلك يكون طوله أكثر من ١٨٠٠ ميل .

وتتعدر الملاحة في بعض أجزاء نهر سان فرانسيسكو بالنسبة للسفن الكبيرة بسبب المنحدرات السريعة والحواجز الرملية ، ومن ثم تستخدم قوارب شراعية من طراز خاص لنقل المتاجر إلى منطقة المساقط ، ويحمل كل من هذه القوارب ما يصل إلى خمسين طناً . ويمكن لاثني عشر رجلاً أن يدفعوا القارب عندما تسكن الرياح أو أن يخرجوه عندما يجنح في الحواجز الرملية . وتقطع الرحلة جيئة وذهاباً في شهرين كاملين ، يعيش الرجال طوالها في قاربهم وينامون تحت ظلة من سعف النخيل . وفي الاوقات التي لا يقومون فيها بدفع قاربهم أو سحبه بجبل ، نجدهم يربطونه

إلى شجرة ويقضون فترة مرحلة يتبادلون فيها رواية القصص وينشدون أغاني عن النهر ذاته .

وتروى بعض هذه القصص عن وحوش جبارة تعيش في الماء ، لم يقع عليها نظر أحد ، ومن بينها دودة عظيمة الحجم تشبه ثعبان البحر، وتعيش في الأنهار التي تجري تحت سطح الأرض والتي تكثر في هذه المنطقة ، وتروى القصص أن هذه الدودة تخرج ليلاً لتسقط القناطر والجسور « الكبارى » وتشق حفراً واسعة تسقط فيها القوارب ، ووحش آخر هو الكومبادرى « رفيق البحار » وهو وحش في صورة الإنسان إلا أنه إذا فتح فم رأيت أنه سمكة ، ويحتفى « رفيق البحار » حول الموانى ، وأحواض السفن ليقوم بكل أنواع الأذى التي يمكن أن تخطر له ، وكل هذه الوحوش الجبارة تبقى دائماً في انتظار الملاحين للقضاء عليهم ، ولهذا يوضع في مقدمة كل قارب تمثال محفور من الخشب لحماية الملاحين ، ويجمع التمثال بين صورة الإنسان وصورة التنين وله عينان كبيرتان تبصران كل شيء وتظلان مفتوحتين عندما ينام الملاحون .

وبالرغم من وجود نهيرات تربط وادى نهر سان فرنسيסקو بحوض الأمازون فإن الاتصال الفعلي بينهما قليل. فنهر سان فرنسيסקو يحيا حياته الخاصة ، ولساكنه عاداتهم وأساطيرهم وأغانيهم وأعيادهم الخاصة بهم . والنهر نفسه تاريخ عفيف — لا يزال يمتد إلى يومنا هذا . فظالما اشتبك المستكشفون في حروب مع الهنود ، وكثيراً ما كان كبار اللصوص يسطرون على مزارع تربية الماشية التي كانت تبدو كالحصون — يقطعها

الفارس في أسبوع ، ويكون رعاة البقر فيها جيشاً صغيراً ، ويرتدى هؤلاء الرعاة ملابس صنعت جميعها من الجلد — من القبعات إلى الصنادل ، وكثيراً ما كان المسافرين الذين يحملون ثروة كبيرة من الذهب من مينااس يتعرضون لسطو قراصنة على النهر أو يفقدونها في لعب القمار .

إن معظم هذه الحوادث تعتبر في عداد الأساطير في الوقت الحاضر .
واسكنم اتصفي على ولاية باهيا جواً من أجواء قصص المغامرات السينمائية .

الشمال الشرقى

يتقطع مصب نهر سان فرنسييسكو أواسط ولاية باهيا وشتميتها الصغيرة سرجييه عن الانبعاث الشمالى الشرقى فى البرازيل . ويختلف كل شىء يقع إلى الشمال من مصب النهر عما فى جنوبه ، فسرجييه أصغر ولايات البرازيل هى آخر المناطق شبه المدارية ، ومتى عبر الإنسان النهر وجد نفسه فى أقاليم استوائية مرة أخرى . وتشمل هذه الأقاليم فى الانبعاث المذكور الولايات الصغيرة « ألاجوواس » Alagoas ، و « برنمبوكو » Pernambuco ، و « باريبا » Paraíba ، و « ريو جراند دونورت » Rio Grande du Norte ، ثم الولايتين الكبيرتين نوعاً « سيارا » Ceara ، و « بياوى » Piaui .

ولقد ألفت من قبل رؤية الأرض العالية ترتفع وكأنها تبرز من حافة البحر مباشرة تاركة شريطاً ضيقاً من الأرض المنخفضة ، ولكن الساحل يتغير هنا فجأة ، إذ توجد سلسلة من شعب المرجان على مقربة من الشاطئء تحول دون اقتراب السفن حيث لا توجد موانئ من صنع الإنسان . وتندفع تيارات المد والجزر فوق هذه الحواجز فتحدث أمواجاً طويلة خطيرة . ولكن قم الأمواج البيضاء ، ونخيل جوز الهند الذى يحف بالرمال البيضاء ، يعطى هذا الجزء الشمالى الشرقى من البرازيل منظراً ينفرد به عن بقية الأجزاء .

وتعترف هذه المجموعة من الولايات بالزعامة لولاية برنمبوكو، فهي لم تكن أول مستعمرة ناجحة فحسب، بل إنها أيضاً أم زراعة قصب السكر في العالم الجديد، إذ جرى إليها بأشجار القصب الأولى من جزيرة ماديرا سنة ١٥٣٣، وانتشرت زراعة القصب على طول الساحل حتى ريودي جانيرو، فكانت المنطقة كلها كفلاً واحداً ممتداً. ولم تنزل برنمبوكو عن زعامتها في إنتاج السكر قط، بل ولا تزال تحتفظ بهذه الزعامة حتى اليوم.

ومدينة «رسيغه» أورييف - التي كانت تحمل اسم برنمبوكو سابقاً - هي العاصمة الرسمية للولاية فضلاً عن أنها أهم ميناء على هذا الساحل، ثم هي الثالثة مدن البرازيل سكاناً، وتتوقف عند الميناء كل السفن الأجنبية قبل أن تدور حول الانبعاث الكبير لتنتجه في طريقها إلى أوروبا أو إلى أمريكا الشمالية.

وبليت رسيغه على جزر وأشباه جزر هي جزء من مجموعة الشعب المرجانية التي أعطت الميناء اسمها، وتقطع القنوات ومجاري المياه المتصلة بالبحر - تقطع في جريانها قلب المدينة، ولهذا يقال لها عادة «فينيسيا البرازيل». وينتمى الناس من حى إلى آخر بوساطة الجسور «الكبارى».

و«رسيغه» هي المدينة البرازيلية الكبيرة الوحيدة التي ليس فيها جبال أو تلال. بل بدلاً من هذا توجد فيها أرض مستنقعات منخفضة تغطي بالمياه في أثناء المد العالى. وفي هذه المستنقعات مجموعة من أسوأ المنازل في العالم يسكنها المدقعون المعدمون، وتعيش الأسرات في أكواخ وعشش متقلبة مقامة على أعمدة خشبية، ويعتبرون أن الحظ قد حالهم عندما يجدون ممراً مرتفعاً وسط الوحل يؤدي إلى أبواب دورهم، ويخوض

الأطفال في أثناء المد العالى وسط أفنية دورهم المغطاة بالمياه ليسكوا
« الكابوريا » التى تكون جزءاً هاماً من غذائهم .

ويسر الأجانب دائماً بمشاهد برنمبوكو ، فإن جسورها « كباريها »
وقنواتها وحدائقها وحى الأعمال الحديث بها وكنائسها القديمة وضواحيها
اللطيفة الجو كلها ساحرة ، ولكنهم سرعان ما يشعرون بالأسى عندما يرون
هذه الأكواخ والعشش التى يعيش فيها المدقعون الفقراء .

ولقد بدأ أهل برنمبوكو أخيراً بعد أن تفتحت أعينهم فى ردم هذه
المناطق وصرف مياهها لإزالة هذه الصورة السيئة عن مدينتهم ، ولقد نفذ
برنامج جديد للإسكان ببناء دور صغيرة صحية مكان هذه الأكواخ
والعشش . وستحس بالفرق الكبير بينها وبين باهيا التى جئت منها مباشرة ،
ولكن المدينتين مع هذا برازيليتا الطابع أكثر من العاصمة وأكثر من كل
المدن التى فى الجنوب . فباهيا مدينة تقوم على تل ، ولها ميناء طبيعى برازيلي
الطابع ، وعدة جزر مدارية جميلة ، أما « رسيغه » فهى مدينة تقطعها طرق
مائية وبها عدة جزر أيضاً ، ولكن ميناءها قد شق داخل الشعب المرجانية
بفعل الإنسان .

وتجىء السفن الشراعية الصغيرة والقوارب ذات المحركات إلى
« باهيا » بالفاكة وبالحاصلات المحلية ، وتتجمع حول « الأرصفة »
المخصصة لها . أما فى برنمبوكو فإن نفس هذه السفن تكون جزءاً من
المنظر العام للدينة ، إذ تطفو أشرعتها الزاهية البنية وهياكلها الملونة فوق

مياه القنوات في الحى التجارى بالمدينة حاملة ثمار المانجو والاناناس التى تشتهر بهما برنيموكو ، وتفرغ السفن شحناتها في كل مكان تقريباً . ويضيف ملاحو هذه السفن ذوو الملامح السمراء لونا جديداً للجماهير التى تملأ طرقات المدينة .

ونرى روامث الصيادين « الجنجاداس » وهى راسية في هدوء في أى بحرى مائى ضيق وسط المدينة وقد غط الملاحون في نومهم بعد أن واجهوا الخطر لأيام وليال في عرض البحر على مسافة بعيدة من الساحل ، وتستعمل هذه الروامث في الجزء الشمالى من البرازيل فتط . فالساحل هنا غدار مخادع ، ثم إن الأمواج التى تنكسر على الساحل عالية فلا تستطيع القوارب العادية أن تصل إلى البر . وتصنع الروامث البحرية بأن تربط معاً ست كتل من خشب « البلسا » الخفيف كالفلين ، وتكشط أطرافها من أسفل ليسهل سحبها فوق الشاطئ الرملى . وللتأرب صار واحد مثبت في إطار من الخشب ، يخفض هو وشراعه عندما لا يستعمل . وتوضع في مؤخرة الرامث دكة يجلس عليها الصيادون ، الذين يلفون سراويلهم إلى ركبهم حتى لا تبتل بمياه الأمواج التى تندفع فوق عوامتهم ، وتوجد في منتصف المسافة بين الدكة وبين الصارى تصايبية من الخشب لها سن لتمسك بقاعدة الشراع ، وتعلق فيها السلال التى يحفظ فيها السمك الذى يصطادونه كما تعلق قدور المياه العذبة و سلال الطعام الذى يكفيهم لعدة أيام ، كما تربط فيها أيضاً الشباك وأدوات الصيد .

وتستطيع أن ترقب هذه الروامث من السفن الكبيرة عابرات المحيط
فتظنها حطام سفن غارقة على بعد منك . ويرى ركاب السفن الكبيرة ليلاً
المصاييح المهتزة المعلقة في هذه الروامث ، إذ يعمل الصيادون ليلاً نهار ،
فلا سبيل إلى النوم ولا إلى الراحة وهم على ظهرها . وتتبع أسماك القرش
هذه الروامث باستمرار ، آملة أن يسقط أحد الملاحين في البحر — كما يحدث
أحياناً — فتلتهمه . وملاح « الجنجاس » أكثر من يعملون في البحر
جراً واستهانة بالآخطار ، ولكنهم يبدون رقيق الحاشية عندما ينامون
على الشاطئ في الشمس ، بينما يحاول أحدهم المساومة للحصول على أفضل
سعر لأسماكهم في سوق برنابوكو . ثم يذهبون بعد ذلك إلى دورهم الزاهية
الالوان تحت أشجار النخيل ليغفوا تحت السقوف المجدولة من القش
والغاب . ويحتمل أن يقضوا الليل كله يرقصون « السكوكو » ليستمتعوا
بالحياة قبل أن يخرجوا إلى البحر ثانية .

ولا يكاد المرء يجد أى دليل في ميناء رسيغه الحالى يشير إلى أن
الهولنديين هم الذين أنشأوا المدينة ، ففي أثناء الكفاح المرير الذى خاضته
هولندا لتحصل على موطئ قدم في البرازيل كان هذا هو الجزء الوحيد من
البلاد الذى حتمت فيه نجاحاً نسبياً . وكانت مستعمرة البرتغاليين الأصلية
في هذا الجزء هى « أولندا » Olinda التى ازدهرت طيلة مائة عام حتى جاء
الأسطول الهولندى وأحرقها عام ١٦٣٧ .

وكانت أولندا قد شيدت على جرف عال من الأرض على مثال المواقع

التي اختارها البرتغاليون لكل مدنهم ، ولربما كانت الكنائس القديمة والدور الحديثة والشواطئ التاريخية لأولندا القديمة هي أول ما تراه وأنت تقترب من رسيفه ، ذلك لأنها لا تزال أكبر ضواحيها . ولكنها كانت لا تقل حجماً أو جمالاً عندما بدىء في إقامة « رسيفه » على الشاطئ المنخفض بمجموعة من أكواخ الصيادين .

وعندما وصل موريس — كونت ناساو — ليتقلد منصب الحاكم الهولندي كان أكثر إعجاباً بالجزيرة وشبه الجزيرة المنخفضة ؛ ذلك لأنها كانت تذكره بهولندا ، ومن ثم بعث إلى وطنه ليعدوا له تخطيطاً لعاصمة عظيمة يقيمها أسفل أولندا . وفي أثناء حكمه الذي استمر عشر سنوات كان قد شيد مدينة ذات طابع هولندي أصيل . وأخيراً استطاع المستوطنون البرتغاليون بمعاونة السفن البرتغالية المسلحة أن يطردوا الهولنديين من البلاد . ونتيجة لهذا تحول الطابع الهولندي للمدينة إلى طابع برتغالي في عدا القليل من المخازن والمستودعات القديمة .

ولم تلبث « رسيفه » أن تفوقت على أولندا التي أعيد بناؤها لتصبح ضاحية سكنية لأصحاب المزارع الكبيرة . ولما حتمت رسيفه ثراء من تصدير السكر في بادئ الأمر — ثم القطن والتبغ بعد ذلك — بدأ أهلها في بناء الكنائس والقصور والحدائق العامة التي تنافس مثيلاتها في باهيا . ولكن لا يزال الكثير من قلاع الهولنديين القديمة قائماً يزوره السياح مما يذكر سكان برنمبركو بالهولنديين . وتفخر بعض الأسر العريقة في برنمبركو

بأصلها الهولندى . فبعد كل غزوة تعرضت لها البلاد كان بعض الأجانب يفتنون بهذه الأراضى الجديدة ويقيمون فيها ويصبحون مواطنين برازيليين . على أن هذه الروح التى مكنت أهل برنمبوكو من إخراج الهولنديين من أراضيهم جعلتهم ثأرين متمردين . فعندما حرم البرتغاليون طبع الكتب أخفيت آلات الطباعة فى أدوار الكنائس الواقعة تحت الأرض لإعطاء الأهلين ما يحتاجون إليه من العلم . وتوافقت حركة برنمبوكو للاستقلال بالحركة التى قامت فى ميناس جيرائس ، ولكن برنمبوكو استطاعت — لأنها أكثر بعداً — أن تنفصل عن المملكة البرتغالية التى كان يرأسها دون جوان السادس فى ريو . وهكذا أعلنت برنمبوكو الجمهورية وأجريت الانتخابات ، ولكن عندما استولى الجنود البرتغاليون على المدينة شنقوا موظفى الجمهورية كما شنقوا الزعماء الآخرين ، وكان على رأس هؤلاء الشهداء الراهب الكاثولى «فرى كانيكا» «تيرادانتيس الشمال» ولقد تجددت ثانية شجاعة أهل برنمبوكو فى الصراع ضد الديكتاتورية والفاشية . وكان أهل رسيغه فى طليعة الذين نظموا المقاومة وجأهروا بها ، وسرعان ما انتشرت هذه الروح فى البلاد وأنهت خمس عشرة سنة من الاضطهاد .

• • •

ومع أنه يوجد اثنا عشر طريقاً للذهاب من رسيغه إلى ناتال، فإنك ستفضل الذهاب إليها بالطائرة، ذلك لأن ناتال التى يعنى اسمها «عيد الميلاد» كانت فى أثناء الحرب العالمية الثانية من أعظم مراكز الطرق الجوية فى العالم .

ولقد كانت هى النقطة التى اختارها النازيون كهدف لإحدى خططهم للغزو بطريق الجو ، فهى على مسافة ١٦٠٠ ميل من إفريقيا . ولكن حلم هتلر تبدد عندما أعلنت البرازيل الحرب على المحور ، ومولت الولايات المتحدة مشروعات لإنشاء المطارات العظيمة التى أصبحت نقطة انطلاق لجنود الولايات المتحدة فى طريقهم إلى إفريقيا وإيطاليا ، وكان مطار ناتال مطاراً رئيسياً فى استراتيجية الحرب .

وقد أنشئت ناتال عاصمة ولاية ريو جراند دو نورث يوم عيد الميلاد سنة ١٥٩٩ ، ولكنها ظلت مدينة قديمة خاملة حتى جاءت الحرب العالمية الثانية ، ولا تزال مبانيها التى أنشئت أيام الاستعمار أكثر من المباني الحديثة ، وكان أهلها يعيشون حياتهم بالبطء الذى تتميز به الأقاليم المدارية . ثم أيقظتها الحرب من غفوتها فجأة ، وتقاطر إليها آلاف العمال ، وجاء الفنيون الأمريكان والبرازيليون مع مساعديهم . ولم يمر وقت طويل حتى عجت المدينة بالمهندسين العسكريين ، ومحطات الإشارة اللاسلكية ، وثكنات الجنود ، مع مطار فسيح يعمل باستمرار ، وغطت السماء الطائرات البرية ، وجاءت جحافل من الطائرات البحرية لتجثم فى أحراش أشجار جوز الهند التى تنمو عند حافة البحر مباشرة .

وتقوم فيما وراء ناتال السلسلة الجبلية الوحيدة على هذا الساحل ، وتقع بين البحر وبين الجبال المزارع المدارية المعتادة التى خصصت لرعى الماشية ولزراعة قصب السكر والقطن والرز .

ومن الضروري أن ندور بعد أن نترك ناتال نحو الشمال الغربي لنتتبع الساحل البرازيلي ؛ لأن ناتال هي أقصى نقطة نحو الشرق في العالم الجديد . ونلق عند طرف هذه الولاية أخجية من أغرب أحجيات جغرافية البرازيل ، فإلى الداخل من الجانب العلوي للانبعاث تقع منطقة من الأرض الجافة تبدو على الخريطة كجيب يتدلى من الساحل بين ناتال وبين فورتاليزا عاصمة ولاية « سيارا » ، هذه الأرض هي صحراء أمريكا الجنوبية . ولكنها ليست معدومة المطر تماماً بل تسقط عليها عادة أمطار كافية للإبقاء على الزراعة وتربية الماشية ، إلا أنه فجأة تجيء « السيكّا » Seca ، أى « دورة الجفاف » التى قد تستمر لسنتين لا تسقط طوالمها قطرة واحدة من الماء ، فيجف كل شئ وتنفق الماشية ، ويرحل عن الأرض كل من استطاع الرحيل . أما الذين يبقون فإنهم يموتون جوعاً .

ومع أن مساحة هذا « الجيب » الجاف صغيرة بمقارنتها بمساحة البرازيل ، إلا أن الصحراء في الواقع تحتل جزءاً كبيراً من ولايتي سيارا وريوجراند دونورت ، بل وتمتد جنوباً في الأجزاء الغربية في ولايتي « باريبا » و « برنمبوكو » ثم تجرى في وسط باهيا ، حيث تزداد سمعتها فيما وراء نهر سان فرانسيسكو ، وتعرض المناطق التى تحف بهذا الجيب إلى الجفاف أيضاً مما يبعث التلحق في نفوس سكانها ، وإن كانوا لا يواجهون الثواب والنكبات التى يواجهها أولئك الذين يعيشون فى « الجيب الجاف » .

ولقد اقترحت — بل ونفذت — عدة مشروعات لبناء سدود

وبحيرات لتخزين المياه . وأصيب الامبراطور دون بيدرو الثاني وزوجته بصدمة شديدة عندما حدث أول جفاف كبير حتى لإنهما تبرعا بالمجوهرات الملكية لإنشاء صندوق لشراء أطعمة للاجئين . ومنذ ذلك التاريخ استقر الضحايا البائسون الفارون من دورهم في سنى الجفاف في كل أنحاء البرازيل وخاصة في أقاليم الأمازون .

وقد نتج عن اطراد ندرة المطر أن اتخذت الطبيعة مظهراً غريباً لا يختلف كثيراً عما نشاهده في أراضي المسكيت Mesquite في جنوب غربى أمريكا الشمالية ؛ فهى أراض ذات حشائش مبعثرة تتناثر فيها شجيرات ملتوية تنفض أوراقها في فصول الجفاف . وتبدو جذوعها وفروعها العارية كهيكل عظمية لا نباتات . وعندما تسقط جميع أوراقها تخرج منها براعم مدببة بألوان بيضاء وصفراء سرعان ما يغطيها التراب . وتجوب الماشية مساحات واسعة بحثاً عن العشب ، ولكنها تسمن عندما تدب الحياة في الأرض في أعقاب عاصفة مطيرة ، وإن كانت تلك العواصف نادرة الحدوث .

ولسكان الأرض الداخلية في الشمال الغربى التى يطلق عليها «السرتان» طابعهم الغريب . فقد أنبئت الأرض الخشنة جماعة الـ «فاكويرو» أو رعاة البقر الذين يستطيعون تحمل أقصى الظروف . وبشرتهم سمراء في لون الجلد ، وكل ثيابهم ومعداتهم من جلد الماعز أو جلد البقر ، وترتدى خيولهم أيضاً دروعاً من الجلد تحميهم من الأعشاب الشوكية القصيرة . عندما يطاردون الأبقار . وأكثر من نصف دماء هؤلاء الرعاة دماء هندية .

ولهذا فإن شعرهم أسود فاحم منسدل . وهم أذكىاء واسعو الحيلة ، يبدون فى حياتهم العادية حالمين كسالى إلى أن يحدث ما يثيرهم فتسارع أيديهم إلى خناجرهم أو إلى « تنك » بنادقهم ، وقد أخرجت أرض السرتان مقاتلين مدهشين أسهموا فى القتال من أجل حرية البرازيل ، كما أخرجت قطاع طرق ، وملاكا كباراً ، يتسمون بالاستبداد والطغيان ، يملك بعضهم مزارع تبلغ مساحتها عدة أميال مربعة ، وقد تشمل مدناً بأكملها يتصرف فيها المالك كما يشاء . وكثيراً ما كان هؤلاء الملاك يشتبكون فى القتال بعضهم مع بعض ، إما بسبب الماشية ، وإما لخلافات خاصة ، وكان جيش كل منهم يتكون من كل الرجال الذين يعيشون فى الأرض التى يملكها .

وسيدهشك — مع ما تعرفه عن طبيعة الأرض والحياة فى داخل ولاية « سيارا » — أن تجد فورتاليزا عاصمة الولاية مدينة حديثة تماماً ؛ لاذ بها — رغم صغرها — ناطحات سحاب وفندق حديث وحوانيت تماثل تلك التى فى ريو دى جانيرو ، وخلقت وسائل الرى الحدائق والميادين العامة التى تبدو فى إزهارها كالواحة .

وستفضل أن تنقل بالطائرة من نائال إلى فورتاليز ؛ لأن الذين يذهبون بطريق البحر يواجهون وقتاً عصيباً عند النزول على الشاطئ ، لعدم وجود ميناء ، فتاقى السفن مراسيها على مسافة ميل من الشاطئ . ويقفز الركاب من معبر السفينة إلى « اللش » الذى يقف إلى جوارها مرتجاً فى الموج العالى . ويحمل الملاحون النساء والأطفال وينزلونهم إلى اللش فى أمان ، ولكن لا يقارن هذا بالصعاب التى يواجهونها عند الصعود من

هذه اللبشات المترجرجة فوق الدرجات الزانة عندما تصل اللبشات إلى الدعامات الحديدية لنمورتايزا ، فكثير من الركاب تتلقفهم الأمواج العالية قبل أن يستطيعوا تفاديها ، ومن ثم فإنهم يصلون إلى المدينة وقد ابتلوا بالمياه إلى ركبهم .

وكانت معظم عمليات النزول إلى الشاطئ فيما مضى تتم على هذه الصورة بطول الساحل الذي تقطعه الشعب المرجانية . ويروى المسافرون القدامى مغامرات نزولهم في برنمبوكو قبل تعميق مينائها فكان الإجراء العادى أن يخطو الراكب من السفينة إلى قفص مدلى إلى جانبها يشبه السلّة ، وعندما يمتلئ القفص بالركاب يهبط بسرعة خفيفة إلى « صندل » ينتظره ، وهناك يفتح لإخراج الركاب الذين استولى عليهم الذعر . وعندما يتم نقل جميع الركاب بهذه الوسيلة يشق الصندل طريقه فى خضم البحر حتى يدخل لأحدى القنوات الهادئة فى المدينة .

وتنتج ولاية سيارا حالياً ألواناً مختلفة من الإنتاج الزراعى والحيوانى . على أنها ستزدهر يوماً ما بدرجة أكبر نتيجة لتنظيم وسائل الرى ، ولعل الاطن الطويل الثيلة هو أحسن ما تنتجه حالياً . وقد قامت عليه صناعتان غير عاديتين من الصناعات المنزلية : صناعة الدنتلة المخرمة التى تصنع يدوياً وتباع منتجاتها فى كل أنحاء البرازيل ، ثم صناعة الأرجوحات الشبكية التى تستخدم للنوم فى كل شمال البرازيل .

ولم يترك صراع الفرنسيين للحصول على موطىء قدم فى البرازيل طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر أى أثر يذكر على طول الساحل، فيما عدا مدينة سان لويس، إذ أنشأ التمرصان الفرنسيون فى سنة ١٦١٢ مستوطنة لهم اتخذوا منها مركزاً لغاراتهم، وأطلقوا عليها اسم سان لويس نسبة إلى لويس الثالث عشر، وقد اختاروا موقعها على جزيرة بين خليجين يمكن أن تحمى، بل وأن تخفى سفنهم عن السفن التى تمر عبر عباب البحر المكشوف، وبنوا مدينة فرنسية الطابع حتماً، ولكن لم يلبث البرتغاليون أن استولوا عليها وحولوها إلى ميناء برتغالى.

ولقد استطاعت سان لويس أن تحتفظ بشخصية تختلف تماماً عن باقى المدن البرازيلية الأخرى للطابع الفرنسى الذى بدأت به، ويفخر سكانها بهذه الميزة كما يفخرون بلغتهم وثقافتهم البرتغالية. وكانت ولاية «مارانيان» مسقط رأس الكثيرين من الرجال الموهوبين من الشعراء والكتاب والسياسيين الذين تعلموا فى مدارس سان لويس.

وفى هذه العاصمة القديمة أيضاً أكبر كاتدرائية فى البرازيل وواحدة من أقدمها، كما أن فيها الكثير من المباني الجميلة من عصر الاستعمار. وتتجاوز فيها الطرقات القديمة الضيقة والشوارع الحديثة مع الحدائق الفسيحة التى تجتذب زوار المدينة.

وكانت ثروة هذه الولاية قديماً تستمد من استيراد الرقيق لبيعه فى شمال البرازيل، ومن حاصلات المزارع المزارية، ولكن أهم صناعة

في الوقت الحاضر هي جمع وتصنيع بندق نخيل الباباسو . وينمو هذا النخيل
نمواريا في مساحات كبيرة من مارانياون وولاية بياوى المجاورة لها .
ويستخدم الزيت الذى يستخرج من هذا البندق للطعام وصنع الصابون
ولتزيت الآلات ثم للوقود .

ولقد تكونت في البرتغال فور استيلاء البرتغاليين على سان لويس
شركة بارا ومارانياون التجارية على غرار شركة الهند الشرقية الهولندية التى
جعلت هولندا وافرة الثروة . وسرعان ما أصبحت الشركة البرتغالية
بتعصيد الملك ورجال البلاط قوية تملك السفن والجنود ، ولم يعد
للمستعمرين في بارا ومارانياون حول ولا طول ، إذ كانت منتجاتهم تنقل
إلى البرتغال بالأسعار التى تحددها الشركة ، كما كانت وارداتهم من السلع التى
يحتاجون إليها من أوروبا احتكرا لنفس الشركة ، وثار زراع مارانياون
فجاءت القوات البرتغالية للقضاء على الثورة ، وتغلب الجند على المستعمرين
وجيشهم من الرقيق ، وشق زعماء الثورة ، وتابعت الشركة عملها حتى
سنة ١٧٨٠ .

وهكذا ربط البؤس والشقاء بين بارا ومارانياون من تاريخ مبكر ،
ومازال التارتبطان ارتباطاً وثيقاً لما بينهما من أوجه التشابه ، ويوجد في بارا التى
تقع عند مصب نهر الأمازون الجبار مطار بيليم الذى وقفت به طائرتك
في بدء رحلتك هذه في البرازيل .

وتبلغ سعة مصب نهر الأمازون مائتى ميل ، أى إن هذا المصب

أطول من الكثير من الأنهار ، وتستطيع أن ترى البهائم المتعددة الألوان تطير فوق مصب النهر في حين تغنى التماسيح على شواطئه ، وتدعى الأفاعى نفسها فى الوحل أو تتدلى من الأشجار منتظرة حلول الظلام لتقتصص الحيوانات الصغيرة التى تجىء إلى الماء لتطفئ ظمأها . وهناك أيضاً مقرة البحر التى تجمع بين شكل السمكة وشكل الحيوان ، ويصل طولها إلى نحو عشرين قدماً ، وهى تصاد بالحرايب الكبيرة كما يصاد الحوت ، ويستخرج منها زيت له قيمة تجارية كبيرة .

ويعيش الخنزير البرى فى الغابات بجوار النهر، وهو غذاء طيب للوطنيين ، كما يمكن تنويع الوجبة الغذائية ببيض السلاحف والقردة المقلية والتماسيح .

وتطفو فوق صفحة ماء النهر زنايق المملكة فيكتوريا وتثنى أوراقها الخضراء الكبيرة إلى أعلى فتشبه قشرة فطيرة عملاقة .

ولا يزال الهنود الذين يعيشون على طول شاطئ النهر شبه متوحشين ، فإن بعضهم لم يروا رجلاً أبيض ولم يسمعوا اللغة الإسبانية ولا أية لغة أخرى غير اللغة التى يتحدثون بها ، ويصطادون الحيوان بنادق نفخ وهى عبارة عن بوصة مستقيمة طويلة مفرغة ينفخ فيها فتتطاير منها سهام ، ويمكن أن ينفخ السهم بسرعة ودقة فى التصويب فيقتل طائراً على مسافة عشر ياردات .

ويتسع مجرى الأمازون فى بعض نقاطه حتى تتعذر رؤية الجانب

الآخر، وهناك جزيرة في مجرى النهر تصل مساحتها إلى مساحة بلجيكا،
ولكن النهر يضيق في نقاط أخرى حتى ليندو وكأنه يخترق القرى الصغيرة
التي تقع على ضفتيه، ويمكنك أن ترى القردة تتأجج على أغصان الأشجار
كما تكاد تلتقط ثمار الموز التي تتدلى فوق صفحة النهر.

* * *

وتقع أمابا — كما تقع المناطق الأربع الأخرى — في وسط الإقليم
القليل السكان في شمال شرقي البرازيل . وهو إقليم فيدرالى يتأخم جياناً
الفرنسية والمحيط الأطلنطى ، كما يحدها نهر الأمازون ونهر جارى . وقد
اكتشف المنجنيز في هذه المنطقة سنة ١٩٤١ ، ويعتبر منجم المنجنيز هذا
أكبر مشروع على الأمازون ، وتنقل السفن منه كل سنة ٧٥٠٠٠ طن
ومع هذا فإن كثافة سكان أمابا اليوم أقل من شخص واحد للكيل المربع .

ولتندشككت في أوائل الخمسينيات لجنة من رجال الأعمال لاجتذاب
الناس إلى حدود الأمازون لتشجيع قيام الصناعة هناك بدلاً من نقل المواد
الخام بعيداً عن المنطقة التي تنتج فيها . وتوجد بها حالياً مؤسسات للتطوير
الزيت ، وصناعة العلب من الصفيح ، وبناء المساكن الجاهزة ، ودباجة
جلود التماسيح . وتحقق فئة قليلة من الرواد ثروات خيالية من هذه
المشروعات الحديثة ، إلا أن كل هذا النجاح قد تحقق تحت أقسى
الظروف ؛ ذلك لأن الغابة تقاتل لإبقاء المنطقة بمنأى عن تقدم حضارة
الإنسان

وتعتبر «الأناكوندا» ، وهى أكبر حية فى العالم ، من أخطر ما يهدد الإنسان فى الأمازون ، فهى تستطيع أن تحطم عجلاً صغيراً ثم تبتلعه بتمامه ، وهناك تجمعات من النمل الصغير يمكنها أن تقضى على البساتين والمزارع . ويتسبب عداء الهنود فى قتل أكثر من ١٠٠٠ شخص كل عام . ولكن الأمراض هى العدو الأكبر للتقدم فى هذا الإقليم ؛ إذ تحطم أمراض الملاريا والحمى الصفراء والتراكوما والمصع وداء الخيوطات إرادة الإنسان وقوته ، ولكن تتخذ الآن خطوات كبيرة للقضاء على الأمراض . وفى أثناء الحرب العالمية الثانية نظمت الولايات المتحدة خدمات صحية خاصة لوقاية صحة العمال الذين يعملون فى صناعة المطاط الهامة ، وتتولى حكومة البرازيل منذ ذلك الوقت ٩٧ ٪ من هذا المشروع الذى كان يتكلف عشرة ملايين دولار كل سنة ، ومن المتوقع أن يجعل المشروع هذه البرازى الموحشة مكاناً صحياً آمناً ، وعندئذ يمكن للبرازيل أن تنتج الكثير من الثروات التى تحرسها اليوم غابات الأمازون وترد عنها أيدى المستثمرين .

عادات الناس

يعيش البرازيليون حياة حديثة ، فهم يحبون المخترعات الجديدة والثياب العصرية الحديثة وتستهوهم أحدث النكات والموسيقى والأبناء العالمية ، ولقد وصلت أجهزة الراديو وآلات عرض السينما وكل مستحدثات المدن الكبيرة إلى أبعد القرى في المناطق الداخلية ، بل قد تصلها مجلات الأزياء متأخرة شهرين بوساطة القوارب أو على ظهور البغال .

ومن التخص الطريفة أن ممرضة أمريكية من ممرضات الإرساليات كانت تعمل في منطقة من المناطق النائية على أحد فروع الأمازون وتقطع الرحلة إليها في عدة أيام بوساطة اللشاش والقوارب . أرادت هذه الممرضة يوماً أن تستضيف طفلة من تلك المنطقة المنعزلة في زيارة مثيرة للبلدية ، وتخبرت صبية سمراء في العاشرة من عمرها على قدر كبير من الذكاء والوسامة ، ولكنها لم تكن قد رأت مدينة قط ، ولقد سرت الصبية وأسرتها من الدعوة وأعدت الثياب للصبية بمعاونة خياطة محلية لديها ماكينة خياطة جاءتها من أمريكا الشمالية ، وتنتشر ماكينات الخياطة في كل مكان من البرازيل عدا مناطق الهنود الحمر .

وإزداد شغف الممرضة بالصبية طول الرحلة على النهر وفروعه ، وعندما وصلت أخيراً إلى « بيليم » عند مصب الأمازون كانت الممرضة

متشوقة لملاحظة الانطباعات الأولى للفتاة الصغيرة . فمن اللحظة التي غادرتنا فيها المرفأ النهرى كان كل شيء جديداً : الأفاريز المرصوفة ، الطرقات ، المقاهى ، المتاجر ، المباني العالية ، السيارات الخاصة والعامة ، عربات الترام . ولم تكن الصبية الصغيرة قد شاهدت من قبل أى شيء عدا الذروب الضيقة والمنازل البسيطة الصغيرة المشيدة من سعف النخيل . ولكنها لم تبد أية دهشة ، بل سارت إلى جانب صديقتها الأمريكية وكأنها قد عاشت في المدينة طوال عمرها ، ويمكننا تفسير بعض هذا المظهر من جانب الصبية بكبريائها ؛ فهي لا تريد أن يظن أنها طفلة قروية غريبة من الريف . ولكن السبب الرئيسى لعدم مبالاتها بما تراه أنها كانت قد شاهدت كل شيء من قبل في الأفلام البالية التي وصلت إلى قريتها البعيدة ، ومع ذلك كانت الطفلة تسجل كل ماتراه في ذاكرتها . ولما حان وقت العودة كان من الصعب إقناعها بالرجوع إلى أسرتها رغم ما كانت تشعر به من الوحشة إليها . ولكنها لما عادت في النهاية كانت قد اصطحبت معها جميع الأفكار الجديدة التي استمدتها من زيارتها للمدينة الكبيرة .

ولا يوجد في المدن الكبيرة إلا القليل مما يعتبر نادراً غير مألوف ، ولكن لكل مدينة تاريخها وشخصيتها التي تميزها عن غيرها على مثال مانرى في بوستون ، ونيويورك ، ونيو أورليانز ، وسان فرانسيسكو . والحياة في العيازات السكنية في البرازيل لا تختلف عنها في مثيلاتها في مدن أمريكا الشمالية . فكلها مكتظة بالسكان ، لوجود نقص في المساكن في الفترة .

تالتى تلت الحرب ، ولكن هذا أمر عادى فى البرازيل ، لأن أسرها الكبيرة العدد كانت تعيش دائماً فى منازل مزدحمة — وهذه ظاهرة استمرت من عصر الرقيق عندما كان أعيان البلاد يقيمون فى قصور « سرايات » كبيرة .

والواقع أن كبر حجم الأسرة فى البرازيل من الأشياء التى تلفت نظر الزائر من أمريكا الشمالية . فعندما تتعرف إلى أسرة برازيلية صديقة تجدهم يسألونك عن أسرتك ويحدثونك عن أسرهم . وليس بغريب أن تجد زوجين فى منتصف العمر لهما اثنا عشر طفلاً ، ولو كان للأب وللأم اثنا عشر شقيقاً وشقيقة فإنك تستطيع أن تتصور كم يكون عدد أبناء الأعمام والخالات ، فإذا ضاعفنا هذا الجيل تال لما أمكن حصر أبناء الأعمام من الدرجة الثانية ، فكيف بالحال فى الدرجتين الثالثة والرابعة . ومن المحتمل أن يصل نسل رجل واحد نزل البرازيل منذ مائة عام إلى الآلاف ، بل كان من الممكن أن يكون هذا العدد أكثر وأكثر لو لم تكن الأوبئة الاستوائية قد فتكت بالعدد الكبير من الناس فى الأجيال الماضية . وقد زاد نمو سكان البرازيل زيادة كبيرة بعد أن تم قهر الكثير من هذه الأوبئة وبعد ازدياد الهجرة ، ويمكن أن تدرك هذه الحقيقة عندما تعرف أن سكان البرازيل كانوا فى سنة ١٩٤٠ ثلاثين ضعفاً بالنسبة إلى ما كانوا عليه فى سنة ١٩٨٠ ، أى قبل نصف قرن فقط من الزمان .

ولا تزال هناك عادة أبوية تقضى بأن يعتبر آباء الأطفال وأمهاتهم عند التعميد ضمن أعضاء الأسرة ، وهم أشخاص حقيقيون لا خرافيون

يتحملون مسئولياتهم تحملاً جدياً . فعند تعميد أى طفل في البرازيل يعد والداه في التعميد برعاية الطفل إذا مات أبواه أو فتدا مالهـا ، وهكذا يبقى هؤلاء الأشخاص وثيقى الصلة بأطفالهم عند التعميد طول حياتهم .

ويعتبر رأس الأسرة في الأسر القديمة « أشيينا » لأطفال الخدم وغيرهم ممن يعملون لدى الأسرة ، فيتحمل مسئولية تعليم هؤلاء الأطفال ، ولهذا تكون الأشيين والأشيينات في كل أعياد الأسرة نفس الأهمية التي لأفراد الأسرة الذين يتجمعون معاً في هذه الأعياد .

وقد درج البرازيليون على إرسال أبنائهم إلى مدارس قد تكون بعيدة عن بلدتهم ، فإذا ما أتموا الدراسة بها سافروا إلى الخارج لإتمام تعليمهم . وتسببت هذه العادة في تشتيت الأبناء في كل جيل . لأنهم عندما يعودون تطيب لهم الإقامة في ريودى جانيرو أو في عاصمة ولايتهم ، وقلبا يعودون إلى قراهم أو مساكنهم الريفية . فليس بغريب أن تسمع من أم في إحدى المدن الصغيرة أن لها ستة أبناء يعيش كل منهم في ولاية ، وأنها تزورهم زيارات دورية ، أو أنهم يتجمعون في منزل الأسرة في العطلات . وتسبب هذه الزيارات المتبادلة التي يقوم بها أفراد الأسر الكبيرة زحاما على البواخر والسفن النهرية والطائرات والسكك الحديدية وسيارات الركوب .

ويرتبط أفراد الأسرة من كل جيل ارتباطاً عاطفياً وثيقاً طول حياتهم ، كما أن المشاعر والصلات بين الأشقاء والشقيقات تبدو قوية

جداً ؛ ذلك لأنه عندما يعيش الكثير من الأطفال معا فإنهم يدافعون عن بعضهم البعض ، ويحمي كل منهم الآخر ، ويهتم كل فرد منهم بشئون الآخرين مما يولد رابطة قوية بينهم . ويكون أصغر الأطفال مدلا من الجميع ، فلا يجوز له أن يبكي ، لأنه يبقى محمولا على ذراعى أحد أفراد الأسرة الكبار ، أو على ذراعى أحد الخدم . وتبتهج الأسرة بأن تعلم الأطفال الصغار أن يمدوا أيديهم للمصافحة قبل أن يتعلموا الكلام ، كما يلتقونهم بعض الجمل مثل : « كيف حالكم ؟ إننى بخير شكراً لكم » . بمجرد تعليمهم النطق ، وما يضحك أهل أمريكا الشمالية دائماً أن يشير الأطفال إليك إشارة الابتعاد عندما يريدون أن يقولوا لك « أقبل علينا » ، وأن يسيروا إليك مودعين بأسلوب يختلف عن الأسلوب الذى نستعمله نحن .

ويهتم الناس بسلوك الأطفال ويعلمونهم كيف يكونون حسنى السلوك . وهم يلعبون بالطفل كما لو كان « عروسة » ، ويعجبون بكل مايقوله أو يفعله . وهكذا ينمو كل طفل فى جو من الحب ، ويكون حميد الخصال ، خالياً من الالتواء « الحياء الكاذب » ومن الشعور بالخوف . ويعلم الأطفال الكبار من يصغرونهم كل ما يعرفونه ، ومن المناظر المألوفة أن ترى طفلا فى السادسة يعود إلى المنزل ليعلم شقيقته أو شقيقته التى تسكون فى الرابعة كل ما تلقاه هو طول يومه فى المدرسة .

وينتج عن ذلك أننا نرى البرازيليين يلتزمون باحترام الغير بدرجة

غير عادية ، لانشاهدتها في أى بلاد أخرى في أمريكا الجنوبية . والواقع أن كلمة « احترام » من أهم الكلمات لديهم في حياتهم اليومية .

وهم يستخدمون التعبير Falta de respeito - الذى يعنى أن الشخص يتقصه احترام الغير — كأحد الانتقادات العنيفة التى يمكن أن توجه إلى شخص ما . وإذا انصب عدم الاحترام على والد الشخص أو والدته فإن أصدقاءه والمجتمع الذى يعيش فيه لن يغفر له هذا الذنب . ولذلك فإن للوالد - وللوالدة بدرجة أقل - سلطة كبيرة على شئون أبنائهم وحياتهم ، حتى الكبار منهم . ويصدق ذلك بخاصة فى المزارع الكبيرة ، وفى الأسر التى يشترك الابن فيها مع أبيه فى عمله . ولا يخطر ببال الأبناء إطلاقاً - دع عنك البنات - أن يناقشوا آباءهم فى أى قرار يتخذونه .

ولما كانت الأسر كبيرة الحجم كما شاهدنا ، فكثيراً ما يتزوج أبناء وبنات الأعمام والخالات . فهناك مجتمع كبير من الأقارب الذين يجتمعون فى مناسبات التخرج فى المدرسة أو حفلات الزواج وأعياد الميلاد وأيام القديسين وغير ذلك من العطلات ، فلا حاجة للشبان والفتيات إلى البحث عن صداقات خارج دائرة أسرهم . ولهذا السبب - بالإضافة إلى أن الأولاد والبنات يذهبون إلى مدارس منفصلة - لا توجد فرص كثيرة يلتقى فيها الشباب بالفتاة . ويتم زواج الفتى من ابنة عمه كأمر طبيعى ، ويسر الآباء لذلك ، لأنه يبقى على ممتلكات الأسرة بين أعضائها .

غير أن لإرغام الفتى أو الفتاة على زيجة معينة لم يعد مقبولاً فى الوقت الحاضر .

وإذا نحن رجعنا إلى مائة وخمسين سنة مضت لوجدنا الأمور مختلفة كل الاختلاف ، فقد جاء البرتغاليون من أوروبا وأسلوب حياتهم يكاد يكون شرقياً ، لأنهم قضوا نحو خمسة قرون تحت حكم المسلمين الذين كان مجتمعهم يعطى الرجل الكلمة العليا في محيط أسرته . فكان الأب البرتغالي ملكاً مطلق السطة ، وكان منزل الأسرة بمثابة سجن ، لا تخرج منه النساء إلا لحضور قداس أو احتفال كنسي ، وجوهن محجبة ، ورب الأسرة في مقدمتهن ، ويتبعهن الخدم ، وإذا ما اضطر الرجل إلى السفر إلى أوروبا لقضاء عمل من أعماله فإنه كان يحبس زوجته وبناته في دير حتى يعود بعد عدة أشهر .

كان هذا يحدث في الماضي . أما البرازيلي الحديث فإنه يشتهر بين جميع سكان أمريكا اللاتينية بشهامته واحترامه للنساء ، وهو زوج وأب متساهل ، يفخر ببناته اللواتي يدرسن استعداداً لمزاولة عمل من الأعمال ، وينصت إلى آراء زوجته ورغباتها ، ويشجعها على الإدلاء بصوتها في الانتخابات ، ولكنه - رغم كل ذلك - يعتقد أنه من حقه أن يتحكم في ممتلكاتها ، ومن النادر أن يترك لها مبلغاً كبيراً من النقود تتصرف فيه ، أو أن يسمح لها بفتح حساب خاص بها في أحد المصارف . ولا تزال بعض القوانين البرتغالية القديمة قائمة ، وإن لم تكن تنفذ . كما لا تزال البرازيل تمنع الطلاق بين مواطنيها .

غير أن هذه العادات القديمة في طريقها إلى الزوال بسرعة . ويبدأ الشبان والفتيات حياتهم الزوجية بمفاهيم حديثة ، والحياة التي يحلون بها

هى أن تكون لهم شقة مكيفة الهواء ، بها حمام ذو جدران من الترميد الملون ، ومطبخ مزود بأحدث الأجهزة ، وتليفزيون ، وجهاز راديو قوى لالتقاط إذاعات الموسيقى من أمريكا الشمالية ، وشاطئ قريب للسباحة . ولكن هذا يتطلب دخلا يفوق ما يكتسبه زوجان عاديان — حتى من ذوى الدخل الكبير نوعا . لذلك عليهما أن يصبرا ويقبلا مع الوالدين فى بيت الأسرة . وبطبيعة الحال لا يستطيع الفقراء أن يحملوا مجرد حلم بهذه الحياة المترفة .

وتنتشر فى كل من ريو دى جانيرو وسان باولو حالياً الوحدات السكنية الصغيرة ، المجهزة بمطابخ حديثة ، كما توجد ندرة فى الخدم . وقد أحدث هذا تغييرا فى عادات الأكل بحيث يريد الاعتماد على الوجبات السريعة الإعداد . ولكن القاعدة فى معظم أنحاء البرازيل هى أن تناول الأسرة وجبة الغداء فى وسط النهار ، وهى وجبة كبيرة ، يبدأ الإعداد لها بمجرد الانتهاء من عمل قهوة الإفطار . وفى الجزء الأوسط من البلاد تتكون هذه الوجبة من صنفين متلازمين — هما : الفاصوليا السوداء والرز. وتطهى الفاصوليا فى مرق يضاف إليه بعض اللحم إذا كان فى وسع الأسرة شراؤه. أما الرز فيكون جافا يحتوى على قطع صغيرة من الطماطم وبعض الأعشاب . وتضاف الفاصوليا إلى الرز ويخلطان جيدا قبل البدء فى الأكل ، الذى يتكون فى هذه الحالة من طبق واحد يطلق عليه « رز بالفاصوليا » . فكما يكتسب المرء فى بلادنا « خبز يومه » — يقول البرازيليون إنه اكتسب « رز وفاصوليا » يومه . وفى بعض المناسبات الخاصة تطهى الفاصوليا مع لحوم مدخنة أو مملحة ، أو لسان عجل ، أو ذيل خنزير ، أو نحو ذلك مما يروق

الطاهى . ومن المعتقد أن هذا الطبق الشائع من أصل لإفريقي . أما « دقيق المانيوق » الذى ينشر على هذا المزيج من الطعام فهو عادة هندية برازيلية صميمة . ويقوم الأهل بالبشر نوع سام من المانيوق ثم يعصرونه لاستخراج مابه من سائل ، وعندما يجف إلى أقصى درجة ممكنة ، يحمص حتى تطرد الحرارة مابه من سم ، ويكون عندئذ معداً للبيع فى الأسواق . وترى على كل مائدة وعاء جميلاً من الخشب المصقول يحتوى على هذا الدقيق . وبالرغم من أن هذا الدقيق يبدو غير مستساغ فى ذوق الأجنى عن البلاد — إلا أنه يعطى كثيراً من الأطباق نكهة تطيب للبرازيليين .

ومن الضروريات اليومية الأخرى تلك القطع الصغيرة الرقيقة من لحم البقر التى عادة ماتقلى . وقبل أن تشح اللحوم بسبب الحرب كانت قطعتان من هذا اللحم تقومان مقام وجبة ، وعلى كل قطعة بيضة مقليه ، مما جعلها تسمى « البيض على ظهور الخيل » . أما طبق الحلو الشعبى الذى تلقاه دائماً وفى كل مكان فيتكون من الجبن ومعجون السفرجل أو الجوافة الذى يكون شديد الحلاوة وكثيفاً إلى درجة أنه يحتاج إلى سكين لقطعه .

ومن الطبيعى أن تختلف ألوان الطعام المحلية تبعاً لاختلاف الأجناس . ففي الجنوب نجد السجق والكرنب المخمر الألمانى والأطباق الإيطالية والبولندية بالقرب من الساحل . أما مناطق الماشية فى الداخل فتتخصص فى « التشوراسكو » Churrasco ويتكون من لحم بقر مشوى على أسياخ على فحم . وفى المدن يتحول التشوراسكو إلى « بفتيك » مشوى . وتعتبر منطقة ريو دى جانيرو أكثر مناطق البرازيل تنوعاً فى ألوان الطعام ، مع

ميل ملحوظ إلى المطبخ الفرنسى فى المطاعم . و منازل الطبقة الراقية .
أما باهيا والأقاليم المحيطة بها فإنها تفتخر بأطعمتها الافريقية الاصل .
ويستخدم الأهل لبن جوز الهند المبشور فى طهوه ، ويضيفون توابل
غريبة وكميات كبيرة من الفلفل الأحمر . ومن أطباقهم الخاصة طبق يسمى
« فاتابا » vatapa ، وهو يتكون من الدجاج أو السمك ، مع جبرى ولبن
جوز الهند ، ويضاف إليه دقيق الذرة ليجعل قوامه كثيفاً ، ويشبع بعد
ذلك بزيت الدندى dende oil ، ويمزج به الفلفل الأحمر حتى يصبح
لاذع المذاق . ويقدم هذا الطبق مع مكعب من البودنج البارد المصنوع من
دقيق التايوكا يوضع فى وسط الطعام الساخن . ومن الأطباق الأخرى
المنضلة لدى أهل باهيا نوع من الحساء السميك يسمى موكويكا
Muqueca ، وهو يجهز من سمك مملح ، مقطع إلى أجزاء دقيقة « رفيعة »
فى دقة خيوط الحرير ، ويضاف إليه لبن جوز الهند وزيت الدندى .

والكورارا Curara حساء آخر فى منطقة باهيا ، كثيف ولزج
لاحتوائه على الباميا . وهناك عديد من الأطباق الأخرى التى تختص بها
الأقاليم المختلفة .

أما فى الشمال ، وبخاصة فى بيلم وحوض الأمازون ، فإن الطبق الذى
يختص به الإقليم هو الحساء الهندى الذى يسمى بالانجليزية pepperpot ،
ولكن اسمه فى البرازيل هو tucupy ، وهى كلمة هندية تشمل جميع ألوان
الطعام التى تصنع من عصارة جذور المانيوق المغاية التى تستخدم كمرق فى
الطبخ . فهناك حساء البط وحساء السالحفاة وهكذا . وهناك طرق أخرى

عديدة لظهو لحم السلاحف وبيضها . ويعتبر لحم بقر البحر المحفوظ في دهنه والذي يسميه البرازيليون ميكسيرا Mixira من أفخر المأكولات في حوض الأمازون ، ولكن ارتفاع ثمنه يجعل استعماله مقتصرأ على المناسبات الكبيرة .

وقد أنعمت الطبيعة على البرازيل بثروة من الفواكه ، منها الفواكه المدارية التي تتحمل النقل إلى الأسواق الشمالية مثل الأناناس والأفوكادو والموز والبرتقال ، كما أن هناك عشرات من أنواع الفواكه الغريبة التي لا تتحمل التصدير . ولكل جزء من البلاد فواكه الخاصة به التي لا تنمو في الأجزاء الأخرى .

وبالرغم من أن الأقاليم تختلف بعضها عن بعض في ألوان طعامها وفي نواح أخرى ، إلا أن أوجه الشبه في كثير من الحالات أقوى من أوجه الاختلاف . فهناك عادات يفخر جميع سكان البلاد بالمشاركة فيها . ويعتبر الكرنفال أحد هذه الروابط التي تربط كل أجزاء البرازيل بعضها ببعض . فلكل مدينة وولاية أعيادها الخاصة التي يرقص فيها الأهالي ويمرحون احتفالاً بالقدّيس الحامي لهم أو بعطلة وطنية محلية . فالبرتغاليون والهنود والإفريقيون يشتركون في حبهم للأعياد والموسيقى والرقص . ولهذا فإن كرنفال البرازيل يتخذ شكل احتفال صاخب في جميع البلاد من الأمازون إلى ريو جراند دوسول ، يشترك فيه جميع الأهالي من الأطفال إلى الجدود في الرقص والمرح .

ويدخر الناس نقودهم لهذا الكرنفال قبل ميعاده بعدة أشهر . ويبدأ الاستعداد لهذا الحدث من تاريخ عيد الميلاد تقريباً ، فتمتلئ أعمدة الصحف بالإعلانات عن مشروعات الجماعات والأندية المختلفة ويشرع المؤلفون في تأليف أغاني جديدة ، تجربها الفرق الموسيقية في المقاهي والمسارح ومحطات الإذاعة والنوادي وفي المنازل . وسرعان ما يكتسب أكثرها حيوية وأحسنها إيقاعاً استحسان الجماهير ، فيرددوها الجميع ويتدربون جماعات على أدائها . وتنظم حفلات رقص في نهاية الأسبوع على نغماتها . وتتفنن شتى الجماعات في اختيار الزى الذى سيلبسونه في الاحتفال الكبير . وتشرع الأندية الكبيرة — فى سرية تامة — فى تصميم العرבות التى سيشاركون بها فى الموكب العظيم الذى يحاول فيه كل ناد أن يبرز غيره من الأندية . ويسمع أزيز ماكينات الخياطة فى جميع المنازل ، لأنه حتى الطفل لابد أن يحجز برداء المهرج ذى الرقبة «المكشكشة» ، حتى يقفز على ذراعى والده على أنغام الموسيقى .

وأخيراً — فى يوم الأحد السابق على عيد الفصح — يبدأ كل شىء . فيستمر أهل البرازيل جميعاً فى الرقص ثلاثة أيام متصلة تنتهى عند منتصف ليل الأربعاء الرماد . وفى خلال هذه الفترة يرقصون حتى يكادوا يسقطون من الإعياء ، ويغنون حتى تتحول أصواتهم إلى همسات ، ويتدافعون وهم يتبادلون رش بعضهم بعضاً بأثير معطر من رشاشات صغيرة يحملونها . أو يتماذفون بقضاصات وأشرطة من الورق التى تتراكم حتى تصبح طبقة تنغوص فيها الأقدام إلى الرسغ . وفى ساعات الصباح يختطف القوم فترة

قصيرة النوم ، ولكنهم لا يضيعون وقتاً يذكر في تناول الطعام . لأنهم ينسون تماماً مواعيد وجباتهم العادية .

وفجأة ، ينتهى كل شيء ، ولا تبقى سوى الملابس الممزقة ، والذكريات والقصص التي تروى حتى يأتي ميعاد السكر نفال التالى . وبالرغم من الهوس والجنون الذى تنسم به هذه الاحتفالات ، إلا أن كل فرد يعرف حدود النظام والأدب . ولا يقدر غير البرازيليين على الاحتفاظ بهذا السلوك المذهب ، كما أنهم ينفردون بهذه الطاقة التي تجعاهم يستمرون فى نشاطهم الحاسى هذه الفترة الطويلة . وفى هذا دليل على أنهم من أكثر أهل الأرض مرحاً ، وأقواهم عاطفة ، وأطيبهم روحاً .

شركة الطباعة الفنية المتحدة
١٥ شارع العصاوية
قلمينوت ٨٣٧٤٦٧

